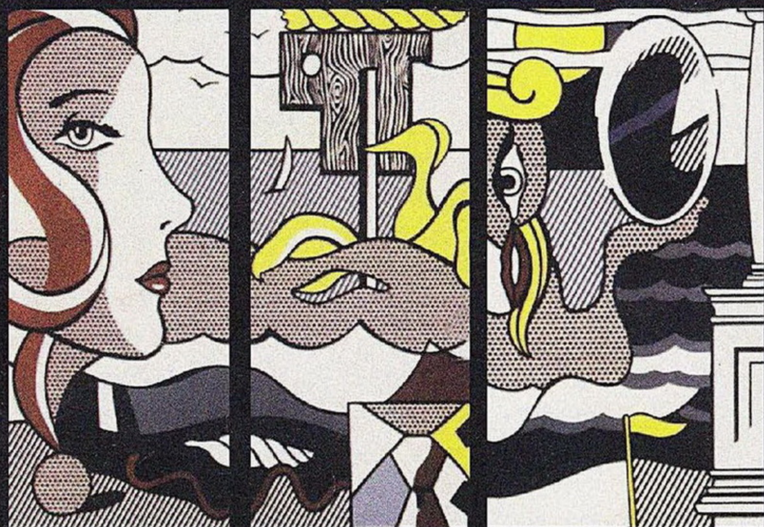
فقير بايقورت



6.10.2.12



ثأر الأفاعي



رواية

ترجمة: عبد القادر عبد اللي



فقير بايقورت

ثأر الأفاعي

ترجمة:
عبد القادر عبد اللي



ثأر الأفاعي



اسـم المـؤلـف : فقير بايقورت
عنوان الكتـاب : ثأر الأفاعي
المتـــــرجم : عبد القادر عبد اللي
النـاشـــر : المدى
الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠٦

Author : FAKIR BAYKURT
Title : YILANLARIN ÖCÜ
Translator: Abd Al kader Abdelli
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الكاتب والرواية

ولد الكاتب التركي فقير بايقورت عام ١٩٢٩ في إحدى قرى محافظة بورضور. درس في معهد ريفي وعمل معلماً في القرى النائية مدة خمس سنوات. ثم تابع دراسته الجامعية، وتخرج من كلية التربية - جامعة غازي - أنقرة. انخرط في العمل النقابي، وانتخب رئيساً لنقابة المعلمين في تركيا، ورئيساً للاتحاد القومي لروابط المعلمين في تركيا. عمله النقابي أودى به إلى السجن عام ١٩٧١. وبعد محاكمات طويلة أمام المحاكم العسكرية حصل على البراءة. هاجر إلى ألمانية، وأقام في مدينة «دويسبورغ» حتى وفاته في عام ١٩٩٩.

بدأ الكاتب شاعراً، ولكنه انتقل إلى القصة والرواية، وصدر له أربع عشرة مجموعة قصصية واثنتا عشرة رواية. وكتب عدة مجموعات قصصية للأطفال.

حصل على جوائز أدبية عديدة في تركيا، وقد حصل على جائزة «يونس نادي» للرواية عن روايته هذه عام ١٩٥٨.

تعتبر رواية ثأر الأفاعي أول نموذج لتيار «أدب الريف» الذي ظهر في تركيا في أواسط الخمسينيات. وهي ليست نموذجاً رائداً لهذا الأدب فحسب، بل بقيت إحدى أهم روايات هذا التيار. وأدب الريف لا يقتصر

على تناول موضوعات الريف فقط، بل يبحث في فنيات خاصة معتمداً على لغة الريف. فالرواية مكتوبة بالأصل بلغة (أو لهجة) محلية، وهذا ما جعل الترجمة قريبة من لغة المنطوق.

بايقورت أهم من صوّر الريف التركي، فقد صوره بعد معايشة عن كثب.

نقلت هذه الرواية إلى السينما والمسرح، وأحدثت ضجة كبيرة في تركيا إثر صدورها. ووصلت هذه الضجة إلى مجلسي النواب والشيوخ، ونوقشت في جلسات رسمية لهذين المجلسين، وطالب بعض الأعضاء بمنعها عام ١٩٦٢..

قال عن هذه الرواية يشاركمال: «رواية ثأر الأرفاعي عمل لن ينسى في أدبنا، وسيُتبع..»

مازالت تتوالى طبعاتها في تركيا، وقد طُبعت بين عامي ١٩٩٧ - ٢٠٠١ ست طبعات.

- ١ -
زرع شتول الخضار

لفَّ ضوءُ الشمسِ القريةَ، وغطى الأرض.

العربة المربوط عليها الثور فولاذ والبقرة النحيلة تتقدم متعرجة بشكل خفيف مصدرة قرقعة باتجاه حقل الخضار في (طاظلي ير). كلب البيت الأصفر الصغير (طومان) يهرول بجانب العربة، وأحياناً يندس عند جذع نبتة أو شوكة، ثم يعود إلى الهرولة.

جهَّز فلاحو (قرة طاش) أنفسهم طيلة أسبوع من أجل زرع «شتول الخضار». وبدؤوا النهوض باكراً، والعودة من العمل متأخرين.

منذ يومين، يذهب (قرة بيرم) إلى حقل الخضار مصطحباً زوجته وابنه الذي وصل إلى عمر يمكن أن يفيد في عمل ما بالتدريج. حرثوا الأرض التي ستزرع. وحضروا خطوط الزرع والحُفَر. كانوا قد زرعوا بطاطا وفاصولياء، وجاء دور الأعمال الأخرى المتبقية.

إنهم على العربة المصدرة صريراً ذاهبون من جديد. يلكز (قرة بيرم) البقرة تارة والثور تارة بمهمزه. بقيت أمّه (إراظجة) في البيت مع حفيديها. وللبيت أيضاً أعماله المناسبة لها.

يقع حقل الخضار على اليسار، بعد عبور جسر (تشاقر) مباشرة. يمكن

إرواؤه بسهولة بماء الطاحون. الحقل ثلاثة أرباع الدونم. زرعوا ربع دونمٍ بطاطا، وربع دونم فاصولياء. ويبقى رُبيعُ دونم لبقية الخضراوات. وهو من جهة أخرى قريب من القرية. في الربيع، تذوب الثلوج النادفة على جبال (قرة طاش) التي تطلع الشمس من ورائها، وتنهار بهدير فظيع متحولة إلى سيول تترك حجارتها وحصيّها في الأعالي. إذا مُلئ المكان هنا مرةً أو مرتين بالطمي الحلو الناعم، تغدو الأرض الخصبة أخصب.

حقول صغيرة صغيرة. أشخاص على درجة من الغنى مثل (آغالي) و(المنجل) والمختار (حسنو)، و(إسماعيل التيوس)، وعضو اللجنة الاختيارية (إبراهيم) لديهم أراض تزيد عن دونم أو دونمين، أما البقية، فلدى كل منهم نصف دونم أو ربع! حتى إن هنالك من ليس لديه أرض أبداً. وكما أصابع اليد ليست واحدة، فهي ليست واحدة في (قرة طاش).

مجاري المياه الصغيرة التي تنبع من (قرة طاش) ومحيطها، تجتمع في هذه الأراضي، وتسيل نحو الأسفل. تروي حقول الخضار المجاورة، وحقول الفاصولياء، والذرة الصفراء، والحدائق، والبساتين، والقرية، ثم تصبُّ في بحيرة صغيرة كالصحن. إذا جاء الصيف، تطير البحيرة، وتتوق لقطرة ماء، لأن الناس لا يدعون ماء الترعة يصل إلى البحيرة، يقومون، ويقعدون على ضفتها.

حقل خضار (بيرم) صغير، ولكنه يقع وسط الزاوية التي يلتقي فيها المسيل المدعو ماء الطاحون، والمسيل المدعو ماء القرية. وهو أحد ثلاثة حقول تقع في هذه الزاوية. بالنسبة إلى (بيرم) ليس عنده وقفة أمام المختار طوال الصيف، والصراخ: «ماء، ماء!» كالغربان. فالماء تحت يده مباشرة، حوله، جريه، السقاية سهلة.

إذا فكّر (بيرم) بحقله، يقول ببراءة: «قَدري جيد. وقعتُ على حقل جيد، ولكن كدِاني سيء. طرفه هذا بقرة، وطرفه الآخر ثور. ولكن الحقل جيد، وزوجتي جيدة!...» يقول هذا لنفسه، ويضحك. إذا كان المكان قفراً، يداعب زوجته (خدوج) بيده بشكل خفيف.

بدأت حركة الصباح للتو. بدأ الناس يقومون ويقعدون لتسيير أعمالهم التي أمسكوا طرفها. ترك أهل (قرة طاش) بيوتهم، وغرف أغراضهم الجانبية، وانطلقوا إلى يوم العمل وشمسه. مشى أكثرهم إلى حقولهم وبساتينهم.

يجلس بيرم وابنه متجاورين في مقدمة العربة. أعطى المهمزة لابنه، وهو يتكلم.

كان يقول: «زرعنا هذه السنة أفضل بذور البطاطا. زرعنا زيادة. إذا كانت السنة خيّرة، سآخذ عجلاً لأضعه إلى جانب فولاذ باشايا أحمد! تُمشّطُه، وتنظفه، وتعمل كرة من وبره» ويطبطب على ظهر ابنه.

بعد ذلك، يلتفتُ إلى زوجته الجالسة في الخلف:

«ولا، خدوج، سأحوّل البقرة (ملاك القمر) لك نهائياً! اعلفي عجلها، اجمعي حليبها، اصنعي سمناً، لا أتدخل أبداً.

تقول خدوج الممسكة بسلّة مليئة بالبذور في حضنها وهي تبتسم: «إذا لم يأتِ سيل وقت جمع المحصول، ويجرف كل شيء، ويكنسه..»

يقول بيرم: «لا يجرفه أو يكنسه أبداً! دعّمت الحواجز كلها! إذا أنهينا عمل الزراعة، نسحب قليلاً من التراب، فينتهي هذا العمل على أكمل وجه. السنة قبل الماضية، جرف السيل مواسم الجميع، ولكن موسمنا سلم. أرأيت..»».

تقول خدوج: «رأيت، ولكن.. إذا لم يأت سيل فستحلٌّ مشكلة

أخرى. رحماك، لنقل لا يحدث، كيلا يحدث. نعم، لنأخذ عجلاً إلى جانب فولاذ باشا! ولنرَ باكورتنا، وإذا أخذنا منها العجل الأول نحلبها مع ملاك القمر..».

يلكز أحمد الثور تارة والبقرة تارة بالمهمزة: «ولكنني أريد (جزمتي) هاااا! كنتَ ستشتريها في السنة الماضية، لم تشترها! لابد من شرائها هذه السنة..».

أخذ بيروم المهمزة من يد ابنه، وقال: «بالتأكيد! أنا كنت سأشتري لك الجزمة في السنة الماضية، ولكنني قلتُ: تنتظر سنة أخرى، وأشتريها بعد ذلك!».

«لماذا؟»

«وهل يوجد هنا لماذا؟ لتكبر قليلاً. لو اشتريتها قبل أن تكبر، ستكبر فجأة، ولا تتسع لقدميك! وعندها لا تنفع الجزمة أبداً. لهذا السبب، قررتُ أن تكبر سنة أخرى».

قال أحمد: «أنا كبرتُ تماماً!» وحاول أن يُنهض كتفيه، وينصب جذعه.

«انتهى الأمر؟ ألن تكبر أيضاً؟»

فكر: أيمكن ألا أكبر؟ أريد أن أكون بقدّ (حسن صاري إللز) وأن أقلب الأذرع كلها عندما أمسكها، وأكون أفضل من يلوح مدقّ جرن البرغل، وأن أحصل على الجائزة في رقصات الأعراس، وأن أكون أفضل من يطلق صيحة «هيييه» أمام الطبول.

سأله أبوه من جديد: «حسنٌ، هل ستبقى بهذا القدّ؟»

تمتم: «لن أبقى، ولكنني أبقى قليلاً إذا صار عندي جزمة».

داعب بيرم رأس ابنه من جديد: «اعتنِ بنفسك لتكبر! عندما يأتي

الخريف، سأشتري لك جزمة، وقبعة، وسترة دون أكمام! عندما تلبسها، وتظهر في القرية، ستضع بنات القرية كلهن أعينهن عليك! فوق هذا، سيكون استعراضاً، ومباهاة للعدو والصديق! هذا ضروري!..»

اختطف أحمد المهمزة من يد أبيه، ولكز البقرة مستمتعاً. سرّع العربة.

قالت خدوج زوجة قرة بيرم: «يلزم أحمد حينئذ موسى ذات مقبض من العظم، وسلسلة! وأنا أعمل لها بيتاً. وإذا علّقها ابني ستهز البنات مؤخراتهن خلفه!»

ضحك أحمد ضحكة ابن الست سنوات المحبب. التمعت أسنانه القوية البيضاء كالحليب، وقال لأبيه: «هل تشتريها؟»

«أيقال: هل تشتريها؟ سأشتريها بالتأكيد».

دسّ الولد يديه بين فخذيه، وبدأ يضحك مصدراً صوتاً.

داعب بيرم ابنه مرة أخرى: «ونسجلك في مدرسة (أورطاكوي). في قدميك جزمة، وعلى خصرك موسى، ولديك قبعة جميلة، وكتب جميلة، وسترة جميلة».

قالت خدوج: «جهزت ابنك بشكل جميل». وكان في صوتها رجفة غير واضحة: «سيسأل من يراه: ابن من هذا؟»

«سأشتري لكِ أيضاً زناراً، ولاه. زنارٌ مزركش أيضاً؟»

بلعت خدوج ريقها: «وهل ستبقى نقود لزنار مزركش أيضاً؟»

قال بيرم: «تبقى! ومع الزنار قطعة قماش مزهّرة!...»

«أنا لا أريد أن أقطع قماشاً مزهراً. اشتر لي أربعة أمتار قماش سميك، ولفة قماش (ألجا)(*) يكفي!..»

* – نوع من القماش الرخيص المنسوج في مدينة (أخي يمان).

زرع القرطاشيون على طرفي مسيل ماء القرية صفصافاً وحوراً. وجفّت المستنقعات، وشاخت أمكنة القصب القديمة. بدأ بيرم يضخّم صوته، ويلقي بوعود فارغة كالسياسيين غير المسؤولين:

«كفاكِ لبس الألجا المرقع حتى اليوم! بعد الآن، سأشتري لك قماشاً ناعماً مرسوماً عليه أغصان ورد، وسأقدمكِ بلباس قطني ولاه! النهاية للبؤس حتى الآن!»

عبروا جسر (تشاقر). ماء الطاحون ساكن لا يُبدي أنه يسيل. ارتعبت مئات الضفادع من الصخب الذي أحدثته العربة على أخشاب الجسر، فغطست في الماء. أقلع لقلق من أكمة قصب إلى الأمام قليلاً. وصرّ جدجد صريراً طويلاً جداً. لعلها أفعى. أقلع لقلق آخر من أكمة القصب.

قفز بيرم. أمسك مقود العربة، ودورها نحو الباب الملفق للحقل، بعد ذلك، سحبها إلى جذع شجرة الصفصاف. أوقفها. قال لنفسه: «ها هو حقلنااا!» احتضن أحمد، وأنزله.

قال لخدوج: «هيا لنر يا حرمة! انزلي أنتِ أيضاً».

نزلت خدوج بانتباه وهي تحمل سلة صرر البذور في حضنها. تركت السلة عند طرف الباب. بدأت بإنزال الخرج والكيس. وحملت جرة الماء والكوب إلى عند الباب.

بيرم أيضاً فكّ الثور والبقرة، وقادهما إلى أكمة القصب.

قال: «هاتان تُسلمان لك يا جاويش أحمد. اسرح بهما دون أن تؤذي شيئاً! اعرف المكان جيداً. در بالك من الدخول إلى وسط أكمة القصب، وإسقاط دوابنا في حفر الطين وماطين!»

أكمة القصب هذه، من أهم الأمكنة التي تنتشر فيها دواب القرية. إنها جيدة للجواميس والعجول والجحيش. تنبتُ أعشاب عند أسفل

القصب ذي الرؤوس الإبرية الطويلة، والمرتفع حتى الركب، والقاسي غير المفيد بشيء للدواب والناس. الأعشاب ذات أوراق شريطية ناعمة. تأكلها الحيوانات. هو فسحة عريضة إلى الأسفل من مسيل ماء الطاحون. إنه عريض، ويمتد متوسعاً. إذا كانت هنالك فائدة من أكمة القصب غير المفيدة، فتستخدم تربتها بتطيين ما بين أخشاب السقوف، وما فوق الأبواب والنوافذ. يأتي إلى هنا من يبني بيتاً، ويحفر، ويأخذ أحمال عربات. رغم هذا، لا يضعف. يضعف الناس الذين يعملون ويكدحون في حقول القرية وسهولها، والحمير التي تُنزل حطباً من الجبال، والثيران المربوطة إلى نير الحراثة، والبيوت والسقوف، ويبقى القصب الشوكي في الأكمة. بمنتهى السلامة. يتجدد، ويينع من سنة إلى أخرى.

ثمة حفر طينية وسط أكمة القصب الفسيحة. إذا سقطت دابة في حفرة طينية فلا تخرج. وتغوص أكثر كلما تخبطت.

نَبَّهَ بيرم ابنه بإلحاح: «رحماك يا بابا، لا تُسقِط مالنا في حفر الطين!»

قاد أحمد الثور والبقرة. في عقله موسى ذات مقبض عظمي، وسلسلةٌ، وجزمةٌ مطاطية، وقبعةٌ، وشالٌ مزركشٌ على رقبته، ومدرسةٌ، وسترة، وولد أسعد مما هو الآن بخمسين ضعفاً، وأحمد مختلف... ركَض البقرة والثور ذاهباً. سيرتدي ثياباً، ويكبر في آن واحد. وسيصيح «هيييه!» في الأعراس. وسيدق اللحم من أجل طبخة القمح باللحم، وسيلعب في الساحة لعبة «الجمع في السلّة». البنات.. ستلحقه البنات هازات مؤخراتهن خلفه. البنات أيضاً سيكبرن. وسيلحق فتاة نحيلة تفوح من شعرها رائحة كالتي تفوح من شعر أمه. وستراها جدته الشائبة الشعر إراظجة، وتسعد.

- ٢ -
أرضية البيت

«احم، احم، احم!...»

نهض (هاجلي) العضو الثاني من اللجنة الاختيارية لقرية قره طاش في فراشه، وهو يكح. لديه عمل كثير اليوم. إنه يقطع حجارة. سيبحث عن عمال وحجارين. حكى مع (محمد الرأس الحجري) معلم البناء في القرية، وحميّ أخيه مولود، وأخذ منه وعداً موثوقاً. سيذهب إلى قرية (غوغتشة قايا) القريبة ليبحث عن معلم آخر. كان يقول الرأس الحجري: «إذا وجدتَ معلماً آخر، فسنبنيه معاً...» سيبني بيتاً جديداً. سيضع الأساس غداً، وإن لن يحدث هذا، فبعد غد.

سيُنقذ من البيت القديم الواقع عند أسفل مجرى ماء القرية الذي يسيل منتشراً دون أن يبدو سائلاً، والمتجه نحو الباب. سئم منه تماماً. أخرجه هذا البيت عن دينه. إنه يمحقه. لم يبق عند حدود السأم، بل لم يعد يطيقه.

استيقظ وهو يكح، ونظر. المخدّة رطبة! اللحاف رطب! ثيابه، وكل ما عليه رطب! إنه رطب في الصيف والخريف! وافهم ما يحدث في الشتاء. يدفق الماء منه. كانوا ينادون أباه في قرة طاش (محمد المجنون). ضحك هاجلي من تحت شاربه الأسود الكث: «هل يبني بيتاً

هنا لولا أنه مجنون؟ كان المرحوم اسماً على مسمى! ولأنني رضيت بالسكن في هذا البيت طيلة هذه السنين، فأنا أيضاً هاجلي المجنون!»

يحبُّ التفكير وهو يضحك بشكل خفيف في أثناء ارتداء ثيابه.

«هذا قصور عند جماعتنا. ها هو أخي مولود أيضاً عنده عارضة ناقصة. فهو يشتري حصتي من هنا. لا يقول: لأخرج، وأذهب إلى مكان مناسب، وأبني بيتاً جديداً! سيهدم المكان هنا في المستقبل، ويبني! ولاه، سينبع الماء من جديد يا مغفّل! يقول: إنه سيبني بيتاً، ولا يخرج! حسنٌ، ماذا سيحدث للدواب في الأسفل؟ ماذا سيحدث لتبنها؟ ألا يغدو مبللاً الآن؟ ألا يتعفن وتفوح منه رائحة التفسخ؟» زوجة أخيه مولود هي ابنة الرأس الحجري. «لعل أخانا يثق بمهارة حميه! لعل الرأس الحجري قد همس له: اعطوا أخيكم الكبير هاجلي قرشين، واخرجوه، ولنهدم، ونبني بيتاً. غداً تراه يُخرجُ محرماً، ويُخرج عمراً أيضاً. أخي مولود من نسل الجان قليلاً. ولكنه كيف يطمئن فوق المستنقع حتى ولو كان الجني نفسه؟ أنا ربحت اليانصيب، الجائزة الكبرى. أي جاءني (دوشيش). في النهاية رأيتُ معروفَ المختار حسنو آغا. أعطاني أرضية بيت وسط القرية. سيكون كل شيء على ما يرام عندما أدفع للصندوق سبعمائة ليرة من النقود التي سيدفعها لي أخي مولود في الخريف. أرضية كالمسك وسط القرية! دون رطوبة! الصنبور لصيق بي. الجامع مقابلي. تجمّع العجول أمام باب بيتي مباشرة. إذا انشغلتُ فالبقال حسين قريب. مقهى نوري قريب. لا أحد يستطيع الحصول على أرضية بيت كهذه. المكان (دوشيش) حقيقي. أوه! لأبني بيتاً هناك. يكون داراً بطابقين أولاً. ولتكن وجهتها إلى الجنوب ثانياً. ولتكن الطغراء على واجهتها ثالثاً! ولتكن في البيت رفوف خشبية، وخزائن حفر! وليكن في البيت

مجلس خشبي صيفي جميل! وراءه بيت خلاء. وبين الغرفتين مكان صغير للاستحمام. يليق به دفن رأس ثور تحت الجدار الأمامي. يمكنني أن أسقفه بالقرميد مستقبلاً. انتهت الديون. أرض بثمانية آلاف من مزرعة نجيب بك التي بيعت! أوخ وأوخ! مولودنا المخبول: «آغاي هاجلي غشيم، غشيم جداً. ترك حصته بألف وخمسمائة، وسيذهب المغفل!» هاه! هاه! لا تخرج صوتك يا هاجلي. لا تُقلق المغفل. ليقل إنني مغفلٌ، ويسلِ نفسه..»

ربط حزامه. شدّ بنطاله الصوفي. السترة والجوارب. سوى شاربه الكث، وضغط فوقه. نيّم شعره. ميّل قبعته بشكل خفيف. وصل إلى عند الباب. واربه. لمس أنفه وشاربه مرة أخرى أمام المرآة، وسواه.

التفت ناظراً إلى زوجته وهو على وشك الخروج. تتمدد على جنبها الأيسر. تُخرج إحدى ذراعيها. اللحاف تحت ثدييها. شعرها متناثر على رقبتها وصدرها. أحد ثدييها يخرج منتفخاً من تحت القميص الداخلي. فاطمة سمراء مدورة الوجه مكتنزة الشفتين. إنها جذابة هكذا أكثر منها عندما تكون نائمة بجانبه. ولكنها عصبية. لماذا؟ محتمل من كرهها لهذا البيت الذي لا يرى الشمس فوق المستنقع. لعلها لا تجد لذة بالنوم والسكن هنا. لماذا تنام الزوجة وتبقى مع زوجها إذا لم تجد لذة؟ يريدها زوجها أن تنام وتقعد مساء وصباحاً. كانت تقول أمه رحمها الله بنوره: «لديكم شيء من جنس الكباب». هذا يعني أن المرحوم أبي أيضاً كان مبتلياً! المهم، أنا أبني بيتاً وسط القرية. لنقل لحميّ مولود: اترك نافذة بجهة الشمس! وليتدفق الريح منها عندما تُفتح. ولتمتلئ الخلوة بالهواء فوراً. وليكن بيتاً كالمسك. ولتكن هناك حصيرة في الأسفل، وفوقها بساط شعري، وليكن البساط من نوع (غميش)، وفوقه فرشات منجدة، ولتعلق فاطمة سجادات على الجدران. ولتصفّ الصحون المبيضة على

الرفوف. ولتضع جرّة (قزل حصار) المملوءة خلف الباب، ولتربط غطاء الرأس كالعروس الجديدة. وعندما أشتهيها، أقول لها: «تعالي ياه» وليلعب الأولاد وسط القرية!

غمّ قلبه المنتفخ عندما فكر بالأولاد. أصبح قلبه مجعلكاً جداً. سأل نفسه: «مالهما؟ رأسان ضخمان، ورقبتان رفيعتان. فوق كل رقبة مدقة ضخمة. رأسا أرنب. وجهاهما أصفران كالقصب. هووووه! مع أنه توجد بقرة في البيت. ولا يبقيان دون اهتمام أو تحمل مسؤولية. أصنع الجبن في ظرف الجلد من أجلهما. ولكن بشرتهما كما هي. لينقذ اللهُ الذي أنقذني من هذا البيت محرماً وعمراً الأغبر أخوي. ولكن مولوداً المنحط لا يُنقذ. يبقى. يهدمه، وينشئ مكانه داراً. لعل الدار تكون جيدة، الرأس الحجري يعرف هذا بشكل أفضل!». اختلطت الأمور في عقله فجأة «إذا بنى بيتاً فلا يستطيع إعطائي الألف والخمسمائة مالي! لا، لا يمكن الصبر أكثر من الخريف. إذا لم يعطنيها في الخريف، آتي، وأجلس فوق رأسه: «هيا يا أخي لنرَ! خلق الله الأخوة أخوة، ولكنه جعل رزقهم جميعاً! أنا لي دين أيضاً، هيا لنر!.. صندوق القرية يطالبني، هيا!.» أضغط على بلعومه، وآخذها، أنا لا أعرف أحداً أبداً..

خرج من باحة الدار. «تسلم يا حسنو المختار! أنت تدعمني وكأنك جَبَل ضوملو الضخم. انظر إلى إنسانية هذا الرجل. أدخلني اللجنة من جهة، وأعطاني أرضية بيت من جهة أخرى. لولا أنه همس لأولئك الجيران، فمن سينتخبني للجنة؟ كما أنه لم يقل ادفع النقود فوراً، ولله الشكر! وليس قريبي من بعيد أو قريب، ولكن هنالك الطيب أيضاً بين الناس! انظر إلى الرجولة التي عملها معي. إنه يعطيني أرضاً وسط القرية كالمسك بسبعمائة. لا يمكنك أن تشتريها بألف وسبعمائة! وادفع

ثمنها في الصيف أو الخريف! إيه، نحن أيضاً لا نمنع عنه رجولتنا عندما يتطلب الأمر. هاهما!... أحياناً، يعارضه اسماعيل التيوس، والعضو إبراهيم في اللجنة. أنا لا أحرمه من دعمي، هووووه».

مشى أمام بيت (منجل). «هكذا يكون البيت الذي يسمى بيتاً. الكافر المنجل وارث من أبيه. كان أبوه الذراع الأيمن لنجيب بك! وبقي ملكه لمنجل. آغالي غني قليلاً، وعلي عزت أيضاً».

خرج إلى وسط القرية. مشى حتى الحي العلوي. ذهب إلى خليل المهزلة وابنه اسماعيل. طلب منهما العمل في حفر الأساس. «سأدفع يومية الواحد ثلاث ليرات». كانت ليرتان ونصف في السنة الماضية. «آه، هذا الوقت الذي يحتاج فيه كل عمل أن تفتح الكيس إلى آخره، ليس في وقت بناء بيت. ولكنني سئمتُ من الحي السفلي! ووعدني أخوتي. سيساعدونني. وأنا سأساعدهم. إنهم يقطعون الألف قرميدة بـ ١٢٥. تكفيني ألفان، وعلى الأكثر، الأكثر ألفان وخمسمائة. سيكون الأمر على ما يرام إذا كلّفت كاظم الباهت وأولاده بقطع الحجارة. ولكن نقوداً كثيرة تذهب. احتمل يا هاجلي المجنون! تماسك هاه! أبيع خروفاً أو اثنين إن اضطر الأمر يا روحي! تقول للمختار أيضاً: هييه يا حسنو آغا ادعمنا قليلاً. وإذا جاء يوم يحتاج فيه راكب الحمار الفضي لراكب الحمار الخشبي سندعمكم أيضاً. ثم إن الحمار يديّن الحمار حكة، هيا لنرَ!.. يدعمني بالتأكيد..»

لم يمر على دار المختار. كان حسنو آغا في الناحية. دعاه القائمقام إلى اجتماع. لأمر التمثال. والأمر يتطلب نقوداً كثيرة. «لا يكفي القليل أصلاً. سيّء أن يدفع هناك ما سيأخذه مني!..» خمدت نشوته فجأة. قال: «سأحترق إذا طلب مني السبعمائة ليرة فوراً!» طرد هذه الفكرة من

رأسه. ولهذا دورٌ ما بعدم تعريجه ملسها. يمكن أن يكون قد ترك خبراً عند زوجته عطية المائلة الفم، ويمكن لعطية المائلة الفم أن تأمره بأعمال أخرى: «هاجلي، خذ هذا، واجلب ذاك». ويمكن أن تقول: «اجلب النقود أرجوك يا أخي الكبير» انعطف نحو الأسفل بسرعة.

مرّ على الرأس الحجري قليلاً. المعلم يدخن سيجارة. زوجته كاملة تحضر الرقائق المحشوة. دخل فوراً. قطع نصف واحدة دون شكلانيات. وكان يتكلم إلى المعلم وهو يغطُّ شاربه بها: «كم سأدفع لك لكل عربة حجارة؟»

«أأنت مجنون يا هذا؟ الحجارة للآثار. خذ بنفسك الجاهزة من هناك، عند القلعة القديمة! أين ستجد الآن الديناميت، والمثقب، وتكّسر، وتُفجّر، وتقول هذه وتلك...»

كاد يقبل يد الرأس الحجري. «الرجل يعرف عمله حقاً. وهل يسمونه معلماً لولا هذا؟»

«هنالك حجارة كثيرة في خرابات الآثار والقلعة القديمة! تبني مائة بيت. أحجار جاهزة، ومسواة! ولكن الحكومة تغضب. أنت بحماية المختار. وسنُنهي الأساس قبل أن تعلم الحكومة. ندهنها بالطين قليلاً، فلا تُعرف. وكيفما كان، سيكون فوقها قرميد...»

لفّ ضوء الشمس القرية. أكل قطعة الرقائق: «عربتكم وعربتنا تكفيان لهذا العمل. أنا أجلبها، هذا هو الصحيح يا معلمي!..»

«طبعاً!.. غير هذا، لا تستأجر حجّاراً، وتدفع نقوداً لا لشيء! لا يرضى أولاد الباهت بالقليل. المغرفة تضيع في أفواههم هؤلاء السفلة! دع نقودك في زنارك. تدفعها غداً للمعلمين والعمال..»

«يا روحي!.. تلك النقود غير موجودة في زناري الآن. ويجب أن

أدفعها للصندوق إن وجدت. إذا قال القائمقام اليوم في الاجتماع: النقود! سيقول لي المختار غداً: النقود!..»

«يأخذ من أجل أرضية البيت سبعمائة ليرة؟»

«إيه..»

«عال. مثل المسك!..»

قطع قطعة من رقائق الأخت كاملة، وقال: «إيه، والله، بالله مثل المسك».

«أسرع! لأنه وسط القرية. سيخرج لك سافل يدقع ألفاً، فيقلب المختار. المكان يساوي ألفين. من جهة أخرى لاتباع أرضيات بيوت وسط القرية دائماً».

دفع الرقائق إلى فمه، وفي طريقها، قال الرأس الحجري: «اسمع يا هاجلي. قلت لك: مرّ على الشيخ بيت الله! هل مررت؟»

«لم أنسه. بصعوبة جداً أجد وقتاً. غداً سيأتي خليل المهزلة وابنه، وأخوتنا كذلك. اليوم أمر على الشيخ بيت الله..»

«اليوم؟ متى؟»

«مساءً».

«لاااا، لا تماهل بشغل الشيخ! اذهب الآن فوراً! إنه في الجامع. التقطه قبل أن يخرج. ومساء نذهب إلى أرضيتك، وندقُّ خوازيق الأساسات. أنت تعرفني، لا أدق الخوازيق إذا لم آخذ جواباً سليماً من الشيخ. هذه نصيحة معلمي أدهم. لابد لك من الذهاب إلى الشيخ بيت الله يا هاجلي...»

«حسنٌ يا هذا! إذا كان الأمر هكذا، سأذهب الآن! كيفما كان لن أبحث عن حجار. سأفعل ما قلته، أستودعك الله يا معلم محمد...»

- ٣ -
المياه الدافئة المتدفقة من المرشـ

سحب بيرم ثلاثة أغصان إجاص بري موضوعة مكان الباب فاتحاً الطريق. حمل اللوازم إلى الداخل. تتمدد الأرض المزروع قسم منها ومعدّ للزرع قسم آخر بلون جميل صباحاً. كانت كعروس شهمة لا تريد الاستيقاظ من نومها الجميل.

المكان هنا حقل خضار معتنى به. محاط بسياج من الأغصان. لا تبحث فيه عن عشبة غريبة أو ضارة. خُدمت التربة بحيث صارت كالسميد. في بعض أمكنة حدودها المتعرجة نبت القرنفل البري، وهو قوي وطويل! وتُرى خمسة إلى عشرة عروق قصب.

قال بيرم: «يجب أن نجلب أغصاناً شوكية أخرى للسياج!»

قالت خدوج: «وباباً سليماً! مغطى، وله مقبض. ويجب أن يغطى تماماً بالأغصان الشوكية كيلا يستطيع أحد الدخول. بعد ذلك، يجب أن نزرع شجراتٍ، وحولها أزهار..» توقفت. نظرت إلى زوجها: طويل، وذو شنب، ولكنه ضعيف: «لا يوجد ديون ستدفع هذه السنة، أليس كذلك؟»

استدار بيرم، وقال: «لا يوجد. انتهت. أشبعنا نجيب بك، واستطعنا مجاراته».

«إذا كان الأمر هكذا، فلنشتر العجل فوراً. في الخريف. لنشتر العجل فوراً، لنتمكن من حلب ملاك القمر، ولتدخل ملعقتا سمن إلى بلعومنا. إذا اشترينا أربع غنمات أخرى، ستكفينا مع التي عندنا...»

قال بيرم: «تكفينا...»

«بشرة الولد صفراء! لا روح فيه. سيبقى صغيري مغلق الفم».

«لنطعمه. لنحلب البقرة، ولنشتر أربع غنمات، ونحلبها مع التي عندنا، ولنصنع سمناً وجبناً».

«لا نبيع درهماً منها».

«لا نبيع..»

«ليأكل الأولاد..»

«ولنأكل نحن..»

احتضنت خدوج السلة، ووضعتها عند جذع الصفصاف. فصلت بذور الخيار والقثاء. نقعتها بالماء على مدى يومين، ووضعتها في صرر.

حمل الزوجان فأسيهما، ومشيا نحو الحفر. حضّر الحفر البارحة. رشا سماداً محروقاً بجانبها. سيخلطونه ويزرعون اليوم.

جلسا القرفصاء.

قالت خدوج: «أنت امسك هذا الخط، وأنا هذا. لنمسك الاثنين من الأول، ونخرج بهما حتى النهاية، ثم نعود...»

انتقل بيرم إلى الخط الذي أشارت إليه زوجته.

بدأا.

تسحب خدوج السماد بالفأس، وتخلطه، وتلقي بذور الخيار بيدها.

أما بيرم، فقد نسي الفأس عند الحفرة التي بدأ بها. يسحب السماد بيده، ويخلطه بيده. وإذا ظهرت أمامه قطعاً غير ناعمة، ينعمها، ويضع ثلاث بذرات قثاء، ويردم فوقها بيديه. يداه جافتان، ولكنهما جميلتان. يداه مناسبتان لهذا العمل أكثر من الفأس. مع تحريكهما تظهر في معصميه عروق بنفسجية. إنه يعمل، وترك نفسه منجرفاً بالعمل. تتوتر عروق رقبته. قطرات العرق تسيل ببطء من جبهته وصدره.

قالت خدوج: «بيرم!»

نظر بيرم.

«لا تشتر لي في الخريف كسوة، ولا أريد قماشاً مزهراً. اشتر شيئاً آخر..»

«ماذا أشتري يا هذه؟»

«اشتر لي طستاً. طستٌ كبير. إذا دخل فيه إنسان، يتسع له. واسع جداً ليصب فيه الماء..»

نظر بيرم إلى زوجته باهتمام. شفتاها ترتجفان. دَبَّت حمرة خفيفة في وجهها. عيناها تبرقان: «في الشتاء نغتسل في الداخل دائماً، في الدفء. وأغسل الثياب في الداخل أيضاً. إذا حملتُ الماء المخلوط بالرماد إلى الأعلى ينتهي الأمر. داخل البيت نظيف جداً، ورائحته زكية..»

قال بيرم: «في العسكرية مرشات ماء. يغتسل بها الضباط».

مازالت خدوج شاردة، تنظر إلى بيرم.

قال بيرم: «لماع... نظيـ يـ يـ ف.. واسع..»

سألت خدوج: «ما هذا الذي تسميه مرشاً؟»

«يُغتسل بالمرش! المرش كالحمام! أنت لا تعرفين الحمام أيضاً. كيف أشرح لك؟ له مقبضان، ويصعد أنبوب إلى الأعلى. وله فم مثل مصفاة الصفيح. يصب منها الماء. إذا برمت المقبض: حار. تبرمينه: بارد! تعايرينه، وتدخلي تحته. لا ينقطع أبداً. ويصبُّ وحده. كأنه يأتي من عند الله. أي شيء كهذا... ممتع جداً.. جاءتنا مناوبة النظافة ذات مرّة. اسمعي سأحكي لك. كنسنا، ومسحنا حسن طونا ابن علي من (أجيبايام) وأنا. بعد ذلك، خطر هذا ببالنا ونحن ننظف. قلنا: لنغتسل!

وقف حسن طونا عند الباب، وأنا خلعتُ ثيابي، ودخلت. حرقتني بداية! فهمتُ طبعاً. لم أفتح المقبض البارد! فتحته فوراً. اعتدل الماء جيداً. ودخلت من جديد تحته. هذه مشكلة ياه، لا يوجد صابون. صرختُ لحسن طونا: ولاه ابن البلد، جد لي صابوناً بسرعة!

بحث، وجلب صابونة من إحدى الخزائن. ولكنها أية صابونة؟ لا يمكن أن يكون في العالم صابون أفضل منه! تفوح منها رائحة مثل العطر. فركتُ رأسي، وفركتُ صدري وبطني، وفركت، أوف!.. يقول حسن طونا: هيا اخرج يا بن البلد بعد هذا!

أقول أنا: انتظر قليلاً ولاه!

يقول حسن طونا: الملازم قادم ولاه!

والله يا خدوج، لا يريد الإنسان الخروج من تحت ذلك المرش! بعد ذلك، اسمعي، لأحكي لك. خرجتُ. ارتديتُ قميصي دون تجفيف نفسي.

لماذا ؟ لماذا سيكون؟ لأنه لا توجد منشفة. هذا لم يكن جيداً. إذا اغتسل الإنسان بالمرش، يجب أن يجفف نفسه جيداً. ثم إنه يجب ألا يرتدي الألبسة القذرة. سيرتدي ألبسة نظيفة. ثم إنه سينام قليلاً بعد الاغتسال.. هاااا، ماذا كنت أقول؟ دخل حسن طونا أيضاً. أنا وقفتُ هذه المرة عند الباب. أنتظرُ، وأقول: سيخرج الآن، سيخرج الآن.. أنتظر، يا إلهي أنتظر. لم يخرج جحش الحمار هذا بأي شكل!

قلتُ: يا (أجيبايامي) ولاه! والله الملازم قادم!

لم يعد يسمع السافل! يدلك بكل ما فيه».

سألت خدوج: «ألا ينتهي الماء أبداً؟»

«وهل ينتهي ماء العسكرية يا هذه!»

«من يسخنه إذن؟»

«الماء ساخن ولاه».

«حسنٌ ياه، من يسخّنه؟»

«يُصب من الأعلى!»

«من يصبه؟»

«يُصب وحده»

«الله، الله!... هل يوجد على السطح مرجلٌ يصب الماء وحده؟»

«ليس على السطح! كان يقول الأجيبايامي: يوجد مرجل في الأسفل، في القبو. مرجل ضخم. مثل الصهريج. هنالك صهاريج تحمل الكاز والمازوت والبنزين. الماء يغلي في مرجل كهذا في القبو. هذا ما قاله الأجيبايامي..»

«إذا كان يغلي في الأسفل، فكيف يصعد إلى الأعلى؟»

«يصعد! إذا قلت ماء العسكرية، يصعد! فهو ماء قوي! ضغطه كبير. يتدفق. يسقون الحديقة. الآن، أليست هذه حديقة؟ لا تلزم مجرفة من أجل سقاية الخضراوات والأزهار. تحملين بيدك أنبوباً مطاطياً، وإذا أدخلتِ رأسه في فم الماء، ووجهته إلى الأعلى، فيتدفق بارتفاع السروة، ثم ينزل من الأعلى كالمطر!..»

نظرت خدوج، ثم نظرت، وقلبت شفتيها، وقالت: «رح يا رجل!»

«ما كلمة رح هذه؟ كل شيء في العسكرية سهل! الماء موجود في بيوت القادة. داخل بيوتهم! وفي داخل غرفهم. كان هنالك ولد من أورفة، جندي نقل الأوامر. حكى لنا هذا. قال إن النقيب يغتسل كل صباح مع زوجته، وفي بيته في الطابق الثالث. وهنالك جرن حجري، من الحجر الأبيض. أبيض، ولكن أي بياض؟ كالحليب يملؤه بداية بالماء الحار، ويُعدِّلُهُ في الجرن الأبيض، ثم يدخل إليه، ويجلس، ويغتسل مطولاً، أتعرفين هذا؟ حتى يملّ! هل يملّ الإنسان من الاغتسال يا هذه؟»

سألت خدوج ببراءة: «هل كان النقيب ممتلئ الجسم؟»

«طبعاً ممتلئ. وهو ممتلئ وأحمر قانئ! أيمكن ألا يكون النقيب ممتلئاً؟ مغذى! زوجته أيضاً ممتلئة! رأيناها في أحد الأيام. أية حمرة لها؟ وجه المرأة أحمر كداخل الشفتين! الله يلهمك أن تصدقي، إنها بيضاء وحمراء معاً!»

«أليس عليها وسخ أبداً؟»

«ما شغل الوسخ ولاه! طبعاً لا يوجد أبداً».

«أليست يداها جافتين؟»

«أيمكن أن تكونا جافتين؟ ماء ساخن، وصابون بشكل دائم..»

«أليست متشققة؟»

«أبداً، أبداً!...»

توقفت خدوج: «من الأكبر في الدنيا، النقيب؟»

يوجد أكبر من النقيب! ما النقيب؟ هنالك العقيد، رقبتُه مثل خصري! ومعاشه كبير. زوجته أيضاً بيضاء، وهي حمراء أيضاً. وهنالك باشاوات، وماباشاوات. الباب لا يتسع للواحد منهم.. هكذا يكون الكبار، فهمت؟»

نظرت خدوج، وقلبت شفتيها من جديد: «بيرم، اسمع ما سأقوله لك؟ لنشتر أربع غنمات بعد أن نشتري عجلاً، ولا نشتري شيئاً آخر. ولنصبر سنتين، بعد ذلك، اذهب إلى (بورضور)، واشتر مرشاً، وتعال..»

«ممكن، ولكن هل تكفي النقود يا هذه؟»

«تكفي! لا نشتري شيئاً آخر طوال سنتين.. نجمع النقود كلها. إذا اشترينا، فنشتري جزمة لأحمد. ونبيع قليلاً من السمن أيضاً».

«كيف ستجلبين ذلك الجرن والرجل من بورضور؟»

«ألا يأتي على الحمار؟»

أصدر بيرم صوت: جق، وقال: «لا يأتي أبداً».

«تجلبه بالعربة..»

«ولاه.. إذا رفعتِ رقبتك كثيراً تنكسر! تركضين الحصان على البلاط دون حدوات. المرش لا يناسب أهل القرى! لا أحد يمكنه عمله غير العسكرية! النقباء والعقداء والباشاوات... هيا، لنقل اشتريتِ المرجل، ولنقل اشتريتِ الجرن أيضاً، أين ستجدين الماء المضغوط في القرية؟ هل يمكنكِ أن تجديه؟ هيا، احكي لنرَ؟...»

«نحفر بئراً أمام البيت!»

«يضحكون علينا ولاه! ماء البئر لا يتدفق!»

قالت خدوج حزينة: «إذا كان هكذا، فلنشتر طستاً! طستُ كبير! واسع... أنا أحمل الماء كل يوم من نبع (إيدلي). إذا وضعت الصفيحة فوق النار، تسخن. تكفي الصفيحة واحداً منا. تصب عليك أولاً، بعد ذلك أنا. إنه جيد حتى لو لم يكن مثل الذي في العسكرية! وأغسل الملابس أيضاً في الداخل. وإذا دعكنا أنفسنا بالماء والرماد كلما بدلنا ثيابنا، فلن يكون على جلدنا وسخ كثير».

نظر بيرم إلى زوجته، وقلب شفتيه هو هذه المرّة، وقال: «أيمكن ألا يكون؟ مهما يكن، نحن قرويون!..»

قالت خدوج: «لا يكون! أنا أدعك جيداً. إذا وضعت الصابون في الجورب، ودعكت بقوتي كلها، فلن يبقى وسخ وما وسخ، ولا شيء».

«مهما دعكت فلا يمكنكِ أن تفعلي فعل المرش يا حرمتي، لا تحاولي! لو كان وسخ الفلاح يخرج بالدعك من تبديل الثياب إلى تبديلها، فماذا تريدين يا هذه؟ قلب بيرم شفتيه مجدداً، وضحك، وقال: «أنتِ بريئة جداً يا خدوج! ثم لنقل إننا نظفنا وسخ القروي مرة، فلن

يبقى كما هو! سيتوسخ مرة أخرى! الإنسان في القرية يغرق بالعرق والغبار والتراب، أليس كذلك؟ ولكن أولئك لا يغوصون بالغبار والتراب. من أين ستعرفينهم أنتِ؟ إذا اغتسل أولئك، فيغتسلون مرة أخرى قبل أن يتسخوا! يااااه، يا ذكية!..»

- ٤ -

ماذا يقول الكتاب العظيم؟

سينفّذ هاجلي ما قاله المعلم الرأس الحجري. ولكنه يجب أن يمرَّ على مكان صب القرميد قبل ذلك. ساوم عليه بالجملة، وأخذه. مرّ، ونظر. العمل يسير جيداً جداً. أوف، أوف، أوف! أخوه الأصغر عمر الأغبر يقف على رأسهم. دعكوا الطين جيداً، وقلّبوه، وجعلوه كالعلكة. وهكذا ينتهي هم القرميد. غادر المكان فرحاً، ومشى.

عندما عبر وسط القرية، أدار رأسه، ونظر إلى مقسمه مباهياً. شغّل قوة خياله، وجلب إلى أمام ناظريه الدار التي سترتفع هناك. نقع التربة البيضاء بالماء، وزوجته فاطمة تطلي واجهة الطابق الثاني. وستسحب في أسفله زناراً بالتربة الحمراء. وسيذهب إلى الجامع أيام الجمعة. أيكون لدى الإنسان بيتاً وسط القرية ولا يذهب؟ وسيجلب معه واحداً أو اثنين قادمين من (دوزمشة) أو (غوغتشة ياقا) أو (ألان كوي) أو (تشردق الصغرى) إلى بيته. سينجّد فرشاً صوفية من قماش مزهر. سيكون ممتعاً جداً الجلوس على المقعد الخشبي في طرف شرفة الطابق العلوي، واحتساء القهوة وهو ينظر إلى صنبور الجامع، بعد ذلك، تناول البيض المقلي الذي تعده له زوجته، وغطُّ الخبز بالدبس، وإنزال الملعقة بالبرغل المطبوخ.

قال: «إنه أكثر من اليانصيب، إنه (دوشيش). هذا الدوشيش الذي أمسكتُ النرد بيدي، وجلبتُه هو أرضية البيت هذه. هوووهووه!.. حظي جيد منذ القديم. يعاكسني في قليل من الأحيان. الآن أنا عضو لجنة اختيارية، والمختار حسنو يدعمني. الأمر الذي سيعاكسني، سأدخله في طريقه الصحيح. لم يعد صعباً. هوووهوووه!..»

لحظة ولوجي من باب الجامع انتابتني نوبة سعال: «بيت الحي السفلي خربنا تماماً. عليّ أن أبذل جهداً لإخراج أخي محرم من هناك. سأشتري خرابة في الأطراف من الذين ذهبوا إلى (سوكة) ولم يعودوا، وسنبني بيتاً هناك لمحرم. وها هو حمو أخينا مولود معلم بناء. أنا أيضاً أساعده. وسأجلب أخي الأصغر عمر الأغبر إلى عندي. لا أتركه هكذا. هو أيضاً يساعدني. إنه شاب، وقوته معه. ليخدم عسكريته، ويأتي، وسآخذ له البنت التي تعجبه. يمكنني أن آخذ له واحدة من بنات (قنبر). هاهوووه!»

خلع حذاءه عند عتبة الباب. كان الشيخ بيت الله يتمتم بقراءة القرآن. صوت مسموع. الباب موارب قليلاً. قال بخشوع. «بسم الله الرحمن الرحيم»، وخطا برجله اليمنى. «هوهوووه!» أدار واقية القبعة إلى الوراء، وكأنه قادم لأداء الصلاة. سار بهدوء شديد أربع - خمس خطوات عبر الباب.

أدار الشيخ ظهره للمحراب، وهو يرتدي جبّة، وضع على رأسه قبعته البيضاء والخضراء، وفتح أمامه المسند الصغير، ويقرأ دون توقف. في الحقيقة أنه لا ينظر إلى الكتاب. هو يقرأ غالباً من ذاكرته، ويجول بعينيه على السقف والجدران والباب، ويغمضهما أحياناً، ويفتحهما، ويتمايل كعالم.

رأى هاجلي وهو يدخل، ويقف باحترام. بعد قليل، سينهي ما يقرؤه، ويتوقف. التقت عيناه بعيني هاجلي. استمر الشيخ بيت الله بقراءته. هاجلي ليس حماراً. فهم، تقدم إلى مبعدة ثلاث خطوات منه، وانحنى على ركبتيه، وجلس، وبدأ يستمع. ما يقرؤه الشيخ كان عربياً. ولم يكن هاجلي على درجة من المعرفة تمكنه من فهم ما يقرؤه. ولكنه يستمع باحترام أقرب إلى الخوف معطياً الموقف حقه. لابد للشيخ أن يفهم سبب كل هذا الاحترام، والانحناءة. قال لنفسه: هذه هي الفرصة!. ويطيل ما استطاع..

كان الشيخ معلمه في الماضي القديم. ومضى عليه أربعون سنة، ولعلها قاربت الخمسين وهو يخدم جامع هذه القرية. حارب في اليمن، وفي معركة القناة، وكان في(قوطولا ماره). أُسر. وقضى سنواته بالفقر والحرمان. لم يكن للضابط راتب شهري، ولا للجندي مخصصات. إنها لا تسمى عسكرية أو حرباً، بل فقراً وبؤساً... كثيراً ما بحث عن الشعير بين زبل الخيول، وملأ بطنه. وبفضل هذا رأى حلب ودمشق. وفيما بين العسكرية والأسر تجوّل في الأراضي المقدسة كلها. «زار» مكة والمدينة. رغم هذا يُعدُّ نفسه شيخاً غير محظوظ. أتباعه قلة إلى حد عدم وجودهم. وخاصة عندما يفقع خبر عن وجود عمل ما، لا يبقى أحد في القرية. يقيم الصلاوات اليومية مع شخصين أو ثلاثة، ومع شخص واحد في بعض الأحيان. عنده ولد، أراد كثيراً أن يكون شيخاً. جعله ينجز «الختمة» مرتين. ظهر أنه لا صبر لديه ولا طاقة. بدت له أمور الدنيا ألذّ. وتطن أذنه بأنه ينفق المال على النساء. إنه يحب النساء كثيراً مما يجعله لا يستطيع التخلي عن أوراكهن البيضاء، وصدورهن وشفاههن.

راقبه في إحدى المرات، ورآه بعينيه. قبضوا عليه مع (هورو) ابنة (السن المخلوع) فوق العنبر الخشبي. تزوج ظاهرياً، ولكنه لم يترك (هورو) ذات الساق المشعرة. أعطى نفسه مدة طويلة للشباب والجهالة. صبر عليه، وتصرف مبدياً التسامح معه. هو أيضاً غاص في هذه الأمور أحياناً، وحتى في الجزيرة العربية، وحتى مع فاطمة في زمن أقرب! ولكن هذا مضى وراح، وركد ماء الطيش في داخله. ولكن ابنه لم يعرف التوقف، فقد طارد في طريق الشر دائماً. والآن يشرب العرق مع أصدقائه الطائشين. وهل يمكن أن تكون هنالك تعاسة أكبر من هذه بالنسبة إلى شيخ؟ وزوجته لا تسمع كلمة، ولا تهتم. لو أنه طلقها في وقتها فماذا كان سيحدث؟ تتربع التعاسة كقطعة مرّة في أعماقه. ولبناته أعمال مشينة أخرى.. وهب نفسه تماماً للمشيخة كحل أفضل من الابتلاء بالسلّ لكثرة ما يحتمل. ودون أن يقول: دفعتم قليلاً من «حقنا»، وجئتم قليلاً إلى الجامع، لا يعاند الفلاحين، ويجذب المختار وأعضاء اللجنة طوال هذه السنوات كلها دون أن يلاحقهم. ومن يعلم كم سنة أخرى سيجذبهم؟

فجأة غيّر صوته، وقال: «صدق الله العظيم. سبحان ربك، رب العزة عما يأسفون!..» أكمل دعاء الانتهاء، وقال: «الفاتحة». ورفع يديه، وقرأ، ونفخ، ومسح وجهه.

بعد قوله: «الفاتحة»، رفع هاجلي أيضاً يديه، وقرأ، ونفخ، ومسح بيديه على وجهه. مشى على ركبتيه، والتقط يد الشيخ، وقبلها باحترام، ونقلها إلى جبهته.

سرُّ بيت الله، وشعر بثقةٍ مفاجئة. رجلٌ يُعدُّ شاباً، وهو عضو في

اللجنة الاختيارية للقرية، يبدي احتراماً أكثر من عادي، أحسنت!.. ضحك في داخله، ونظر إليه بطرف عينه، وقال: «أهلاً وسهلاً يا ابني هاجلي أفندي! كيف حالك، هل أنت جيد؟»

«أدعو لك بالصحة يا شيخي! الله يطول لنا عمرك..»

«خير إن شاء الله؟ هل لديك مشكلة؟»

«تسلم! ليس لدي أي مشكلة يا شيخي المحترم! (يوجد في الحقيقة. لدي مشاكل كثيرة، ولكن الآن ليس وقتها!) ليس لدي أي مشكلة ولله الشكر! ولكن... تعرف كم تعاني العائلة والأولاد من مستنقع الحي السفلي. لهذا السبب نويت أن أبني بيتاً جديداً. قرميدي يُصبّ. إذا أذن الله، وكانت لنا قسمة، سأبدأ فوراً. وجئت إلى حضرتكم لأفهم ما إذا كان المكان مسكوناً أم لا..»

استمع بانتباه. استمر الشيخ بيت الله بالضحك في داخله. بعد ذلك سأل هامساً: «الله يجعله فأل خير عليك! ليوصلك الله إلى ما تصبو إليه، ويجعل سكناه من نصيبك، ونصيب عائلتك وأولادك، أين تبني البيت؟»

«أبنيه وسط القرية يا شيخي المبجل. لا أدري إن كنت تعلم أن صندوق القرية في أزمة إلى حدّ ما. هناك قضية تمثال في مركز المحافظة. أرسل المحافظ مراسلاً. القائمقام يريد نقوداً. ذهب المختار إلى (يشيل أوڤا). أعطاني أرضية بيت. اشتريتها فوراً. هذا ضروري جداً بسبب خروج الماء من البيت الذي أسكنه من جهة، وهنالك وضع صندوق القرية من جهة أخرى. قلت لنفسي، لآخذه فوراً. تدبرنا أمرنا، واستدنا. ماذا أفعل يا شيخي؟ أقول: بتأييد كبير من الله تعالى، وفي ظل المختار

حسنو، لنكن أصحاب مأوى يرى الشمس. وأنا جئت إليك قبل أن أجعل الرأس الحجري يدقّ خوازيق الأساس، لا تحرمني من علمك يا شيخي الجميل..».

«الله يجعل التراب بين يديك ذهباً يا جاهلي! أنا لا أمنع حتى روحي عن الإنسان العارف للاحترام!.. قل لي: أين أرضيتك التي وسط القرية؟ إذا نظرت من الواجهة، فهل أموره على ما يرام؟»

«على ما يرام يا شيخي، وفي أحسن حالة! إنه قبل مطلع طريق (دوزمشة)..»

«بجانب بيت قرة بيرم؟»

«قدامه قليلاً يا شيخي...»

«بكم اشتريت ذلك المكان يا ابني؟»

«بسبعمائة ليرة يا شيخي المبجل! اتفقنا مع المختار على الخريف. ولكنه يمكن أن يطالب بها فوراً! ذهب هذا الصباح باكراً إلى (يشيل أوقا) للاجتماع مع القائمقام..»

«مكان جميل يا ابني. مقابل الجامع، وفي أحسن حال! كان (قرة شالي) والد قرة بيرم هذا غشيماً قليلاً، ولكنه رجل نظيف. خدم في العسكرية أربعة عشر عاماً. جُرِحَ، وشُوِّه، وأُسِر، وعانى من العذاب في اليمن واليونان، ولم يهرب أبداً!.. عاد. طلبوه قائلين: تعال لنعطِك وساماً! لم يذهب. الهاربون يتقاضون اليوم معاش شرف. ساعد عائلات الذين ماتوا، وأولادهم... قال: أنا حاربت من أجل الله ووطني! لم يلتفت، وينظر إلى الوراء. لم تكن تلك الحروب مشرِّفةً يا ابني، فوقنا الله، ورأى عيوننا كلها. وهو يسمع ما نقوله الآن. هربنا دائماً لكي لا

نشهر السلاح ضد أخوتنا في الدين من جهة، وبسبب اليأس والإنهاك من جهة أخرى. أنا أمضيتُ ثلاثة وعشرين يوماً لأصل إلى جبل بركة. كنتُ أختبئ تحت دغلة أو شوكة نهاراً، وأمشي ليلاً. كنت أجفف الخبز الذي أتسوله من القرى الصحراوية في الشمس، وأبلله بالماء وآكله. لم يبق لدي لحم تحت أسناني. وصلتُ من جبل بركة إلى هنا زحفاً خلال أربعة عشر يوماً. أسنقول الحق في الآخرة؟ هربنا دائماً! كانت حروب اليمن حروب موت! ركبنا السفينة أنا وأبوك محمد المجنون من ميناء (بندك). خُرج من (تشنقد قلعة). أصيب بالقمل في (سليمانية). قمل العسكرية لعين، هدّ حيلنا... أنا فليتُه، وهو فلاّني. أنا جُرحت في اليونان. كنت سأهرب أيضاً. سحب كمال باشا مسدسه، وقال: سأطلق النار بيدي على الهارب! زوجاتكم وبناتكم تحت أيدي الأعداء! إذا لم تفكروا بهن، فأنا أفكّر. لا تهربوا!.. الجوع من جهة، والعري من جهة، والخوف من الرصاص من جهة، فرمينا بأنفسنا على الأعداء. لا ترم بنفسك إن أردت... لن تُقتل إذا لم يرد الله أن تُقتل. عدتُ مع والد بيرم قرة شالي في اليوم نفسه. إذا لم يضع الله معوقاً، ستكون جاراً لابنه. ستضعه خلفك. هل يستطيع أولادك التفاهم مع أولاد بيرم؟ هل زوجتك فاطمة سهلة التفاهم مع الآخرين يا هاجلي أفندي؟»

أطال الكلام وشعّبه حتى نفد صبر هاجلي. وكتحقيق المخفر يقول: «هل زوجتك فاطمة سهلة التفاهم مع الآخرين؟» لماذا تفتح حديث فاطمة في الجامع، وبجانب كلام الله يا شيخ؟

«فاطمة، الإنسانة التي تعرفها. فهي ملاك الله من ناحية التفاهم، هذا كل ما أقوله...»

«أحسنت، ما شاء الله...»

«تسلم يا شيخي!..»

«المختار أعطاك الأرض، أليس كذلك؟»

«اعطانيها المختار باسم الصندوق. بسبعمائة!..»

«ستدق الخوازيق، وجئت للاستشارة؟»

«جئتُ للاستشارة. مسكونة أم لا؟»

«على الرأس والعين! سأفتح الكتاب، وأنظر. ولكن...»

نظر هاجلي إلى وجه الشيخ بتوسل غريب، وقال: «انظر بسرعة يا شيخي الجليل!..»

أمسك الشيخ بيت الله لحيته البيضاء بيده اليسرى، وأغلق المصحف الذي أمامه بيده اليمنى: «كنتُ سأقول: لا يمكنني أن أنظر إلا مساء، ولكن، مرّ عليّ بعد صلاة الظهر! إنشاء الله أنظر، وأبحث، وأخبرك».

«ألا يمكن أن تنظر الآن يا شيخي المبجل».

«لا يمكنني الآن يا ابني! عليّ أن أقرأ، وأنفخ، وأفتح الكتب، وأدقق... وهذا يأخذ وقتاً...»

«حسنٌ، ليكن ظهراً يا شيخي المبجل! سأستأجر خليل المهزلة وابنه، وهناك أخواي، صاروا أربعة. إذا لم تبدأ العمل فهذا يعني أنني أدفع نقوداً للاشيء. هذا مؤسف، أليس كذلك يا شيخي؟ فتحت الأعمال فمها كما تعلم! أبوس يدك، انظر بسرعة كي أدقِّق الرأسَ الحجري الخوازيق، وليكن العمل جاهزاً غداً يا شيخي!»

«تدقّقه إياها مساء إذا لم يظهر عائق من عند الله يا هاجلي.

سيكون جاهزاً في الغد أيضاً... » قال هذا الشيخ بيت الله، ونهض. خرج قدام هاجلي من باب الجامع. ضوء الشمس غمر كل شيء.

كان يتمتم شيخ قرة طاش العتيق قائلاً لنفسه: «سيدفع سبعمائة ليرة! اتفق مع المختار.. وراءه المختار، دعم كجبل قوجاضوملو! نعم، نعم! » وينظر إلى بيت قرة بيرم. أخرجت أم بيرم إراظجة الحمار والجاموس وتقودهما إلى الاسطبل. «المختار حسنو وراء هاجلي المجنون كجبل قوجاضوملو!.. »

سيفتح كتاب الله، وينظر... سينظر بيتُ الله، وماذا سيقول؟ إنه يعرف أحداً من أصحاب المكان القدماء الذين ينامون تحت الأرض لا يعير اهتماماً للساكنين الجدد. «الله يرضى ألف مرة على الرأس الحجري! لا يحيد عن طريق معلمه أدهم. يطلب الاستشارة قبل دقّ الخوازيق للأساس». وهو أيضاً يجد رداً مناسباً، ويرد به.. «خلفه مختار».

سيقول: «لا يا ابني هاجلي، ليست مسكونة! لا!... رأى جناب الله أن أهل الأولين يرونك أحد المناسبين من أهل الآخرين! دقّقهم الخوازيق!.. » كان خلفه مختار كجبل قوجاضوملو...

- ٥ -
الأفاعي

أرخى (قوجاضوملو) نفسه على سطح الأرض، وجلس كأنه نائم. أشعة الشمس تتراقص على رأسه وصدره. ينظر قرة بيرم إلى الجبل الضخم من بعيد بإعجاب. سمع صرخة مفاجئة: «باباااا!... بابااا!..»

أحمد قادم وهو يلهث.

نهض بيرم فوراً.

نهضت خدوج أيضاً من بعده. فكرت: ماذا يوجد يا ترى؟

صرخ بيرم قائلاً: «ماذا يوجد ولاه أحمد؟ ما هذه الحال يا بابا؟»

قالت خدوج لنفسها: «خاف هذا الولد، يبدو أن سوءاً وقع له..»

جاء أحمد مقترباً وهو يلهث. قال متأتئاً: «أفعى، يوجـ جـ جد أفـ أفـ أفعى».

«أين الأفعى ولاه؟ أرنيها، أين هي؟»

«بين القصب!.. انسلّت من أمامي، وذهبت يا بابا! طـ طـ طويلة جداً!...»

«أين ذهبت؟»

«إلى دغلة القصب المجاورة للثور!..»

ركض بيرم. الفأس بيده. قفز من الباب. وصل إلى جوار الثور بسرعة. لكزه بمقبض الفأس. قال: «امش يا فولاذ باشا!.. هووو، هاااا!..» مشى الثور. بعد ذلك، قاد البقرة: «هيا يا ملاك القمر!... تحركي قليلاً!..» أخرجهما من الدغلة. كان ما بين القصب مخيفاً. ولا يوجد أثر للأعشاب أو الجذور في الأماكن الخالية من القصب. لم تترك الدواب شيئاً لكثرة ما قضمته. قال: «هووو، هاااا!» بعد ذلك، نادى: «هيـ..... ـه، يا أحمد!»

وقف أحمد بجانب أمه. يداه ورجلاه ترتجفان. تحاول خدوج أن تسقيه. تقول لابنها: «آه يا أمي، ما صار لك شيء؟..»

«أحمـ... ـد، أحمد..... ـد!..»

التفت أحمد، ونظر إلى أبيه.

«إلى أية دغلة انسلّت الأفعى ولاه؟»

أشار أحمد بيده ورأسه: «الدغلة التي وراءك. هذه الدغلة!»

نهضت خدوج أيضاً، وذهبت إلى ذلك الطرف.

تفقد بيرم الدغلة بعينيه شوكةً شوكة، وحركها بمقبض فأسه. أشواك الدغلة تنغرز في يديه، وتدميها.

قالت خدوج: «إذا وجدتها فهل ستقتلها؟»

نظر بيرم إلى زوجته، وقال: «لاااا (!)» ضحك «أأقتلها؟ سأدعوها إلى طعام العشاء في البيت!»

«ما ضرر الأفعى لك؟»

«أما سمعتِ من أمي حتى اليوم؟ نحن في حالة حرب مع أمة الأفاعي. مشروخات الشرف هذه عدوة لجماعتنا منذ الأزل! تضر الثيران والأبقار. إذا وجدت فرصة، فلا تفوتها!..»

«إذا كان الأمر هكذا، فليسرح الولد هنا، في السهل...»

«تذهب إلى هناك أيضاً. إذا وُلِدَ الشرُّ داخل أمة الأفاعي فتذهب من هنا إلى ى ى إزمير! لا تحل! لهذا تأتي إلى السهل أيضاً يا خدوج. عندها حقد كبير علينا!..»

وقف بيرم، ونادى أحمد: «تعال ولاه خواف!... تعال إلى هنا!... وهل يخاف الرجل إلى هذا الحدّ من الأفعى؟ ونناديك رقيباً! ونقول إنك بطلٌ.. تعال، واسرح بدوابنا هنا، في الفسحة، تعال!.. انظر، اختبأت عديمة الشرف. إذا رأيتها خبرني فوراً. لا تخف أبداً. تناول الحجر، والصقه برأسها. بعد ذلك، اهرب! لا تستطيع اللحاق بك!..» غمز لزوجته، وقال: «هيا، لنذهب نحن أيضاً».

عادا إلى عملهما من جديد.

تقول خدوج: «لنرشّ هنا بذور فجل وخس أيضاً». وتفتح الصرة التي بيدها، وتنثر البذور. بعد ذلك تنثر فوقها قليلاً من التراب، وتسكب من الجرّة التي بجانبها قليلاً من الماء. سيزرعان قليلاً من الشمام والعجور على طرف الحقل. سيكون في حقلهم من كل الأنواع. وسيكون جميلاً.

يعمل بيرم، وفي أثناء ذلك يحكي عن الأفاعي عدوة أهل (قرة شالي)، وكأنه يقرأ من كتاب قديم: «كانت هنالك (شاهمران) في صنوبرية (غورأولوق). تتجوّل وحدها. وهي ملكة الأفاعي كلها. ولا تطأ قدم إنسان تلك المنطقة. لا تدع أحداً يشمّ الصنوبر، ولا حتى السورنجان. قبيلتها حولها. وكانت سلطنة تستمر بسعادة.. لعلك سمعتِ أن أبي (قرة شالي) لم يكن يذهب من الطريق الذي يذهب فيه الآخرون.

نهض في أحد الأيام، وذهب إلى ذلك الجبل المحظور لقطع قوس محراث. كانت (شاهمران) تحت شجرة صغيرة في (الوادي الذي أكل فيه الدب العسل). رأسها كرأس أرنب. عيناها أكبر من عيني الأرنب. لأذنيها قرطان. ملتفة على نفسها كالقرص. بعض أمكنة جلدها حمراء. بعض بقعها بيضاء، وبعضها صفراء، وبعضها سوداء وما سوداء، ورمادية.. إنها عالم. كان أبي يقول: لتعش الأفعى التي لا تمسّك ألف سنة! ولكن شهامته قفزت، وقال لنفسه: أهذه هي عديمة الشرف التي ترجّف قلوب الناس؟ وسحب بلطته! لم يخفه طولها أو ثخنها الذي بشخن خصر الجسم! لم يهمه رأس الأفعى الذي بقدّ رأس الأرنب، وعيناها اللتان بوساعة عيني الأرنب! قطّعها قطعاً، وكومها! أراد تحميلها على الحمار، وأخذها إلى القرية، وفكر بموازنتها بحطبة. شيّع الذين لا يحبون أبي إشاعة أنه هاجمها وهي نائمة، ولكن هذه الإشاعة لم تمش. وهل تمشي؟ وهل قتل أفعى كهذه سهل حتى ولو كانت نائمة؟.. ذهب الرقيب عمر ومن معه ليروها غير مبالين. أكلت الصقور منها وأكلت، ولم تنهها. حين جاء، حكى عن الأمر، وقال إن قرة شالي مجنون. ذاع صيت أبي في القرى التي وراء الجبال. ونتيجة هذا، سقط مريضاً بعد عشرين يوماً. كان شاباً. كان وقتها شاباً. لم يقترب من أمي بعد ذلك، ولم يذهب إلى اليمن...»

كانت خدوج تستمع.

قال بيرم: «كثيراً ما حكت أمي هذه الحكاية. تحكيها وكأنها تحكي حكاية.. ألم تسمعيها أبداً؟»

«لم أسمع أبداً...»

«اسمعي إذن! منذ ذلك اليوم، أفاعي (غورأولوق) المتبقية عدوة لجماعتنا. وهي تكاثرت عناداً، وملأت الحقول والسهول والأدغال والساحات الطينية. إنها أفاعٍ ذات أقراط، وذات أجراس، وذات قرون، وذات استطالات، وذات رؤوس صغيرة... بنية، وخضراء، وحمراء، ورمادية، وسوداء مثل الحاج عرب القرة ألاني.. ومزينة كالعروس، وكالسلطان بألوانها وزيناتها. تأتي أنواعاً أنواعاً معتبرة كل ضرر تسببه لنا ولدوابنا ربحاً لها. تهاجم مرة كل ثلاث سنوات. في قرية (بك) السفلى يوجد العم بيرم الذي أخذتُ اسمه. عنده بنت اسمها حنيفة. عندما كانت في الثامنة من عمرها، لدغتها أفعى، وقتلتها وهي نائمة تحت شجيرة الإجاص البري وهم يحصدون الجلبان. تحكي أمي عن عمة لي، ذهبت عروساً إلى (أورطا كوي). في إحدى الليالي، دخلت أفعى إلى حلقها، ولم يستطيعوا إخراجها، وماتت! ويالما حدث... قبل عشر سنوات راح لنا كبش. ربيناه على عشب ما بين الزرع. وكان عندنا عجل خفيف الحركة وسمين. إذا نظرتِ إليه من الأمام لا ترين آثار عظامه. أخذته أفعى من بين أيدينا في الوقت الذي كنا سنكّدنه على النير. ومع أفعال الأفاعي هذه، علينا قتلها واحدة واحدة... نضرها، وتضرنا بقدر ما نستطيع.. اجتمعت الأفاعي، وقررت فيما بينها. لن يهدأ بالها حتى تمحو أثرنا عن وجه الأرض.. لأننا قتلنا ملكتها شاهمران».

حملقت خدوج دهشة، وسألت فجأة: «كيف تقرر الأفاعي؟ لا لسان لها ولا فم؟»

قال بيرم: «هوهوووه.. لسان الأفعى أفصح من لسان الإنسان! لكل مخلوق لسان في هذا العالم. وإذا توافقت بأفكارها تنثر رمادنا في

السماء! الحيوانات هكذا يا خدوج! حكى لنا الشيخ بيت الله كثيراً أن بعض الحيوانات عندها عقل كبير، ولا يوجد فيه أي فكر، وعند بعضها فكر كثير، ولا عقل عندها أبداً. ولن يستطيع الناس مجابهة الحيوانات إذا توافقت فيما بينها. لن نتمكن من وضع سرج على ظهر حمار، أو تكدين ثور للحراثة، أو حلب بقرة. يقول الشيخ بيت الله: حمداً على عدالة الله. بفضل عدالته هذه يعيش الناس بحرّية على وجه الأرض؟ هذا ما يقوله الشيخ بيت الله. عند الشيخ بيت الله حكايات كثيرة..»

ذهبت خدوج إلى السلة، وداخلها خوف في منتهى التداخل، وأخذت صرّة أخرى.

قالت: «في هذه ريحان، لأنثرها هناك على تلك الظهور، لتفوح رائحة عطرة غداً... وهو ريحان متكور..»

قال بيرم: «لتفح!..» بعد ذلك، وقف، ونظر إلى ابنه. كان الثور والبقرة يرعيان على مبعدة، وأحمد يدور حول دغلة، وفي يده أحجار كبيرة.

«هيـ..... ـه، أحمد!.. ظهرت؟...»

رفع الولد رأسه، وهزه: «لا، لاااا!..»

قال بيرم: «يعني أنها لا تظهر. انظري!.. انسلت فوراً، وخنست! لمشروخات العرض هذه هوائيات مثل هوائيات المذياع».

قالت خدوج: «عندما زرعنا البطاطا والفاصولياء بالأمس، نسينا يا بيرم أن نزرع الليف. لم نترك مكاناً فارغاً. ماذا سنفعل يا ترى؟ عندي رغبة شديدة لزراعة قليل من الليف!..»

قال بيرم: «وهل هذه مشكلة؟ ننثرها على الحواف، وينتهي الأمر! ننثرها، ونحرك التربة فوقها بشكل رقيق».

«وإذا خربنا البذور الأخرى؟»

«لن نخربها. صارت في الأسفل. ننثر الليف على السطح».

قالت خدوج: «فكرة جيدة. توجد بذور في الخرج، لأخرجها، وأزرعها إذا كان الأمر هكذا».

مشيا معاً نحو الخرج.

قالت خدوج: «أنا أحبُّ رائحة الليف، أريد أن أعلقه في أربعة أطراف البيت، وأشمّه دائماً..»

«ازرعي واحدة في أصيص إذا أردت!..»

قالت لنفسها: «وهذه فكرة جيدة!»

فتحا الخرج. كانت خدوج خائفة، وكأن أفعى ملتفة على نفسها ستظهر في الخرج. كان قلبها يخفق مصدراً صوتاً قوياً. أمسك بيرم زوجته من معصمها حين أدرك أنها خائفة.

قال: «لماذا تخافين يا خدوج؟ ليس إلى هذا الحد يا روحي! لا يمكنهن الدخول إلى الخرج بسهولة!.. لا يستطعن الدخول أبداً...»

قالت خدوج: «أنا منذ ثماني أو تسع سنوات من جماعتكم. ألا تعتبرني الأفاعي عدوة لها؟»

«قلت لك ياه.. عندها عقل، ولا يوجد فكر. لا تستطيع عمل شيء، لا تخافي!..»

«لا تحكِ لي بعد الآن عن الأفاعي وأم أربع وأربعين يا بيرم، إنها تهرّب النوم من عيني أياماً. في إحدى السنوات الماضية، حكت لي حماتي بعض هذه الحكايات، فخفت طيلة ستة أشهر. كنت لا أستطيع أن أخبرك، ولكنني عندما أسمع تكّة خفيفة في السقف ينقطع حيلي رعباً.

كنتُ أخشى أنها ستلف على العوارض ثم تنزلق نازلة على القوائم. ولماذا الكذب؟ شحم قلبي يذوب خوفاً الآن..»

«يجب ألا يذوب!. لماذا سيذوب؟ أمة الأفاعي تتجول دائماً في الطوابق السفلى. تدخل تحت التراب، أو في داخل الأساسات. هي لا تصعد أبداً إلى الطوابق العليا من البيوت، وسقوفها..»

«لماذا؟»

«لماذا سيكون؟ لأن عقلها زائد، وفكرها ناقص؟ أنا وصلتُ إلى هذا العمر ولم أر أفعى في شجرة. الأفعى تزحف في تجوالها. وفي الأراضي..»

قالت خدوج: «فكرة جيدة. طيّنتُ كل أطراف البيت. لا يوجد فيه أي ثقب. وعندما يأتي الخريف سأطيّن عوارض السقف أيضاً. وبعد ذلك، سأعمل له وجهاً بالتربة البيضاء..»

قال بيرم: «اعملي! سيغدو البيت أجمل. يصبح مثل بيوت المدينة. ليس في بيوتهم سقوف مثل سقوفنا. هم يرصفون قرميداً، ويضعون تحته سقفاً.. كالثلج..»

«وأنا أيضاً أجعله كالثلج».

«اجعليه!..»

رسما خطين صغيرين من أجل زرع الليف عند طرف البطاطا والفاصولياء. بعد ذلك ألقيا بذور الليف، وبدأا بتغطيته بالتراب.

قال بيرم: «علينا ألا نزرعها قريبة جداً من بعضها بعضاً يا خدوج، لأنها حينئذ ستقطع الهواء عن البطاطا والفاصولياء!»

قالت خدوج: «حقل خضارنا هذا ضيّق جداً. لا يعرف الإنسان ما سيزرعه، وأين، آه لو أنه أوسع قليلاً!»

قال قرة بيرم: «وهذا أيضاً سيصير. اصبري لنرَ. الشمس تشرق بالتدريج على حصاني غالباً».

خدوج: «عندما كان الناس يشترون من مزرعة نجيب بيك بخمسات وستات آلاف، هل استطعنا نحن أن نشتري؟ ثلاثة آلاف!... ثلاثة أرباع الدونم مروية، وحقل خمسة وأربعين دونماً..»

«يكفي أننا خلصنا من المناصفة ولاه! ماذا لو أننا نزرع ثلاثة أرباع الدونم هذه، ونعطي الآغا نصف ما نحصل عليه؟ هل ذاك أفضل؟ وهل من الأفضل أن يترك الآغا عشرين دونماً للراحة، ويخصص عشرين دونماً للزراعة، وهذه نقّسمها؟»

«أقليل ما عانيناه يا بيرم؟»

«لم نعانِ القليل. دفعنا دينه البالغ ثلاثة آلاف في سبع سنوات. كنا لا ننهض كثيراً عن الأرض. بعد ذلك، سنأخذ نفساً عميقاً».

«لن نأخذ نفساً عميقاً إلا بعد أن نشتري العجل والغنمات! وبعد أن نشتري الطست والمرجل، وبعد أن نبني غرفة صغيرة في طرف الشرفة! ننحشر بعددنا هذا كله في غرفة واحدة. إما أن نفعل هذا أو نعزّل الأغراض من الغرفة الجانبية، وننزل إلى أسفل، وأن نحضّر ذلك المكان لحماتي، أو تبقى حماتي في الغرفة الحالية، وننتقل نحن إلى الغرفة الجانبية. بعنا البساط والخرق كي ندفع الدين، علينا أن نتوسع قليلاً من طرف آخر..»

قال بيرم: سيكون كل ما قلته هذا. أنا ما عندي قمار ولا مشروب. لن نصبر كثيراً، تكفي سنتان أو ثلاثة. حتى إننا نستطيع شراء قليل من الأرض إذا نزلت إلى البيع!. وإذا كان معنا نقود طبعاً... من يملك النقود

يستطيع عمل كل شيء. كانوا يتحدثون في ذلك اليوم أمام مقهى نوري. عندما باع نجيب بيك مزرعته لنا - نحن شركاؤه - أخذ من المصرف خمسمائة ألف. ذهب فوراً إلى منطقة البوسفور في اسطنبول، وبنى بيتاً كبيراً. سبعة طوابق. واشترى حديقة كبيرة. ووضع في كل طابق أربع أسر مستأجرة. إنها نقود بقدّ يوم القيامة كل شهر. يقولون: باع المزرعة، وجمع النقود، وذهب إلى اسطنبول، واشترى بيتاً. وإذا جمع النقود التي يأخذها كل أول شهر، سيبني فندقاً ضخماً. والفندق الضخم سيأتي كل يوم بنقود بقدّ يوم القيامة. حينئذ، إذا جمع نقود البيت مع نقود الفندق، سيشتري اسطنبول. هذا ما يقولونه. لديهم الآن سيارات، وعشر شاحنات... ويقول: بعد أن أبني فندقاً سأشتري قطاراً من أجل التباهي! آه لو رأيتِ القطار! فيه غرف جميلة مثل البيوت الجيدة. يجلس فيها مائة شخص. يجلسون، ويذهبون في آن واحد. دون تعب. وضع نجيب بيك أعماله في مسارها، انظري! كيف سيّرها؟ بالنقود. ألم يكن عنده ولد، يوجد انتفاخات في رقبته؟ أرسله ليدرّسه في جامعة أوربية. عندما كنا نحن شباباً كان هو ولداً بقدّ الأصبع. كان يخاف من الضفدع. عندما يدرس في جامعة أوربا، ويعود، سيتزوج من ابنة صاحب مصنع. ماذا يعني مصنع؟ يصنع الآلات دائماً، وأحذية، وجزمات!. في اليوم مائة ألف حذاء! قوادغني!.. إذا لم يكن أول غني في تركيا، فهو الثاني. فيما بعد، سيوحد نجيب بيك نقوده مع نقود صاحب المصنع ذاك. هل يستطيع أحد الوقوف أمامهما؟ يقول نجيب بيك: سأعمل ابني وزيراً في أنقرة! وسأجعله على رأس الوزراء كلهم! الجميع سيلبون كلمته! وسيخطب بالأمة كلها عبر المذياع. يحكي عن ابنه الخواف من الضفدع،

أتفهمين؟ بماذا يصير هذا؟ بالنقود. عندما لا يكون بيد ابن الناس نقود، فهل يدعوه يخطب بالمذياع؟ ولكنهم يدعونه يخطب إذا كان معه نقود. وعندما يكون معك نقود، تشترين حتى حقلاً!..»

قالت خدوج: «العقل عند نجيب بيك كثير، والفكر أيضاً!»

قال بيرم: «نقوده كثيرة، نقوده!.. إذا كانت نقود الرجل كثيرة، يغدو عقله وفكره كثيرين. إذا كان عقل من لا مال عنده كثيراً وفكره أيضاً، فماذا يستفيد؟ انظري يا هذه!. إذا كان الأمر أمر كثرة العقل والفكر فهما عندي كثيران. ولكنني هل أستطيع الوصول إلى المكان الذي أريد؟ سترينني لو كان عندي نقود!. سترين الحقل الذي أشتريه!. أية كرمة سأزرع؟ أي مرشٍّ وجرنٍ سأشتري؟ أجلب حفارة، وأحفر بئراً، وأشتري مرجلاً. أعمل هذا لو كان عندي نقود.. وأحيط المكان بحديقة جميلة، وأشتري جزمة للولد، ولي حذاء، ولك حذاء، ولأمي حذاء! انظري إلى مختارنا الملعون، معه نقود. لا يبقى في الأسفل أبداً. أينما رميته يسقط على أربع كالقط... نقيبنا في العسكرية كان ذكياً أيضاً. كان يتحدث! ويُفهم ما يقوله بشكل، لا تسألي! كان عقله متوازناً مع فكره. كان يرد على العميد! ردّ على العميد!... قالوا إنه تزوج ابنة كافر غني جداً. مهما كان العقل والفكر لدى العبد من عباد الله الذي لا نقود لديه، فلا يُلبي طلبه، ولا يمكنه أن يردّ على العميد! يخاف. النقود تقوي قلب الرجل. النقود تمنح الرجل جرأة. النقود تجعل الرجل يحكي. النقود تجعل الرجل رجلاً يا خدوج خانم!..»

شعرت خدوج بدوار مفاجئ. سقطت في مكانها. نظر بيرم: زوجته تمسك رأسها الذي يدور بيديها.

«مالك يا هذه؟ قلت لك: اخرجي هذه الأفاعي من عقلك!»

قالت خدوج: «ليست الأفاعي!» وأنّت بهدوء.

«ليست الأفاعي؟ قولي إذن، مالك؟»

رفعت خدوج رأسها ببطء. كانت عينا بيرم السوداوان تحت الحاجبين الكثين مليئتين بالقلق. أمسكت يد زوجها، وجلبتها إلى بطنها.

قالت: «هنا أيضاً يا بيرم» كانا يعملان خلف إحدى دغلات القرنفل البري المحيطة بالحقل.

ابتسم بيرم، وقال: «منذ متى هذا؟»

قالت خدوج: «منذ ثلاثة أشهر.. قبل ثلاثة أشهر، كان لا يوجد شيء! أراقب، أراقب، فلا تأتي! كنت في ذلك اليوم سأسأل (هواليجة) زوجة العم (آغالي) فخجلت. ألا يعرف الإنسان نظامه الخاص؟ أنا مثل الساعة. إذا مرّ الأسبوع أعرف أنني حامل. والآن مرت شهور..»

قال بيرم فجأة: «جيد جداً!..»

نطت خدوج قائلة: «ما الجيد ياه؟» ونظرت محتدة إلى زوجها: «ولد، ولد، مرة أخرى ولد؟.»

«قلت: ولد مرة أخرى! فخطر هذا ببالي. اسمعي! سأشرح لك. كانوا يعملون اجتماعاً عندما تخرج الشمس من حضن أمها. يُنفخ في البوق: تي ي ي ي.. فيُذهب إلى الاجتماع..»

قاطعت خدوج زوجها: «ماذا يعني اجتماع؟»

«قفي يا هذه!. الاجتماع، يعني تجمع الجنود. اسمعيني أنت تفهمين الاجتماع. كان في فصيلنا ابن كافر. اسطنبولي. اسمه حاييم. كان خاطر أبيه معدوداً. وهو واحد خواف. كان لا يخرج إلى تدريب

القنابل من خوفه. يوم تدريب القنابل، يحكي مع النقيب، فيبقى في مناوبة المهجع. وابن الكافر هذا لا يرغب أبداً بالخروج إلى الاجتماع. لا يرغب به، ويصعب عليه هذا الأمر كثيراً. يكل ويمل. يخطف لونه عندما يصدر صوت: تي ي ي ي... ويفتح يديه هكذا كقائمتي الإوز، ويبكي قائلاً: اجتماع مرة أخرى! اجتماع مرة أخرى!. والفصيل يضحك من بكائه. أنت ينطبق عليك هذا الحساب يا خدوج! إذا بدا أنك حامل، تبدئين: ولد مرة أخرى، ولد مرة أخرى!.. ماذا سيحدث بولد مرة أخرى يا هذه؟..»

صرخت خدوج: «لا أريد. سيكون هذا الرابع! بماذا يلزمنا اليوم نحن الفقيران أربعة أولاد؟»

قال بيرم: «يلزم أمة القرويين أولادٌ!. عقلك لا يستوعب هذا! يسند أحدهم الآخر.. شغل الرجل الوحيد في القرية رماد. يجب أن يكون له ظهر. على الواحد ألا يتجول في هذا العالم على أنه رجل إذا لم يكن له ظهر. ليكونوا أربعة، وخمسة أيضاً، ليكونوا!».

«ليكونوا عمالاً في حقل آيدن بيك المَحْل البالغ خمسة وأربعين دونماً!..»

لم ينبس بيرم. يده في يد زوجته. نظر إلى وجهها وعينيها. وجه زوجته المكتنز يتصبب عرقاً والمرأة خائفة متبللة. وضع يده على كتفها. داعب رقبتها بلطف، قال: «رغم هذا لا تحزني! ليكن هذا، ولا غيره».

استمر بمداعبتها. أمسك شعرها من خلف رقبتها، وجمعه. كان يريد أن يقبل وجهها في الضوء حتى الشبع. يقبلها تحت الشمس، وسط الضوء! ابتلع ريقه، وتجمّد.

وقفت خدوج ببطء: «لولا الخوف من هذا الولد يا بيرم سأحبك، سأحبك يا بيرم. كيف سأحبك؟ لا أستطيع أن أشرح لك هذا بسهولة.. أقول: لو أننا نحن الاثنين في غرفة، ولو وجد ضوء وماء كثير، وماء ساخن، ولو أن أغطيتنا جديدة، ولو فركنا كل شيء بذلك الصابون الذي ذكرته قبل قليل.. بعد ذلك سنتعانق، ونتعانق، ونتضاجع، ونتضاجع، وننام.. أنا أحب الماء كثيراً يا بيرم! أريد أن أنام، وأنهض، وأغتسل. أريد أن أموت وسط الماء. لا أجد لذة بالمضاجعة، والنهوض دون ماء.. الماء.. أنا أحب الماء كثيراً!..»

فجأة جف فم بيرم وحلقه. أراد أن يبتلع ريقه فلم يستطع. وقبل أن يستطيع لملمة نفسه، وقول شيء، بدأ الولد أحمد بالصراخ من الدغل:

«باباااا، باباااا!.. لك يا باباااا... اركض!..»

سأل بيرم وهو ينتفض: «الأفاعي؟»

«الأفاعي ي ي! ضربتها يا باباا، ضربتهاااا!..»

ركض بيرم إلى ابنه على نفس واحد.

قتل أحمد أفعى أطول من خطوة بقليل. أمسكه، وقبل وجهه وعينيه، وسحبه إلى حضنه، وضغط برأسه على صدره، وقال: «سنبشر جدتك إراظجة مساءً!. ستفرح كثيراً!..» علق الأفعى بمقبض الفأس، وأخذها إلى الحقل. وضع الأفعى الميتة بجانب الخرج دون أن يفكر بخوف خدوج. أشعل ناراً، وأججها، ورماها باندفاع ورغبة داخلها، وأحرقها...

كانت خدوج تنظر إلى زوجها ضاحكة من حيث تجلس: «فوّحتَ الرائحة في كل مكان يا بيرم! ادفنها، أليس هذا أفضل؟ لماذا تحرقها؟»

«لا، لا أدفنها أبداً. أحرقها! لأنكِ إذا قتلتِ أفعى، وأحرقتِها، تمطر

الرحمة علينا كثيراً! ويغدو الزرع والخضرة وفيرة. تغدو القرية في وفرة في تلك السنة! هكذا كانوا يفعلون قديماً. سمعتُ هذا كثيراً!... »

سألت خدوج: «ممن؟ من أمك؟»

«من أمي، ومن الشيخ بيت الله! ومن الشيخ الحاج سعيد الياقة الساحلة أيضاً..» وقلَبَ الأفعى بعصا طويلة وسط النار لتحترق جيداً.

يمسك أحمد حجراً بيده، وينظر من جديد إلى ما بين القصب. سيقتل زوج التي قتلها. الأفاعي لا تتجول واحدة واحدة، بل زوجين زوجين. وسمع هذا من أحدهم.

- ٦ -
أفعى بيت سلطانجة تتجول متلوية

نزلت الشمس عند (هاوانا) و(سقري) غائبة لتجلس في حضن أمها. كانت أسرة قرة بيرم عائدة من الحقل. عندما اقتربت من الدخول إلى القرية، قالت خدوج لزوجها: «أوقف العربة يا بيرم لأنزل. ستضعني عاهرات القرية على ألسنتهن!..»

يُعدُّ ركوب الزوج والزوجة في العربة، والدخول إلى القرية عيباً. وهذا منذ أجدادهم وجداتهم.

قال بيرم: «هيا انزلي لنرَا..»

تناولت خدوج الجرة التي ملأتها من نبع (تشاقر)، ونزلت.

قاد أحمد وأبوه العربة إلى داخل القرية. الولد لا ينتهي من الحديث عن الأفعى التي قتلها.

تسير خدوج متخلفة عن العربة خمس خطوات. عندما وصلوا إلى وسط القرية، خرج الشيخ بيت الله من بيته، ومشى نحو الجامع. توقفت خدوج كيلا تقطع طريق الشيخ بيت الله. كان الشيخ بيت الله يسير متكئاً على عكازه. وكان يسبّحُ ويشكر دون توقف. لا يُفهم ما يقوله. منذ فترة طويلة لا يجد قوة تمكنه من خطو خطوة، ولا تقع بيده نقود

كثيرة طيلة أشهر وسنين، وابنه لا يسمع كلامه، وزوجته لا تضحك بوجهه، رغم هذا ما الذي يشكر من أجله، لا يفهم.

سرعت خدوج مشيتها كيلا تفسح الطريق لآخرين، وتتأخر أكثر. لحقت بالعربة.

كان بيت قرة بيرم الذي آل إليه من أبيه يطلّ على وسط القرية. إذا رفع الأذان يسمع من داخل البيت حتى ولو كان الذي يرفعه الشيخ بيت الله بصوته الميت. له طابقان. في الأسفل اسطبل ومستودع تبن ومكان للخراف، وفوقها غرفتان وشرفة. يجلسون، ويأكلون، ويشربون في إحدى الغرفتين، ويضعون أغراضهم في الأخرى. الطحين والقمح والبذار والجرن الخشبي في غرفة الأغراض هذه. يُصعد من الطابق السفلي إلى الطابق العلوي بوساطة سلم خرب. كل سنة تسقط إراظجة أم بيرم مرة أو مرتين عنه. وفي كل مرة تنطرح في الفراش وهي تتلوى، وتصرخ: ظهري، وخصري! لأسابيع. فكر بيرم في أحيان عديدة بالذهاب إلى الغابة، وجلب شجرتين، وجعل النجار (بطال) يقطعهما، وتجديد «هذا السلم المصيبة» بشكل جميل. ولكنه فيما بعد، يظهر «عمل أهم» ويبقى السلم في الدرجة الثانية. نيته هذه السنة قوية جداً: قبل البدء بإراحة الأرض، سيكدن عربته، ويقطع شجرتين فتيتين جميلتين، ويجلبهما. وهكذا سيتخلص من قضية السلم، ويُسكت أمه في آن واحد. عندما حكى عن نيته هذه، ذكر عدة مرات أنه سيأخذ معه أحمد. وصار الآن يسأل: «متى ستجدد السلم يا بابا؟». عندما ينهي شغل حقل الخضار سيتناول هذا العمل فوراً. وسيخلّص نفسه من لسان أحمد. يريد أحمد أن يرى غابة صنوبر (غورأولوق) التي قتل فيها جده (الشاهمران).

أوقف بيرم العربة في الفسحة. كانت أمه إراظجة تجلس عند أعلى السلم، وعلى جانبها من هنا عثمان، وعلى الجانب الآخر (شرفة) الصغيرة. يبدو عليها مظهر الغضب والحقد.

صرخ بيرم من الأسفل: «كيف حالك يا أمي؟»

قال إراظجة: «كيف سيكون حال أمك بعد هذا العمر؟ أنتم اركبوا العربة، واذهبوا إلى الحقل لزراعة الخضار، وأنا أبقى في البيت لأعمل أمام جحاشكم في هذا الحرّ، ومع هذا الذباب! كيف سيكون حال أمك يا قرة بيرم؟..»

قال بيرم: «لا تخافي، سأصنع بخاخة للذباب يا أمي. سيجلب البائع المتجول محمود علاجاً في الأسبوع القادم. إذا جلب، سأشتري فوراً، وأصنع البخاخة! وآخذك إلى الحقل إن أردتِ يا أمي؟ لا تتكلمي هكذا بغضب!..»

قالت إراظجة: «لا أريد، أرجوك لا أريد. أنا لن أنزل من الأعلى إلى الأسفل قبل أن تجد حلاً لهذا السلم المصيبة. إذا أغضبتني، سأقسم، ولا أنزل حتى أموت! والله حتى إنني لا أنزل إلى بيت الخلاء يا بيرم!..»

قال بيرم: «سيصير يا أمي. يُعدُّ شغل الحقل قد انتهى. غداً سأجلب بعض الأغصان اليابسة وأقوي السياج. إذا انتهى شغل الأغصان غداً، سأقوي العوارض بعد غد. وفي اليوم الذي بعده، إذا أخذتُ البطل أحمد معي، سنتجه فوراً إلى غابة صنوبر (غورأولوف)!..»

أخرجت خدوج الأغراض التي في العربة إلى الأعلى فوراً. واحتضنت ولديها اللذين يصرخان: «ماما، ماما!» كان الولدان يشدان ثوبها. جلسا في حضن أمهما، شرفة من جهة، وعثمان من جهة أخرى يقبلانها. وخدوج تقبلهما بشكل متلاحق.

أفلت بيرم الثور والبقرة من تحت النير. أغلق باب الحوش بهدوء.

جلسوا معاً عند أعلى الدرج. أخذت إراظجة معلومات من خدوج حول ما إذا كان الحقل قد زُرِع بحسب أوامرها. وعندما وصل الحديث إلى الليف، تَقَطَّبَ حاجبا إراظجة.

قالت: «لو أنكم رششتموها خفيفة. إذا رششتموها كثيفةً، سأذهب عندما تنبت، وأقلعها واحدة واحدة».

قال بيرم: «أنا قلت لها كثيراً: لننثرها خفيفة! ولكن كنتك هذه لم تسمعني!.»

«لماذا لا تسمع؟»

«كيف أعرف؟ تقول إنها تحب رائحة الليف كثيراً. لو تركتها، لزرعت كل جانب بالليف».

احمرّ وجه خدوج حتى أذنيها.

قالت إراظجة: «ما هذا العقل؟ وهل تُشبعُ بطنَكِ رائحةُ الليف الجاف؟ يجب ألا يقطع الليف هواء الفاصولياء والبطاطا! يجب أن يزرع بشكل خفيف، ومتناثر..»

قالت خدوج: «يا روحي أمي!.. لا تنظري إلى هذا!. لم نزرعه كثيفاً إلى هذا الحدّ. ستأخذ الأخريات هواءها..»

قالت إراظجة: «حسنٌ إذن.. دعي حديث الليف الآن!. أنا وضعت على الموقد طبخاً عند العصر. لأنهض وأرى. إذا نضج فكلوا خبزكم. لابد أن الولد أحمد قد جاع».

أبعدت خدوج الأولاد عن حضنها، وقفزت، وقالت: «لأنهض أنا يا أمي، اجلسي أنت!..»

فرحت إراظجة أكثر من اللازم. فهي تحب كنتها. لديها عادة جيدة زيادة عن عاداتها الجيدة كلها. تقفز، وتنهض. تتلقى الكلمة قبل أن تخرج من فمها. وبيرم أيضاً هكذا. إنساني..

وضع بيرم يده على رأس أحمد، وقال: «جاع هذا البطل كثيراً يا أمي. أي أنه استحق طعاماً جيداً. ماذا وضعتِ على الموقد؟»

«وضعتُ برغلاً باللحم المقدد! كان عندنا طبخة واحدة. إذا كان قد عمل عملاً جيداً، فسأضع له فيها قليلاً من السمن! قل لنرى، ماذا فعل؟»

«قتل أفعى في دغلة القصب!»

قالت إراظجة: «ماذا؟..» وقفزت فجأة. وتناثر شعرها الشائب من تحت غطاء رأسها المزهر: «أفعى؟ اسمعوا!.. اشرح فوراً لنرَا.. احك لي بسرعة.. إيه؟..»

عندما كان بيرم يشرح، شعر أحمد بخجل، مع أنه أراد أن يحكي عن نجاحه لجدته! يحكي أبوه عن الأفعى، وكأنه هو الذي قتلها.

سحبت إراظجة أحمد إلى ركبتها، وبدأت تداعب ظهره: «يا سبعي، يا شبلي، مالي غيرك!. طلع لجده!. سيطلع بالتأكيد!. العشبة تنمو على جذرها. والذئب يفعل ما يراه في جماعته!. سبعي، يا قرة أحمدي، يا شهم!..»

حين جاء دور أحمد، قال: «سأقتل الأخرى غداً يا جدتي!. بحثت عنها اليوم، لم أجدها!..»

«أية أخرى؟ ما الأخرى؟»

«زوج التي قتلتها!.. ألا تتجول الأفاعي زوجين زوجين؟».

نادت إراظجة نحو الداخل، إلى خدوج: «يا كنتي، تعالي يا كنتي!.»

جاءت خدوج إلى الباب.

«انظري يا كنتي في قعر الدولاب! إذا كان يوجد سمن، ضعي ملعقة على البرغل! واغلي البيضات التي في كيس الملح! اغليها، ولكن أحمد إذا قتل كل يوم أفعى، فيالما سيحلُّ بسمننا وبيضنا!..»

قال بيرم: «خرجت الأفاعي عندما ضغط الحر. لهذا يجب أن يُخاف من هذا البطل يا أمي!»

بدؤوا الحديث عن الأفاعي. بدأت إراظجة القصة منذ البداية، من (شهرمان) التي في غابة صنوبر (غورأولق)، وسارت بالقصة حتى اليوم. تقول: «تشعر الأفاعي بألم دائم تحمله في ذيولها من جماعتنا. وألم الذيل كألم فقدان الولد تماماً. لا الإنسان ينسى ألم الولد، ولا الأفاعي تنسى ألم الذيل!..»

* * *

«يا أختي، تعالي يا أختي إراظجة!..»

كانوا يتناولون طعاماً في الداخل. برغلاً باللحم المقدد.

قالت خدوج: «يوجد صوت. اصمتوا!..» وتركت ملعقتها.

توقفوا. تنصتوا..

«يا أختي إراظ!. يا أختي إراظ، تعالي!..»

قال بيرم: «هذه خالتي!.. خالتي سلطان!» ونهض، وركض إلى باب الحوش ليفتحه».

«ولاه بيرم! هل أنتم أموات؟ أنا أصرخ منذ الصبح!»

ترك الذين في الأعلى الطعام، ونهضوا.

خرج بيرم إلى الشرفة فوراً، وقال: «خير يا خالة سلطان. ماذا يوجد؟ كنا نأكل، لم نسمع. البطل أحمدنا قتل أفعى اليوم. وبدأت أمي حديث (شهرمان) التي في (غورأولوق)! والحديث عن أبي، والحديث عن عداوة أمة الأفاعي لجماعتنا!..»

بدأت سلطانجة بالنق من قبل أن تصعد الدرج: «الله يبعث البلاء للأفاعي. ستدوشنا. لماذا قتل زوج أختي (قرة شالي) تلك الخنزيرة (شهرمان)؟ غدت عدوة لنا. إذا غضبت قليلاً، تدخل إلى داخل القرية الكبيرة، وتجدنا فيها. يبدو أن الله يرعاها دائماً! إنها لا تغلق دفاترها بأي شكل!..»

قال بيرم: «اصعدي الآن يا خالة. اصعدي، واحكي لنا في الأعلى!» وأمسك خالته من ذراعها، وسحبها. «ثم إننا نتناول لقمتين. طبخت أمي برغلاً باللحم المقدد..»

صعدا.

قالت سلطانجة: «لا تقولوا قديداً وما قديد! اعطوني طاس ماء! قلبي قفز من مكانه، وما زال يدق كالطبل..»

نهضت خدوج، وقدمت لها الماء.

قالت سلطانجة: «أوووف، أوف!..» شَربَت الماءَ، «أوف، جئتُ من التعشيب يا أختي! جلست عند الباب قبل أن أنزل العشب عن ظهري. كان ظهري متعرقاً. قلت: أنتظر أن يبرد! بعد ذلك، نهضتُ، ودخلت. أشعلت الموقد. وضعتُ قليلاً من البرغل. قلت. أطبخه، وآكل. بعد ذلك، ذهبتُ لتناول مدّة السفرة من عند أسفل الجدار. تناولت القماشة.

فتحتها، ومددتها في الوسط. كان يوجد حبل، الله يبعث له البلاء. بحثت عنه قبل أن أذهب إلى التعشيب لأنه يلزم. ولكنني لم أجده. لا أدري أين وضعتُه. حين رفعت مدّة السفرة، رأيت شيئاً أسودَ. قلتُ: إنه هنا، وذلك الحبل الضائع! قلتُ: لآخذه، وأضعه في مكان جيد أستطيع أخذه منه حين يلزمني. صار تناولي له، وقذفي له في لحظة واحدة: إنها أفعى مثل الثلج!... صرخت: يا أمي ي ي! وخرجتُ فوراً، خاصة أنني لم أسقط مغمياً عليّ. خرجتُ، ولكن عيني على ما ورائي. كأنها ستأتي فوراً. قلبي يخفق بقوة. لا يهدأ بأي شكل. قلت: لأنادي شكرو عديم الخير وزوجته فاسدة الحليب، لم أجد هذا لائقاً. لا أستطيع نسيان ما قاله ذلك اللامبالي. وإبراهيم ذو الأذنين الكبيرتين لا يترك زوجته أيضاً. قلت لنفسي: لا تكبّري أنوف هؤلاء! أغلقتُ الباب، وركضتُ قادمة إلى هنا. وبقي البرغل على الموقد. لابد أنه احترق حتى الآن. وقد بيضت القدر في الخريف الماضي...»

قالت إراظجة: «حدث ذلك الأمر في صنوبر (غورأولوق)، في الوادي الذي أكل فيه الدب العسل. كم سنة مضت؟ ثأر الأفاعي ثأر. إنها لا تنسى ثأرها. ها هي تعود إلى هجومها! كل أربع أو خمس سنوات تهاجم هكذا. لنر ما إذا كانت ستستطيع فعل شيء؟ حقدها لا يعتق.. حربنا مستمرة!...»

قال بيرم: «اجلسي أنت يا خالة، لأذهب، وأرَ!» ونهض.

نهض أحمد من خلفه، وقال: «سآتي معك يا بابا!»

قال بيرم: «تعال! صرت كبير خبراء الأفاعي علينا يا بن الكافر! بعد الآن، أينما سمعت كلمة أفعى، تركض إلى هناك!..»

تناول بيرم فأساً، وثقاباً.

خرجا.

جمع أحمد حجارة ملء حرج.

بيت سلطانجة في الطرف الآخر من القرية.

كان يعيشُ في هذا البيتِ أشخاصٌ سعداء. مات زوج الخالة (حقي)، وتزوجت بناته، وذهبن عرائس. وجلب أولاده بنات الناس. وهل يوجد غدر بقدّ الترمل؟ فخربت حيوية سلطانجة. عندما يحلُّ المساء، وينزوي كل شخص في غرفته، ويفتحون فرشهم، ويخلعون ثيابهم. وتخلع النساء ثيابهن، ويعانقن أزواجهن كالخس الطازج، ويمارسن الحب بشكل حلو، يبدأن المماحكات قائلات: «لم ترا لم تفعل! لم تقل! لم تف بوعدك!..» مر مراتٍ الأيامَ الحلوة. حلّ يومٌ أمسكت فيه إحداهن الأخرى، وعاندت إحداهن الأخرى. جاء يومٌ، لم تستطع إحداهن التغلب على الأخرى، فبحثن عن ضعيف يوجهن إليه الذنب. فوجهن سهامهن إلى سلطانجة. فاضطرت المرأة للجوء إلى غرفة في الفسحة على مستوى الأرض. وقطعن السلام وتحية الصباح. وفقد الجميع سعادتهم القديمة. فتقول: «وصلت إلى عصر يومي، وانتظر موعدي!»

فتح بيرم باب الفسحة. بعض العجول والحمير واقفة على قوائمها، وبعضها مضطجعة، تشهق وتزفر. أحمد يسير خلف أبيه.

ذهب بيرم فوراً إلى البيت الأرضي الذي تنام فيه خالته. فتح الباب. لسان لهب القنديل الموضوع على رفّ المدخنة يتراقص. نار الموقد انطفأت. نضج البرغل، وهو يبرد تدريجياً. جف ماؤه تماماً. ولم تحترق أرض القدر.

يا رقيب أحمد! امسك هذا القنديل لنرى!»

ترك أحمد الأحجار التي في حضنه، وأمسك القنديل. وبدأا يتلفتان ناظرين إلى هنا وهناك. لا يبدو أن هناك ما يشبه الأفعى. رفعا أطراف مدّة الأرض. قلّبا الفرش. نفضا الحصيرة والسلة، والألبسة. ونظرا خلف الباب حيث توضع أوعية الماء، وإلى قعر الخزائن المحفورة في الجدار، وإلى ما بين قطع الخشب، وإلى أربعة أطراف البيت. لا توجد أفعى! وجها القنديل إلى الجدران المتعرجة. نظرا إلى أعلى الجدران، وإلى ما بين عوارض السقف. لم يريا ما يشبه الأفعى.

قال بيرم: «لم تطر ياه! لابد أنها دخلت إلى إحدى هذه الثقوب. لنكسّر هذه الأحجار التي جلبتَها، ولندسها في الثقوب!..»

ضرب بيرم بعض الأحجار ببعضها بعضاً. وكسر بعضها برأس الفأس. وملأ الثقوب. خرج إلى الباحة، وجلب تراباً. وجعل من التراب طيناً عند الموقد، وسدّ ما بين الأحجار.

أحمد يفتش عن ثقب لم يُسدّ بعد.

قال بيرم: «لا تقلق يا جاويش أحمد. أبوك جيد بسدّ الثقوب بإذن الله! لن يترك أحدها إن أعانه الله. يكفي أن يقع الثقب تحت يد أبيك».

قال أحمد: «لا يوجد غيرها!»

«انظر جيداً لنرَ! ألا يوجد غيرها؟»

«نظرت. لا يوجد».

«انظر جيداً يا سبعي!»

«ها أنذا أنظر، لا يوجد!»

«انظر إلى الأعلى!..»

«لا يوجد في الأعلى أيضاً...»

«ألا ترى ثقب المدخنة ولاه؟..»

خجل أحمد.

قال بيرم: «ستفتح عينيك إلى الآخر! ثقب المدخنة وما مدخنة! حين أقول ثقباً فإن المقصود الثقوب كلها! الرجل الذي لا يرى الثقب الكبير، فإنه لا يرى الصغيرَ المهمَ أصلاً أبداً!..»

«هل ستسد المدخنة؟»

«ثقب المدخنة كبير جداً، لهذا لن أسدّ المدخنة. أنا معلم الثقوب الصغيرة. الثقوب الضيقة. ثم إن الأفعى لا تنزل من هذه المدخنة. الأفعى في الأسفل. هيا، لنذهب الآن!..»

خرجا، وأغلقا الباب. يتسلل ضوء «لا خير فيه» من نافذتين صغيرتين، الواحدة بقد عين الطير في الأعلى. بقيت الحيوانات بحالها في الباحة.

عندما وصلا إلى زاوية الجامع، رأيا الشيخ بيت الله يفتح الباب من أجل صلاة العشاء. القرية تحت غطاء من الظلام. المكان كالزنزانة. لا يوجد نبس أو نفس في الأزقة. يُميّز ظلُّ إنسانين في ضوء مقهى نوري. رجال القرية قليلو التعب يشربون الشاي، ويتبادلون الحديث. وإن لم يكن القروي هكذا فهو ينام من أول المساء. يأتي من عمله، ويتناول خبزه، ويرتمي نائماً. بصعوبة يمسك نفسه إلى العشاء.

مؤخرة بيت آغالي على مؤخرة بيت بيرم. بيت أحدهما يطل على الشرق، والآخر على الغرب. بيت بيرم على الغرب، ويطل على وسط القرية، ويتلقى ضوءاً من الغرب قليلاً. بيتاهما متلاصقان من الخلف، ولكن بابيهما

متباعدان جداً، وجيرتهما ليست قوية. بيرم يحب آغالي. وهل رأى القليل من مساعدته في أعمال القرية في سنوات ما بعد وفاة أبيه؟»

قال آغالي: «مرحباً يا قرة بيرم! لم تظهر منذ زمن؟ أين أنت؟»

«ضغط علينا الشغل يا عمي آغالي! أذهب، وأعود!.. نزرع الخضار في الحقل...»

«هل تصغي لما يحدث في القرية يا بيرم؟ هل تسمع بما يحدث، وما لا يحدث؟»

«لا أصغي كثيراً يا عمي آغالي. هل حدث شيء؟»

«لدي ما أقوله لك يا بيرم! خرجتُ لأداء الصلاة، تعالْ لنجلس جانباً، ونتحدث!»

انحنى بيرم على أذن أحمد: «اذهب إلى البيت. قل لخالتي سلطان ألا تقلق، ولم يحترق قدرها، وسددنا الثقوب. لتنم في بيتنا اليوم. غداً نفكر بشيء ما. قل لها هذا، هااه!..»

مشى أحمد.

* * *

جلس بيرم وآغالي القرفصاء عند أسفل الجدار.

قال آغالي: «باع المختار أرضية بيت أمام بيتك. هل عندك خبر يا قرة بيرم؟ اشتراها أحد أعضاء اللجنة.»

قال بيرم: «لاا... من اشتراها من اللجنة».

«ولاه بيرم، تقول: لا يا عمي! أبوك قرة شالي مثلك، كان يقول: لاا... عندما يحدث شيئاً. ألا يعلم الرجل؟ اشترى أرضية البيت هاجلي، العضو الثاني!»

«هل هو هاجلي محمد المجنون؟»

«نعم ياه، هاجلي محمد المجنون!»

«متى حدث هذا الأمر؟»

«مضى يومان».

«هل سيبني هاجلي بيتاً؟»

«سيبني بيتاً بالتأكيد».

«إيه، عنده بيت في الحي السفلي؟»

«ليكن! كبّر عمله الآن. اشترى أرضاً بستة آلاف من المزرعة. ثم جعل القرية تنتخبه للجنة. هكذا الأمر إذن: إذا خرج منا واحد إلى موقع مسؤول، يبدأ بإزالة الرماد من أمامه! وهاجلي يفعل هذا! إذا بنى بيتاً وسط القرية، فإنه مختار بعد ثلاث سنوات».

تناول بيرم عوداً، وبدأ يحرك التراب أمامه في الظلام. كان قد بدأ بيت الله بالأذان. وبصوته غير المفهوم يقول: «الله أكبر». يجرجر قدميه عدة خطوات ذاهباً نحو الجامع.

«كل الأغنياء الكفار عيونهم على أرضيات بيوت وسط القرية يا قرة بيرم! كثير من الأشخاص جاؤوا عندما كنتُ عضواً في اللجنة، وقالوا: لندفع نقوداً للصندوق، وأعطونا أرضيات بيوت وسط القرية! ولكن المختار الرقيب حقي لم يوافق حينئذ، كما لم نوافق نحن الأعضاء. لم يسمح أحدنا بهذا. لماذا؟ لأن الساحة ستضيق. قلنا: يجب ألا تضيق الساحة! ولكن الحاليين، لا يقولون هذا... انظر! بدؤوا يبيعون عندما يطلب منهم. أنا لا أفهم هذا العمل يا قرة بيرم!..»

بيرم صامت، وآغالي يتكلم: «يقول هاجلي محمود المجنون: لأبنِ

بيتاً وسط القرية يزيد من مكانة القرية! لأجعله ذا قرميد. ولتكن الطغراء على واجهته الأمامية. وليكن بطابقين، ولأدفن في جداره رأس ثور ذي مهابة. تحته اسطبل ومستودع تبن، وفوقه بيت جميل! وليكن ذا دورة مياه وحمام!.. هكذا يحكي هاجلي. أي أنه سيغلق أمام بيتك تماماً. أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟..»

«وهل دفع للصندوق كثيراً؟»

«لا أعلم إن كان قد دفع كثيراً أو قليلاً. ولكنه حكى مع حسنو العاري: لنشتر ونبع. بعد ذلك باعوه واشترى. ومنذ يومين يصب هاجلي القرميد. تحدث مع معلم البناء الرأس الحجري. وسيجلب معلماً من (غوغتشة ياقا)، ليبدأ فوراً!»

«حسنٌ يا عمي آغالي، ماذا يجب أن يُفعل إزاء هذا الوضع؟»

قال آغالي: «إزاء هذا الوضع.. لابد من الضغط! الاعتراض، الصراخ، عدم السماح ببناء البيت!.. عليك أن تحدث صخباً. ستتناول قلّة الأدب هذه. ستشتكي للمحافظ. ستذهب إلى العريف، وستجلب القائمقام!..»

يستمع بيرم صامتاً. هل من الممكن أن يفعل إحدى هذه الأمور التي يقولها آغالي؟ اشتكيت للمحافظ، المحافظ حولها إلى القائمقام. القائمقام حولها إلى العريف. العريف حولها إلى المختار. والمختار رجل هاجلي! أيمكن أن يجدي هذا؟ بعد ذلك، كيف ستتابع هذه الأمور؟ يقول: سأزرع الشتول! يقول: سأقوي السياج! يقول: سأصلح السلم. يجب أن يكون لدى الرجل رجل زيادة في البيت، وبينما يقوم هو بهذه الأمور، تتابع أنت الأمور التي يقولها العم آغالي. لا يمكن قطع كل هذه

الطرق مشياً. يجب أن يكون تحتك حصان. لا يمكن إنجاز أي عمل دون نقود، فيجب أن يكون زنارك مليئاً...

قال آغالي: «فكر جيداً يا قرة بيرم. لا يوجد في القانون حق لرجل ببناء بيت أمام بيت رجل آخر! إذا بنى هاجلي بيتاً أمام بيتك ستغلق إطلالته. دع عنك الإطلالة، غداً يجعل دورة المياه بجانبك، ثم احتمل رائحة الأفندي حتى يموت! سيعمل هاجلي اسطبلاً تحت البيت. أين سيكون الزبل؟ كل بيت يكوّم زبله خلفه. إذا بنى هاجلي بيتاً، أين سيكون خلفه؟ طبعاً سيكون قدام بيتك. أي أن قدام بيتك سيكون مكان تجميع زبل هاجلي! أيحتمل هذا يا قرة بيرم؟ إذا احتملت أنت هذا، فلماذا يحتمل القرويون الآخرون؟ ومن يكون هاجلي هذا ليبني بيتاً وسط القرية؟ إنه واحد قذر. أليس لقرة طاش كرامة؟

نهض بيرم، وقال: «حسنٌ يا عمي آغالي. سلمت! تلقيت كلامك، وقبلتُ به. سأفكر بحل بالتأكيد! سلمت...»

حين تركه آغالي، وركض نحو الجامع، صرخ قائلاً: «احذر من اليأس يا قرة بيرم، احذر هاه!..»

مشى بيرم باتجاه بيته. قبل خطوتين من باب الحوش تعثرت قدمه بشيء. هوى، وكاد يسقط. انحنى، وبحث متحسساً المكان بيده. إنه خازوق! أشار هاجلي إلى أماكن الأساس غالباً. إذا كان الأمر هكذا، فهو غير لائق أبداً. إنه كوع قبيح وسط القرية. اقتلع بيرم الخازوق، ولوحه بيده، بعد ذلك، قذفه باتجاه الجامع.

حين وصل إلى البيت كانت أمه وخالته وزوجته جالسات. تُميّزُ الأشياء في ضوء القنديل الشاحب. تكور أحمد خلف جدته، ونام منذ

زمن. الولد الأصغر عثمان ينام في حضن خدوج. الوسطى شرفة تكورت في حضن سلطانجة.

وجه بيرم لا يضحك.

سألت إراظجة: «هل يوجد شيء يا بيرم؟ كأنك هدمت البناء! أم أنك حزين لعدم قتلك الأفعى؟»

لم يرد بيرم.

«الأفعى ذهبت كما جاءت. هل ستبقى لتنام هناك؟»

قال بيرم: «ذهبت يا أمي! بحثنا، وفتشنا كل طرف، لم نجدها. ونحن أغلقنا الثقوب كلها، وطيّنا فوقها. لم يبق من جنس الثقوب مفتوح غير المدخنة. والأفعى لا تأتي من هناك». سأل خالته: «هل تأتي؟»

قالت سلطانجة: «كيف أعرف؟ اسمها غطاسة. وإذا لا يوجد ثقب، تجد طريقة للخروج إلى هناك».

قالت إراظجة: «لا تخافي إلى هذا الحدّ يا أختي! للأفاعي أنواع. أفعى الماء إحدى هذه الأنواع. ومن أنواعها أيضاً أفعى البيت. ومن أنواعها أفعى الحقل. لا تثقي بأفاعي الحقول، ولكن أفعى البيت لا تمس الإنسان بسهولة. هذه هي الحقيقة. ولكن الأفاعي تخاصمنا أولاً. هي تخاصمنا، ونحن نخاصمها. لو نجد طريقة نتصالح معها، لن يكون هذا سيئاً!..»

قالت سلطانجة: «تأخر الوقت، لأذهب!»

قالوا: «اجلسي، ونامي هنا!»

لم تقف: «كل شخص يرتاح في بيته».

علّقت إراظجة على أختها الأصغر قائلة: «هذا يعني أن الإنسان بعد هذا العمر يتعلق براحته. إذا كنتِ تريدين الذهاب، فالخيار لك يا أختي سلطان! هيا بالسلامة!»

نهضت سلطانجة: «أترككم بعناية. أنا خائفة، ولكنني سأذهب».

قالت إراظجة لخدوج: «يا كنة! انهضي أنت أيضاً! نوم الناس سيدفق من أعينهم. انهضي، وجهزي أمكنتهم يا ابنتي!»

نهضت خدوج: مدت الفرش المرقعة الواحدة بجانب الأخرى. وضعت التي لحماتها في الزاوية الأعمق، والتي لأحمد في الوسط، والتي لهما قرب الباب.

أخذت إراظجة الصغيرين إلى حضنها. بعد ذلك، نفخت القنديل: «بماذا كنت تتحدث مع آغالي؟»

«كنا نتحدث من هنا وهناك يا أمي...»

«هل كان سيحدثك آغالي وهو ذاهب إلى الجامع لو كان الحديث من هنا وهناك؟ لابد من وجود سبب؟»

قال بيرم: «يوجد!... هاجلي محمد المجنون سيبني بيتاً أمام بيتنا! اشترى أرضية بيتٍ من لجنة القرية!»

«ممن اشترى قلت، ممن؟»

«من لجنة القرية!».

نهضت إراظجة من الفراش: «هم م م! جاء اليوم بعد الظهر أخوته، وثلاثة أو أربعة أشخاص. إنهم رجالهم. قاسوا وذهبوا. ناديت فطوم من الطرف المقابل، وسألته. قالت: لا علم لي، لا أعرف! هذا يعني أنهم عملوا كل شيء دون علم أحد؟ انظر! عيني اليمنى ترف منذ ثلاثة أيام. من الواضح أن هذا سيحدث! إيه، ماذا سيحدث الآن؟»

«يقول آغالي: لا يوجد قانون يقول ابنوا بيتاً بيت! ويقول: ممنوع إغلاق إطلالة البيت!»

«كيف سيبني بيتاً وسط القرية؟»

«بيت كبير بطابقين، إنه دار! ستكون الطغراء على واجهته. وسقفه قرميدي. وتحته اسطبل، ومستودع تبن، وفي الأعلى غرف. وسيدفن رأس ثور تحت واجهته. بيت بدورة مياه وحمام».

«قل إن فاطمة الفواحة ستخرى أمام بيتنا صباحاً ومساء!.. وسيضع هاجلي زبل دوابه في أنوفنا!. واخ من مشروخي الشرف، واخ! لماذا باع حسنو العاري هذا قدام بيتنا، ولم يبع قدام بيوت الآخرين؟ لماذا سمح له الكفار في اللجنة؟ هذا يعني أنهم اعتبرونا أصحاب بيت لا ننبس أو نقول: جق! فقراء وخوافين! هم م م م! بدأت إراظجة بالصراخ: «إذا خروا أمام بيتنا فسأخرى في أفواههم جميعاً. لا يمكنهم أن يبنوه! انتبهوا! إنها حرب. ماذا يعتقد نفسه هاجلي البشع محمد المجنون؟ هل صار رجلاً بعضويته في لجنة القرية؟ كان حماراً، وهو الآن حمار. وزوجته الفواحة فاطمة لا تستطيع تنظيف مخاطها. تفوح منها رائحة جيفة على بعد عشر خطوات. يجب أن تكون أمور من يبني بيتاً وسط القرية منتظمة! ألا يوجد شرف لقرة طاش؟ أليس هذا معيباً أمام الذاهبين والآيبين؟ لا يمكنه أن يبنيه. إن بناه سأهدمه! إذا بناه سأجعله أرذل من كلب! عليه ألا يعتمد على عضويته في اللجنة! إذا كان عضواً في اللجنة، فأنا إراظجة قرة طاش!»

صرخت، وزعقت. نهض أحمد مرعوباً، ونظر فيما حوله، ثم نام من جديد. فاض النعاس من عيني خدوج. ونام بيرم، وإراظجة تصرخ بكل

ما تستطيع. بعد ذلك، أصغت. انقطعت الأصوات، والجميع ينامون. تمددت، وشدت اللحاف فوق رأسها. ولكنها لم تستطع النوم حتى الصباح. لم يعد جسمها يتسع لقلبها. تتقلب في الفراش.

خدوج تحلم بأنها تنام مع بيرم على أغطية مغسولة بالصابون المعطر، في فراش بجانبه أربع ليّف خضراء، ملقية التعب عنها.

- ٧ -
عَصب

مضى أكثر من نصف ساعة على نهوض هاجلي العضو الثاني للجنة قـرة طاش من فـراشـه، ودخـوله إلى الاسطبل، وخـروجـه، وغـسـل يديه ووجهه، وارتداء ثيـابه. مـازالت زوجتـه فـاطمـة نـائمـة. اقـتـرب، ولكز لحم مؤخرتها السمين. تحرك لحم فاطمة تحت اللحاف.

قال هاجلي: «انهضي يا هذه!» ثم كح: «أشرقت الشمس منذ زمن! انهـضي واشـتـغلي شـغلة مـا! أتنام زوجـة من يـبني بيـتـاً إلى هذا الحـد؟ مجنونة، انهضي بسرعة!..»

تمطت فاطمة! تناثر شعرها المقصوص الطويل على الفراش واللحاف. أفـرجت قليـلاً مـا بين شـفـتـيـهـا المكتـنزتين الضـخـمـتـين. ظهـرت أسنـانـهـا البيـضـاء. حين لكزها زوجهـا مـرة أخرى لملمت نفسـهـا. لملمت نفسـهـا، ولكنها لا تستطيع فتح عينيها.

احتدّ هاجلي قائلاً: «انهضي ولاه، خراية!»

رفـعت فـاطمـة عنهـا اللحـاف. رفـعـت سـروالهـا، ونهـضـت. وارتدت صدارتها فوق قميصها الداخلي الواسع. زرّتها. قفز ثدياها الحيويين.

قال هاجلي: «أنا ذاهب إلى الأساس! تأخرت! سأجمع رجالاً أيضاً.

سأسحب حجارة من الآثار، من القلعة القديمة. سيحفر العمال أساساً. اسمعي، ستحضرين طعاماً! ستفعلين كل ما نبهتك إليه واحداً واحداً. ابن الناس يريد أن يأكل خبزاً قبل الضحى. لا تنسي!. لا تنسي، وتتماهلي، فتخجلينني!..»

خرج ذاهباً.

تمطت فاطمة مرة أو اثنتين. لم تستطع رفع نفسها، وإلقاءها خارج الفراش بأي شكل. انقلبت على طرفها الأيسر بعد ذلك، ونامت من جديد. كان البيت بارداً. تفوح منه رائحة عفنة. ثمة ألم فظيع في رأسها وعينيها. هل كانت فاطمة هكذا قبل أن تأتي إلى هذا البيت؟ كانت تقفز من الفراش مع الفجر. لحظة قفزها تنهض، وتغدو خفيفة كالطير. وكانت قوتها تمكنها من القيام بكل عمل. لا تتوانى، أو تتخلى عن أي عمل. لم تستصعب أي عمل. الآن تُضرب أقفال حديدية على رموشها. تنهض صباحاً شاعرة بالألم من كل جانب من جوانبها، وكأنها مضروبة. حين يحلّ الشتاء يخرج الماء من هنا وهناك في هذا البيت. الفرش والمخدات تغدو رطبة جداً. والأولاد يكحون. وخاصة عند الاقتراب من الربيع! ومنذ زواج هاجلي حتى الآن وهو محشور بهذا البيت مع أخوته الثلاثة. الآن سيكون أول من يُنقذ. ها هو يبيع حصته لأخيه الأصغر منه. كان سيدفع قسماً من الثمن للحجار، وصانع القرميد. كان سيقبض المبلغ كاملاً سلفاً لولا أن يد أخيه في ضائقة. سمح له حتى الخريف. حين يحلّ الخريف سيسد الدين الذي فتحه في صندوق القرية. سيتدبر المختار أمر ثمن أرضية البيت حتى الخريف. وجد طريق الخلاص من الجرجرة في الضيق في هذه الحياة: إما أن تسند ظهرك إلى جبل أو إلى رجل. والآن

يستند هاجلي إلى المختار. المختار رجل طيب. انظر! إنه يمدّ يده لمن في ضيق...

بصعوبة استأجر رجلين لحفر الأساس.

سيأتي أخوته، ويساعدونه.

تضيء الشمس الأمكنة من جديد. أبواب البيوت تفتح للتو. بدأ الناس بالخروج إلى الشارع فرادى.

* * *

كانت إراظجة مستيقظة منذ فترة طويلة. غطت في النوم قبل الصبح، ولم تنم غيرها. لا تنهض من فراشها قبل أن يستيقظ ابنها وكنتها، وينهضان. رغم معرفتها بأن الوقت ليس متأخراً كثيراً، نظرت، وغضبت قائلة: «أما هذان مخلوقان نوامان. لا أعرف لماذا لا يستيقظان؟»

بعدئذ نهضت فوراً وكأن اكتشافاً جديداً خطر ببالها. رفعت الغطاء، ونهضت. ابنها وكنتها نائمان. أدارت خدوج ظهرها لبيرم. ووضع بيرم ذراعه على كتف خدوج. جمعت إراظجة شعرها، ولفته، وخرجت.

«لم يكفِ العذاب الذي عانيت منه على مدى هذه السنوات، ولم ينته! أتجرجر بين الأقدام كجذر شجرة محروق نصفه! لم أشهد يوماً جميلاً منذ أن ولدت إلى أن كبرت!.. انتظرت. عاد الذاهبون إلى اليمن واليونان. لا أحد يعتبر العائدين رجالاً. قلنا: الله فوقنا!.. ابيضّ شعره، وتساقطت أسنانه، ولكنه رجل كيفما كان. أغلبهم تزوجوا هناك، واندمجوا مع الأولاد والأحفاد. سألتُ كثيراً عن قرة شالي. وهل النساء في بلاد العرب حارات كثيراً؟ وهل هن سود كما يقولون؟ كان لقرة شالي

فم، ولكنه يبدو دون لسان. كان من عبيد الله الصامتين. حين أسأله يصمت. وحين تسأله أمه يسكت. يأخذ بندقيته، وكلبه، ويذهب إلى (كوتشوك تشارداق) و(إلدان) و(دوزمشة) للصيد. ويأتي من هناك مع طابور من الأصدقاء. يجلسون على المدات في البيت. تغطى الشرفة بالنعال. دخن وشرب الشاي! يشتري الحلاوة بالصفيحة، ويطعم رفاقه. كنت أطبخ البرغل في حلة كبيرة. يطعمهم، ويسقيهم، ويحكي لهم. وكان بينهم واحد أو اثنان تنقصهما عارضة في عقليهما. بعضهم ممن أطلق كثيراً من الرصاص، وأصيب بكثير منه في اليمن واليونان. كانوا يتبادلون الحديث فيما بينهم حتى تجف ألسنتهم وحلوقهم. انفجر المدفع بجانبه. امتلأت أذناه بالرمل. ترك طابوره. فقد فصيله. قضى سنوات في (الديوانية) يحفر الأختام ويكتب العبارات على الخواتم. جمع الذهب في حزامه. كان حزامه لا ينثني. حمله، وعزم على المجيء، فسلبه العرب. أخذه الإنكليز، وأرسلوه إلى مصر. ومضى الأسر متنقلاً من وراء أسلاك شائكة إلى وراء أسلاك شائكة. كان يحرسهم مسلمون هنود. الأسر طويل، وطويل جداً، ولم يكف، ولم ينته. كان لقرة شالي ثلاثة أخوة، هم أيضاً بقوا في الحروب، ولم يعودوا. أبي لم يعد. أخي الكبير لم يعد، أخي الأصغر منه عاد. وهذا كأنه مضروب في عقله. قلنا لهم كثيراً: لا تذهبوا إلى اليمن، إلى اليمن. ولكن أحداً لم يسمع كلام زوجته منذ الأزل. هل عند الزوجة جانب ورثته من العبودية؟ كانت هنالك (كمولة). جُنّت لكثرة ما قالت: لا تذهبوا إلى اليمن، لا تذهبوا!.. من سلم أو أصيب من الذاهبين عاد أبيض الشعر، وهل كنا نحن أفضل؟ نحن أيضاً ابيضّ شعرنا. يا لسوء تلك الأيام، ويا لجنون

أولئك السلاطين وظلمهم! أهملوا بلدهم، وزوجاتهم وعروساتهم. كيف تصبر عروس أو زوجة في العشرين من عمرها، ولم تصل إلى الثلاثين؟ تحسرنا على مدى كل تلك السنين! وها هي أتت، ومرت، واخترقت مارة. فقد القرويون قيمتهم. جئنا من أيام مؤلمة. أرملة! ذهب ميتاً صيادنا باكراً، وبقينا من ورائه: أرملة! كان قرة شالي صياداً، ويعيش على هواه. حين يبقى وحيداً، وفي يده الطنبور، ينزوي في زاوية، ويبدأ: طن، طن، طن!.. لم أنس أصدقاءه الذين كانوا يأتون طابوراً. أرملة! مات، وراح.. جرادة.. كتبوها أصحاب العشر وحيدة، أرملة! ذهبتُ صباحاً للتحطيب، وظهراً للعمل في الحقل، أرملة! كم كانت الليالي الكافرة التي لا رب لها طويلة! طرقوا بابي. كان بيرم صغيراً، لم أستطع أن أفتح لأحد. أرملة! سنة منع الطربوش وقطع صدارتي الصوفية ظهر عسكر الغابات، واندلعت الحرب من جديد، أرملة! راح كمال وجاء عصمت، وظهرت الحزبية، أرملة! والآن يعزم ابن محمد المجنون على بناء بيت قدام بيتنا لأنه انتخب عضواً في اللجنة، أرملة! أنت أقل من إنسان إذا كنت أرملة! أرملة! ينهدُّ حيلك، أرملة! من يراك يريد أن يركبك، أرملة! أرملة! لم أمت حتى اليوم. لن يكون محزناً إذا متُّ اليوم! كبر بيرم، وانكب على عمله. حتى إنه سيتخلص من حملٍ إذا مت. ماذا سأفعل إذا عشت أكثر؟ أرملة! أتجرجر بين الأقدام كجذر شجرة محروق نصفه، أرملة! سأريهم الأرملة، الأرملة الجميلة!..»

في الساحة، قدام البيت، اجتمع هاجلي، وأخوته وعماله، يدقون الخوازيق من جديد. محمد الرأس الحجري معلم البناء، يصدر أوامره قائلاً: «اعملوا كذا، اعملوا هكذا!..»

رأى هاجلي إراظجة متجهة نحوه. لم يتوقف عن عمله.

جاءت إراظجة، وتوقفت على مبعدة خطوتين من العمال. لم تتكلم أبداً. وضعت يدها على خصرها، وشردت متفرجة على العمال.

بدأ هاجلي ينهمك. لم تُسمعهم كلاماً. لم تقل: «ليكن خيراً! الله يعطيكم العافية، الله يسهّل عليكم!..» ترى هل يتكلم هو قائلاً: «أهلاً بك يا عمة إراظجة!..». ذهب إليها. نظر إلى وجهها. لا حركة في وجه إراظجة.

قال: «أهلاً بكِ يا عمة إراظجة! ماذا يوجد؟..»

لم تجب إراظجة. تنظر إلى الخازوق الذي دقه الرأس الحجري، وإلى الخيط الذي يشده.

قال هاجلي: «نحن نغدو جيراناً يا عمة إراظجة. نبني بيتاً! ستقومون بما تفرضه الجيرة طبعاً! تعد مساعدة من يبني بيتاً أو يتزوج عملاً لله! وبمعيتكم سنتخلّص من طين الحي السفلي!..»

لا ترد.

فكر هاجلي: «لا تريدنا! لا تريدنا أن نبني بيتاً قدّام بيتها، وأن نغدو جيرانها أبداً! لعل هنالك من عبأها..»

تقف إراظجة حيث هي، وكما هي. مازالت يدها على خصرها.

صرخ محمد الرأس الحجري: «هيا يا هاجلي! انتهى هذا الأمر! لنضرب الفأس الأولى! ألن تسيّل دماً؟»

«يجب أن أُسيّل دماً من أجل الأساس، ولكنني لم أحضّر نفسي يا معلمي. سأذبح عندما نرفع الجدران أو السقف! وعندما ندخله!..»

قال أخواه مولود ومحرّم: «هاا، نعم!»

«اضرب الفأس الأولى إذن! ليكن خيراً وحظاً سعيداً عليك! كان عليك أن تذبح ديكاً على الأقل، ولكن غير مهم!..»

قال هاجلي: «لا يا صديقي! جعل الناس يقولون: لم يذبح أبداً، أو سيذبح فيما بعد، أفضل من جعلهم يقولون: ذبح هاجلي ديكاً بمناسبة حفر الأساس!.. أمْسَكَ الفأس، وذهب إلى أول الأساس. وقف، وقال: «بسم الله!» وثبّت ساقيه.

جاءت إراظجة إلى قدامه، وقفت فجأة!

شحب لون هاجلي، وارتجفت يداه وذراعاه، وتمتم قائلاً: «ماذا تريدين ولاه؟»

لم يصدر عن إراظجة نبس أو صوت نفس.

قال هاجلي: «انقلعي من قدامي. لا تعطليني! ماذا تريدين؟ أم أن شيئاً جرى لعقلك هذا الصباح؟»

صرخت إراظجة فجأة: «أنت انقلع بدل أن أنقلع. ستعمل حسناً إذا انقلعت قبلي! يا مضيع ظلّه، هل أنت في الجبل أم في القرية؟ انظر حولك! هل يوجد حولك من يبني بيتاً قدام بيت؟ الله يميتك بالطاعون! لا يمكنك أن تبني بيتاً هنا قبل أن أموت! هذا جوابي الصريح لك! هذا جوابي المختصر لك. ولو كان عندك قليل من العقل لما أردت أن تبني بيتاً هنا! يا من لا عقل عنده. عندك امرأة رثة الهيئة. هذا المكان وسط القرية. سينظر إلى بيتك كل من يمرّ. ماذا ستفعل مع تلك المرأة؟ أم أنك ستكون فرجة في قرة طاش؟..»

هاجلي يصمت الآن.

«ستحتمل تسميع الكلام والوخزات أليس كذلك؟ ولكن ما ذنب ابني؟ لماذا نحتمل امرأتك الفواحة؟»

«ما ضرر زوجتي عليكم يا عمتي العزيزة؟»

«هو هوووه!.. غداً ستغسل الغسيل، وستسكب الماء في باحة بيتنا! ستخرى في الاسطبل، وسترمي زبلها إلى باحة بيتنا! الزبل قدام بيتنا. إذا عملتم هذا، لتعم عيناي إذا لم أحرق بيتكم، وأنثر رمادكم في الهواء! أنا صرتُ في عصر حياتي. إما أن يبقى لي عمر خروق أو لا يبقى! لأكنس عدوي قبل أن أموت. هيا اضرب الفأس الآن إن أردت! لتكن محظوظاً به! الله يسهّل عليك!..»

انسحبت من أمام هاجلي، ومشت نحو بيتها.

هاجلي ينتظر. نظر إلى وجه الرأس الحجري ثم إلى وجهي أخويه. أدار الرأس الحجري كتفه، وصمت أخواه.

«لا تصمتوا! قولوا شيئاً يا هوووه!»

قال أخوه الأصغر منه مباشرة مولود: «اضرب الفأس ولاه! هل ستغيّر طريقك ووجهتك بكلام واحدة شخاخة. إذا كان هنالك بلاء فليكن، اضرب الفأس!»

كان هاجلي متردداً.

قال مولود: «هات!» والتقط الفأس، وضرب. أما أخوه الأوسط فقد التقط الجاروف، وبدأ بإخراج التراب المحفور خارجاً. وانكب بقية العمال على عملهم.

* * *

كان بيرم نائماً عندما عادت إراظجة ودخلت إلى البيت. استيقظت خدوج على صرير الباب. نهضت مذعورة وكأن حريقاً قد شبّ. أيقظت بيرم فوراً، وسوّت ثيابها، وغطت ثدييها وصدرها.

قالت إراظجة: «انهضي، واشعلي النار فوراً يا ابنتي. اشعلي النار، وركبي على الحساء! لنرسل بيرم لجمع الأغصان الشوكية.. واذهبي أنت إن أردت!. انهضي يا أمي!..»

استيقظ بيرم تماماً. قال: «ليبق شغل الأغصان اليوم. إذا لم نوقف هذا الكافر هاجلي، فسنتكلّف غالياً!..»

صرخت إراظجة: «إلى الأغصان، إلى الأغصان.. الأغصان!.. سيّجوا الحقل في أقرب فرصة!.. وأنا سأوقف هاجلي عند حدّه!»

«هاجلي لا يخاف منك يا أمي!»

«إذا كان الأمر أمر شجاعة، فهو لا يخاف منك أيضاً!»

«أنا أخيفه، وألعن أمه يا أمي!..»

«لا نستطيع لعنها، عنده أخوة ضخام. أنت اذهب مباشرة إلى شغل الأغصان اليوم. وقوي عوارض السياج».

قال بيرم: «حسنٌ!»

عندما وضع الحساء على المائدة، أيقظت إراظجة أحمد، وقالت أم بيرم: «كلوا خبزكم أنتم، ولأرسل البطل أحمد لهاجلي!»

لملم أحمد نفسه فوراً، ونهض.

قالت إراظجة: «اذهب، وقل لذاك الكافر الذي يحفر أساساً وسط القرية! قل له: ولاه عمي هاجلي، تقول جدتي: عليك أن تفكر جيداً وأنت تحفر الأساس...»

قال أحمد: «حسنٌ!»

«قل لي! ماذا ستقول له؟»

«سأقول له: ولاه عمي هاجلي! وسأقول له: تقول جدتي: عليك أن تفكر جيداً وأنت تحفر الأساس!».

«أحسنت! انهض فوراً!»

ذهب أحمد.

أعطت إراظجة أوامرها اليومية لبيرم: «تشوكت أغصان الإجاص البري في (بهشيش)، اذهب، وقصقصها! إذا عبأت عربتك جيداً مرتين يكفي حقلنا. انتبه وأنت تقصها، لا تخلع أغصانها! لا تجرح قشرة الشجرة من أعلاها إلى أسفلها. إذا برعمت جيداً يمكن أن نطعّمها في الربيع القادم..»

قال بيرم: «نعمل عربتين. سهل!.. ولكن من الأفضل ألا نترك المكان هكذا، ونذهب يا أمي!»

صرخت إراظجة: «امش أنت يا قرة بيرم! لا يوجد عندك عمل الآن هنا. عندما يصير لديك شغل سأخبرك».

ربط بيرم وخدوج العربة على الدابتين. أخذ الحبل والمذراة والبلطة وموسى التقليم، ووضعاها في العربة. ركب الزوج والزوجة هذه المرة، وقادا العربة. الكلب طومان يسير بجانبهما من جديد.

رجال هاجلي مستمرون بحفر الأساس. أحمد يتكلم مع هاجلي.

عندما رأى هاجلي بيرم وزوجته في العربة، وقف أمامها، وقال: «أوقف العربة لنرَ يا بيرم أفندي!»

لف بيرم المقود على النير، وأوقف العربة.

قال هاجلي: «لماذا ترسل أمك مرة، وابنك مرة لمهاجمتي؟ ألا يمكن أن تأتي وتتكلم معي كالرجال؟ ها؟»

قال بيرم: «أنا لم أرسل أمي، حتى إنني لا أعلم والله. وابني لابد أن أمي أرسلته..»

«ألست رجل هذا البيت؟ لماذا تتكلم أمك، ولا تتكلم أنت؟»

«اليوم تتكلم أمي! وفي الوقت المناسب سأتكلم أنا. لا تتعجل! حينئذ ستفهم إن كنتُ رجلاً أم لا!» رفعت المقود، وسارت العربة.

صرخ هاجلي من وراء العربة: «يا قرة بيرم!. سيقع البلاء على رأسينا يا قرة بيرم. أنا دفعت حرْجَاً من النقود على هذا المكان. إذا كان حقك قد أُكل، فاذهب، واشتكِ. لا تضغط عليَّ هكذا بشكل مخالف يا قرة بيرم!»

قال بيرم: «حسن ياه! طالما دفعت حرجاً من النقود، احفر أساسك!»

تتماوج حقول قرة طاش من (ددة مزار) و(ديلك طاش) و(يايلا يولو) إلى الأعلى موجات موجات. تمتد، وتمتد حتى تصل إلى المرتفعات التي تبدأ عندها الغابة. أرض غير خصبة. وكل سنة تسوء أكثر. ويتدنى الخصب مع الزمن. في أكثر السنوات لا تعطي هذه الحقول بذارها. حقول قرة طاش تزرع منذ زمن أجداد أجدادهم. وتلزم أمطار ربيعية منتظمة من أجل ألا يذهب الجهد المبذول دون جدوى. مع أنه تمر سنوات، لا تسقط فيها قطرة ماء حتى لو أردتها من أجل العلاج. ادعوا أدعية، وصبوا طعاماً للقرويين، واقرئ الشيخ القرآن دون انقطاع، ويقول الناس من السابعة إلى السبعين: «آمين» في الجامع، ولا تسقط! بعض الرجال يخدمون أرضهم جيداً. وهؤلاء يزرعون الأرض سنة، ويريحونها سنة. حراثة الفلاح الجيد، وتريح أرضه سنتان وثلاث سنوات. آغالي فلاح جيد يريحها أربع. ومن أجل إراحتها أربع، لابد من وجود ثيران وخيول قوية، وخدم لدى الرجل. وهذه موجودة عند آغالي. لا يوجد عنده خدم، ولكن عنده ولدين شابين وقويين. لا يستطيع بيرم أن يحرث وجهين،

ويريح الأرض. وفي أكثر الأحيان لا يستطيع حراثتها وجهين. ثور وبقرة...

هيـ... ـه، حقول، حقول!.. حقول بعد (كورقويو)، كانت تملؤها أشجار الإجاص البري. حين تنظر إليها تجدها كالغيم. الأمكنة هنا رمادية تماماً الآن. مستوية تماماً، ورمادية. شق الحراثون هذا الرمادي من هنا وهناك، ليبدو أدكن لوناً. لتكن غير خصبة، وصعبة المراس، وتتطلب حراثة عميقة ثلاث مرات أو أربع! يقول بيرم: «إنها أرضنا ولاه!» ما الحاجة للهم والغم بعد أن تكون الأرض أرضنا؟ إذا لم يصلحها، فلا يميتها...

يسير فولاذ باشا مع ملاك القمر على الطريق متناغمين. الشمس ترتفع عند رؤوس الجبال. يظهر حقل بيرم في (بهشيش). يمكن تمييز أشجار الإجاص البري ذات الأغصان الشوكية. لكز البقرة مرة، والثور مرة بالمهماز بشكل خفيف، قال: «هيا، هووووه..»

***

اشتغل أخوا هاجلي مولود ومحرم حوالي ساعة، وذهبا. عندما ذهبا، قالا: «إنه شغلك مع عمالك حتى المساء، ولنلاحق أعمالنا قليلاً..»

بعد قليل، ذهب محمد الرأس الحجري أيضاً: «اجعل رجالك يحفرون الأساس! وعندما يأتي دور البناء، آتي! ولكن المكان هنا يحتاج أساساً عميقاً. أمر معلوم ياه! إنه على الطريق! غدا عندما تمر السيارات والشاحنات المعدنية تهز البيت! احفر عميقاً! ثم إن بيتك سيكون داراً.

جمعت قطعان العجول، وأخرجت إلى السهول. وانصبت النساء

والبنات والأولاد والناس في الحقول، وفرغت القرية. كان ربيعاً صافياً لا غبار فيه كقطعة فضة أُخرجت من البحر للتو، وجُلبت. العالم يدفأ، والأغصان تستيقظ. انكب النحل على الأغصان المزهرة. اللقالق تجمع الديدان من مجرى الماء. آلاف الأفاعي تركت جحورها وخرجت. وهناك النباتات الحليبية عند الآثار والقلعة القديمة و(تشيل دة دة). يعمل هاجلي بانهماك. ثمة زرقة عالية في السماء. تكورت الغيوم على شكل خراف، توزعت..

بعد قليل، جاء الولد أحمد مرة أخرى: «يا عمي هاجلي، تقول لك جدتي!..»

صرخ هاجلي قائلاً: «هيه يا ربي، يلعن جدتك وأمك! ولاه جحش الحمار!..» وحين تناول حجراً من الأرض ونهض، كان أحمد قد ابتعد ذاهباً. اختبأ في باحة بيتهم. عندما كان هاجلي يصوّب الحجر نحو باب الحوش رأى إراظجة نازلة بسرعة عن السلم. فهم أنها آتية نحوه. يداها على خصرها من جديد. تأتي محتدة، وغاضبة. هاجلي يعصر الحجر بيده.

مشت إراظجة، ومشت، ومرت من جانبه، ووقفت وسط الأساس المحفور جزء منه. رفعت يديها عن خصرها، وعقدتهما إلى الخلف. جالت بعينيها في الفراغ، ولم تتوقف وتنظر ولو مرة واحدة إلى هاجلي.

ترك هاجلي الحجر الذي كان يمسكه بيده ويعصره.

قالت إراظجة: «لماذا تركته؟ لو أنك لم تتركه!»

«ماذا أفعل به إذا لم أتركه يا عمة إراظجة؟»

«لو أنك ضربتني به على رأسي أو بطني!..»

صمت هاجلي.

«لماذا تصمت؟ لو ضربتني، وقتلتني!..»

صرخت إراظجة بعماله قائلة: «اتركوا فؤوسكم ومجارفكم!» التفتت إلى هاجلي: «شرحت لك قبل قليل، أنا بقي لي ثلاثة أيام عمر، أما أنت فلديك الكثير. اقتلني. أنا أذهب إلى القبر، وأنت إلى السجن. حينئذ سيسكن ابني في بيته مرتاحاً تماماً. وإذا رغب، يضع فاطمتك في حضنه، وينام معها. وإذا لم يأخذها ابني، يأخذها أحد أخوته. وستكون سلالتكم سافلة في هذا السهل..»

قال هاجلي: «يا عمتي العزيزة إراظ.. انظري! أقول لك يا عمتي العزيزة مقدماً احترامي لك. يا عمتي العزيزة إراظجة! لماذا تقفين ضدي هكذا، أليس ابنك رجلاً؟ لو وقف هو ياه...»

«لن يقف هو! أنا سأقف! أنا سأموت، وهو سيعيش! إذا مات هو، تذهب أنت إلى السجن، وتبقى زوجتك معلقة. لأنني لا أستطيع أخذ زوجتك! إذا قتلتني، وذهبت إلى السجن، سيأخذ بيرمي زوجتك! هل فهمت لماذا لا يقف ابني؟»

وقفت قريبة جداً من هاجلي: «أقول لأبصق في وجهك، ولكنني أصبر! انتظر لعلك تذهب دون أن أبصق..»

ترك العمال عملهم. هاجلي يتلون من لون إلى آخر. يحمر، ويشحب. يصفّر. يخطر بباله أحياناً أن يوجه لكمة قوية إلى وسط وجهها، ويُسقط هذه المرأة العجوز، ولكنه لا يستطيع رفع يده بأي شكل. تمتد أمام عينيه أرض ثمنها ستة آلاف. يُفكر بحقول ممتدة، وسنواته التي مرت طويلة بالضيق والدين. سيبني بيتاً جدرانه مطلية

بالتربة البيضاء، وغرفهُ مضاءة. وسيضع على رفوفه أطقم القهوة النظيفة. وسيربط في اسطبله حصاناً نشيطاً. وبندقية صيد.. تمحى هذه فجأة، وينطلق في الطريق وراء حمار محمّل بفراش قديم، وهاجلي متعب، ويائس! تطول طرق السجن، وسنينه، وتمتد...

قال لعماله: «هيا يا أصدقاء!.. لنذهب إلى البيت لتناول الطعام».

* * *

بيت المختار في الحي العلوي بجانب (عارضة اللقلق)، وقدامه بئر، ماؤه كالجليد. تنتح زوجته ماء البئر بصبر، وترعى أشجار الإجاص والسرو في باحة البيت.

الحارس مصطفى ينظف وبر حصان المختار في الباحة.

سأله هاجلي قائلاً: «هل المختار حسنو آغا في البيت يا مصطفى؟»

قال الحارس: «في البيت. ولكنه نائم! نام متأخراً قليلاً في الليل. جاء من الناحية متأخراً».

«لنوقظه، عندي عمل مستعجل!»

قال مصطفى: «أنت تعرف! إذا كنت ستوقظه، فاصعد إلى الغرفة المفروشة، وأيقظه بنفسك! أنا لا أتدخل!»

تسلق هاجلي الدرج.

في بيت المختار ذي الطابقين غرفة جميلة ذات سقف خشبي، وسطح ترابي. اشترى من أرض نجيب بيك بإثني عشر ألف. باع خرافاً وخيولاً، وارتاح، وتعب، واشتراها. والآن عمل عمله. انتهى دينه، وازداد دخله. يمكن أن يشتري أرضاً جديدة. له رجل قوي في الحزب. يمكن أن يحصل على قرض، ويشتري جراراً، ومحراثاً ومقطورة.

ضرب هاجلي الباب، وانتظر. فتح عندما أعطى المختار صوته من الداخل، ودخل.

قال المختار: «أوووه هاجلي! تعال، تعال! هذا أنت؟ تعال لنرَ!»
نهض من الفراش: «بعد يومين أو ثلاثة سيأتي القائمقام يا هاجلي أفندي! عندي أخبار سيئة! سنطلب منك نقود أرضية البيت فوراً!»

قال هاجلي: «وأنا أيضاً عندي أخبار سيئة لك! إراظ قرة شالي المهمومة تتمدد أمام الحفر، لا أستطيع بأي شكل حفر الأساس. تقول: اضربني، واقتلني، بعد ذلك، ابن بيتك! وتقول: بقي لي عمر خروف هنا. اقتلني، وادخل السجن، وليأخذ ابني فاطمتك، ويعش حراً. إنه عمل له بلية، لا تسأل يا مختار!..»

«أين قرة بيرم؟ ألا يقول هو شيئاً؟»

«ركّب قرة بيرم زوجته على العربة صباحاً، وأخذ موسى التقليم، وذهب إلى الحقل! وقفتُ أمامه، وقلت: لماذا لا تتكلم أنت، وترسل أمك؟ قال المتشرد: أنا أعرف متى أتكلم، الآن ستتكلم أمي! وذهب.. استأجرت خليل المهزلة وابنه يا مختار! دفعت لكل منهما ثلاث ليرات. انظر صار الوقت ظهراً ولم نستطع عمل شيء. لا تدعهما إراظ المهمومة يعملان! تقول: لا أدع أحداً يبني بيتاً قدام بيتي وأنا حية! تقول: اذهب إلى الجحيم، واعمل ما تريد! تقول: امرأتك قذرة! تقول: غداً ستسكب ماء غسيلها في باحتي! تلقي عربة كلام!..»

قال المختار: «أنت احفر أساسك ولاه. أنا سأطلب بيرم إلى الغرفة مساء. أنت أيضاً تأتي. سأعقد اجتماعاً عاماً أصلاً. سنفكر بالتحضير من أجل أفندينا القائمقام. ثم إنك تعرف أن هناك أمر التمثال، ويجب اتخاذ قرار به..»

«ماذا سأفعل الآن يا مختار؟»

«اذهب، وحفّرهم أساساتك!»

«وماذا إذا جاءت المرأة المهمومة؟»

«لتأت، لا تطاوعها إن جاءت! إذا جاءت إلى هنا، اذهب، واحفر هناك! لا تدخل رأسك تحت بلاء حالياً... اصبر حالياً!..»

قال هاجلي: «استودعك الله!..»

سحب المختار اللحاف من جديد فوقه.

تقلّب، وتحدث كثيراً في الفراش. تبدد نومه.

«أبصق على قرية كهذه ولاه، وأبصق على مخترة كهذه! أقول: لأضطجع، وأنام، وليذهب التعب عني، فيطرق الباب من يحلو له! إنها قرية بلية..» أغمض عينيه، وأراد أن ينام بالقوة، ولكنه لم يستطع النوم. تقلب، وتململ، ولكنه لم يجد طريقة. يفكر بهاجلي: «إنه ساذج من عند الله!. ولاه، ما أصعب جعل فقير، فقيرٍ مجنونٍ أيضاً رجلاً! قلتُ: نعم، يفيدني في شغل اللجنة، ويفيدني في أشغال القرية. يؤيدني عندما يلزم. رجل أحييته بذراعي. يمكن أن يكون أفضل من اسماعيل التيوس، والعضو إبراهيم، وعلي عزت.. ولكن، انظر إلى هذا! الأمور تسير بشكل متعثر، ومعاكس! أما أنا، فأقول لأعطيه قليلاً من أرض المرعى. لأغمض عيني، وليمش. ولكنه لن ينجح. أخشى أن يخرب الفرص التي منحته إياها!..»

قال بيرم: «ولكن انظري! لم يتخل عن حفر الأساس! هذا يعني أنه لم يخف تماماً؟»

قالت إراظجة: «خاف! خاف! ولكنه يعمل سياسة، فلا يُظهر هذا، تلخبط عقلُه حتى وإن لم يخف. وهذا يكفيه. لن ندعه بحاله».

«لن تدعيه، ولكن إلى أين سينتهي هذا؟ تقابلنا في الطريق قبل قليل. عاكستُه. لم يرد رداً سيئاً. لو أنه ردّ رداً سيئاً، كان البلاء جاهزاً...»

قالت إراظجة: «احذر هاه! احذر من مجاراته! أنا سأطلع له! وإذا لم أستطع، عندها فكّر بنفسك..»

«بماذا أفكر بعد أن يقع ما يقع؟ يجب الذهاب منذ الآن، وتقديم الطلب للمختار! هذه هي الأصول على الأقل. وإذا لم يحدث شيئاً، فللمخفر، والقائمقام!..»

صرخت إراظجة: «لا تدخ! سيؤيدونه كلهم! ولماذا تذهب أنت؟ ليذهب هو! هو يقول إنه دفع نقوداً، واشترى. ونحن نقول: سنعوّقه، ولا ندعه يبني بيتاً. ليذهب هو، ويشتكِ علينا! ونحن أيضاً نعطيه جوابنا: لماذا لا يبيع هذا المختار العاري قدام بيت آخر، ويبيع قدام بيتنا؟. أليس لدينا عقل؟ إذا لم يذهب اليوم للشكاية، فغداً. سيناديك المختار. وأنت تقول: أنا لا أعرف. أمي تفعل هذا... وتخرج من هذا الأمر. وليطلبني إن أراد. وأنا حينئذ سأخرى في أفواههم جميعاً!..»

أحمد يجلس خلف جدته. يستمع إلى الحكي دون تفويت كلمة.

«هيا، خذ أحمد الآن، واذهب إلى خالتك سلطانجة، وانظر إليها! هل رأت الأفعى مرة أخرى؟ فكر بأمرها إذا كانت قد رأتها؟ أغلقت

الثقوب، ولكنها تخرج. إذا التقطتها وقتلتها، يجب قتل زوجها. الأفاعي لا تتجول دون زوج. إذا لم تقتل زوجها، تنتقم بذكاء. وهناك أفعى في الحقل يجب أن تموت. زوج الأفعى التي قتلها أحمد. انتبهوا إلى الأفاعي، إنها تحب أن تأتي من أكثر من جهة، لتجلب لنا البلاء. ولكن، انتبهوا دخيل عيونكما!..»

قال بيرم: «ننتبه يا أمي! هذا سهل. قتل الأفعى عمل من أسهل ما يكون. لا تحزني لهذا...»

أخذ ابنه، وذهب لرؤية خالته.

قلبُ إراظجة يخفق خفقاناً.

الكنة خدوج تكاد تموت من التعب.

- ٩ -

مصطفى التعبان

صعد الحارس مصطفى إلى سطح (باضجة) للمناداة. وضع يده على أذنه. تبدأ مناداة مصطفى: «يا جيرااااان!. » ويُسمع من أطراف القرية كلها. وينشر أمراً للمختار، أو قراراً للجنة، أو قانوناً جديداً، أو أمراً للقرية لا يخطر ببال. حينئذ يدعى شخصٌ عاقل من كل بيت إلى مقهى نوري بعد صلاة العشاء للاجتماع. وفي النهاية يختتم المناداة بعبارة: «لا تقولوا ما سمعنا! الحاضر يُعلم الغائب!.. »

أنهى مصطفى مناداته، وفكر بقرة بيرم. يطلبه المختار بشكل خاص. والآن سيراه عدا عن الجميع. ركبتاه ترتجفان من التعب. أليس لدى مصطفى عمل في القرية غير هذا؟.. بعد أن نظّف حصانُ المختار، تجوّل بين الزرع. وجمع عدداً من الدواب. كلها كانت مفلوتة على هواها. وقادها إلى القرية بصعوبة كبيرة من أجل أن يغلق عليها. ولحظة إدخاله لها إلى القرية، خرج أصحابها له، وأخذوها. وهؤلاء، بعضهم أعداء المختار، وبعضهم أعداء أعضاء اللجنة. لم يبق أمامه غير حمار من دون سرج: إنه حمار كريم أوغلو. أطلقه قائلاً: «أغلقت على تلك، ليبق هذا دون إغلاق عليه؟» واتجه نحو أسفل القرية. بعد ذلك، طلبه المختار مرة

أخرى. أرسله ماشياً إلى (غوغتشة ياقا). توجد ورقة من الناحية لمختار (غوغتشة ياقا). غير هذا، همس في أذن المختار بأن القائمقام سيخرج إلى القرى للتفتيش خلال يومين. مختار (غوغتشة ياقا) رجل ماكر، لا ينزل إلى الاجتماعات، ويضطجع قائلاً: أنا مريض!» وهكذا فعل هذه المرة أيضاً. وتقع الواقعة على رأس مصطفى. الذهاب والمجيء يستغرق أربع ساعات مشياً.

هل توجد مهنة أصعب من مهنة الحارس في الدنيا يا ترى؟ إن وُجدت فهي مهنة رعي العجول. ولكن الحراسة تتجاوزها بالصعوبة. هو يرى أن امتلاك خمسين دونماً في القرية تكفي الإنسان للتخلص من البؤس. في الخمسين دونماً، يوجد دونم أو دونمان مرويان. تحيطها بالكروم والأشجار. وتزرع نصف الباقية، وتريح نصفها الآخر. لِمَ لا تكفي مصطفى؟ يُقسّم ما يحصل عليه من موسم إلى نصفين، فيكفيه وزيادة إذا لم يبدده. يكون لدى الإنسان بقرة وثور. يكون لديه أربع غنمات، وعشر دجاجات وحمار. مهما يكن، تضع الغنمات خرافاً، وتلد الأتان، وتعشّر البقرات. إذا بعت كيسي فاصولياء أو قمح لدفع البلاء عنك، تخلّص قدمك من الماء. لن تعد تذلّ نفسك للمختار، وتحتمل تأنيب الأعضاء. ولا تتجول دون قميص على ظهرك، أو دون نعلٍ في قدمك...

ما أكثر الرجال المتجولين في القرية كالمخبولين؟ لا يحرثون، ولا يزرعون في الوقت المناسب، ويجعلون الأرض الجيدة بائسة. يقضون أيامهم ولياليهم في المقهى تاركين الثيران والحمير بين أيدي زوجاتهم. يناسبهم عدم إيجاد خبز يأكلونه. إذا كانت الدواب التي ترعاها النساء

- ٨ -
هكذا موت، وهكذا أيضاً موت

أكمل بيرم وزوجته الحمل الثاني. ضغط الأغصان الشوكية على السياج جيداً. الوقت تجاوز العصر. دخل الزوج والزوجة إلى القرية من الطريق السفلي. لم تنزل خدوج هذه المرة من العربة. بداية حاولت النزول، لم يدعها بيرم. قال: «اجلسي!» وجذبها من صدارتها: «اجلسي جيداً!..»

أحمد أيضاً معهما. حين أنهيا الحمل الأول، جلب زوادة الطعام، ولم يعد إلى البيت.

كان هاجلي هناك في أرضية البيت، يقيس عمق الأساس المحفور والمستخرج ترابه. من جهة أخرى، يأمر عماله قائلاً: «خذوا هذا!.. واحفروا هنا!» حين رأى بيرم وامرأته قادمين، خرج من الأساس. وضع يده على مؤخرته، وبدأ يذهب إلى الأمام، ويعود إلى الخلف.

بيرم غاضب من أمه. ابن الناس حفر الأساس، حتى إنه أنهاه. كان يقول لنفسه: «هل أنزل وأصطدم بهذا الرجل؟» أوقف العربة، وقال: «سلاااام!»

نظر هاجلي نظرة حنق، وقال: «عليكم السلام!» وكأنه يشتمه!

«أنهيت الأساس ما شاء الله يا هاجلي أفندي!»

قال هاجلي: «يُعدُّ قد انتهى» ثم أضاف: «بمعيتكم!»

قال بيرم: «يا هوووه، يا هاجلي أفندي! انظر إليّ يا أخي! بيت كم جار مثلي يوجد وسط قرة طاش؟ هل عددتها؟

تلفت هاجلي: «عشرون جاراً».

«إيه يا هاجلي أفندي، هل وجدت يا أخي أنني الغبي الوحيد الذي يُبنى بيت قدام بيته بين العشرين جاراً هؤلاء؟»

قال هاجلي: «يوجد قرار بيع للجنة. أنا أدفع للصندوق سبعمائة ليرة. أما أنك تظن أنها مجانية؟»

«إذا كنت تدفع نقوداً فلماذا لا تشتري في مكان أفضل؟ طبعاً وجدتني على مقياس أسنانك. طبعاً قلت: الآخرون يجبرونني، أما قرة بيرم فلا ينبس أبداً!..»

قال هاجلي: «لاااا!.. هناك خطأ! اللجنة أشارت إلى هذا المكان. لو أشارت إلى غيره لذهبت واشتريت هناك».

«يبدو أن اللجنة أيضاً فكرت مثلك. قالت: بيرم فقير لا ينبس، وإذا نبس نُخرسه. أصلاً مَنْ اللجنة التي تذكرها؟ كان رجالها مثلك، ويصفرون بصفارتك! وأنت واحد منهم..»

قال هاجلي: «انظر إلى بيرم! إذا كنت تجد أن حقك قد أُكل، فاذهب يا أخي، واشتك! إذهب إلى القائمقام، والمخفر، وإلى أي مكان تريد! لا تحاول معي، ولا ترسل أمك إليّ!.. لا تعمل معي سياسة الإنكليز!. إذا كنت تريد أن تواجهني بنية جدية، اسحب أمك من بيننا، وتعال أنت إلى مواجهتي! يوجد أغنية تقول: أنت تعال، أنت! مثلها!..»

قال بيرم: «سآتي. لا تستعجل! استمر بعملك حالياً! احفر أساسك. ونحن أيضاً سنفكر بشيء بالتأكيد، لا يمكن أن نتركك تعمل ما تريد! إذا كنت ستنتصب فوق رؤسنا لأنك صرت عضو لجنة مرة في العمر، فانتبه، ليس سهلاً إلى هذا الحد أن تعمل نفسك ديكاً علينا..»

سحب العربة إلى باحة البيت.

إراظجة على رأس الدرج مرة أخرى. إنهما على يمينها ويسارها. يجلسون. حين رأى الطفلان العربة تدخل إلى وسط القرية، بدأا يضربان أيديهما ببعضهما بعضاً..

فكّ الزوجُ والزوجةُ الثورَ والبقرةَ، وصعدا. أخذا البطة والمذراة. لم تتحرك إراظجة أبداً. ولم تتكلم.

ذهبت خدوج صامتة. جلبت الطست والإبريق. صبّت لبيرم ليغسل يديه ورجليه. وغسلت قدميها بيديها. مازالت العجوز لا تتكلم، ولا تتحرك.

جلس بيرم القرفصاء بجانب أمه، وقال: «ماذا حدث يا أمي؟ ماذا يوجد؟ بماذا تفكرين عميقاً هكذا؟»

قال إراظجة: «أنا جيدة يا قرم بيرم!.. ابنتك هذه لا تريد أن تدخل أبداً. تنظر دائماً إلى وسط القرية. تراقب عمال هاجلي الذين يحفرون الأساس. سيكون عثمان هذا معطلاً لك. منذ الصباح أقول: انظر ولاه عثمان، هاجلي المجنون يبني اسطبلاً قدام بيتكم، وسيلقي خراءه إلى باحة بيتكم، الحقه! ينظر، ويضحك!»

احتضن بيرم ابنه. قبله. حين احتضن الأب ابنه، بدأت البنت تتململ.

قالت إراظجة: «احتضن هذه، هذه أيضاً.. ستكون هذه غيور! إذا مددت يدك لهذا، مد الأخرى لها! ستكون غيور...»

نظرت خدوج، ودخلت. تعبتْ تماماً اليوم. المكان المدعو (بهشيش) بعيد. وقصٌّ الأغصان الشوكية، وتحميلها، عمل صعب. وإنزالها، وضغطها على السياج عمل أصعب. هي أيضاً ذهبت وجاءت مع بيرم. وانكبّت على العمل كبيرم. ولكن ماذا تفعل؟ أعمال القرية صعبة. يتعب الإنسان حتى المساء، ولكنه يرتاح حتى الصباح، يرتاح جيداً أو سيئاً..

قال بيرم: «ماذا فعلتِ مع هاجلي حتى المساء يا أمي؟»

قالت إراظجة: «ماذا أفعل؟ ذهبتُ وجئتُ. خوّفتُه. يقول: دفعت سبعمائة ليرة. يقول: عرضها المختار للبيع، فاشتريتها. وأنا خوفته جيداً. قلت: اقتلني ولاه! رميت نفسي قدامه، وقلتُ له: اقتلني، وادخل السجن، وليأخذ ابني زوجتك! قال: لا أقتلك! إذن، سأقتلك أنا، وأدخل السجن، وسيأخذ ابني زوجتك أيضاً! صار لونه كالرماد. ليس سهلاً: إما أن يموت أو يقتل! إذا مات فهو موت، وإذا قَتَلَ فهو موت أيضاً. لأن الحبس يشبه الموت في الدنيا يا بيرم! الحبس هو سحب يدك من الحياة. ومن يسحب يده من الحياة يعدّ ميتاً. وخاصة في القرية، إذا لم يأت الرجل مساء إلى بيته ويجلس، يجب ألا يثق بأن له بيتاً. هاجلي يعرف هذا. لهذا فإن لون جلده يغدو كالرماد. إذا قتلني، فهل يقول القانون إنها عجوز؟ جريمة الروح واحدة للجميع. من يقتلني ينام أيضاً ثلاثين سنة. ومن يقتل خدوج أيضاً! رغم هذه الحال فإن أجرة العامل كبيرة عندما يكون شاباً، أما العجوز فمن دون أجر!..»

بعد قليل، سُمع صوت الشيخ بيت الله غير المفهوم. منذ أربع وثلاثين سنة، يدخل من الباب نفسه، ويصعد إلى فسحة الدرج الحجري نفسها. ويتوجه نحو بلاد العرب، ويصرخ بهذه الكلمات غير المفهومة جاعلاً إياها على مقام واحد. في أكثر الأيام لا يُعرف أنه يصرخ. لأن صوته يخرج كصوت اسطوانة مهترئة يعود إلى خمسين أو ستين سنة في الماضي، مشوشاً، لا حياة فيه، يجد بيرم دافعاً للضحك حين يقرأ الشيخ بيت الله الأذان. ويضحك سراً. وخاصة عندما يدعو في الجامع!...

* * *

نادت إراظجة حفيدها: «أحمـ.........ـد!..»

قال أحمد فوراً: «هوووب!..»

«أتذهب إذا أرسلتك إلى مكان بعد قليل؟»

«هل سنذهب معاً يا جدتي؟..»

«إيه...»

«أذهب طبعاً».

نادت إراظجة هذه المرة خدوجاً: «يا كنة! جهزي مكاني هذين الصغيرين، ونيميهما يا ابنتي! أنت أيضاً ستأتين معنا!»

«هل يوجد شيء يا أمي؟ إلى أين سنذهب؟»

غضبت إراظجة فجأة. كانت هكذا من البارحة. ترتفع حرارتها فقط. قالت: «افعلي ما أقوله يا ابنتي؟ هل قالوا لك: إسألي إلى أين ستذهبين عند ذهابك؟»

نهضت خدوج، وفتحت مدات الخرق. ووضعت ولديها على جانبيها، وتمددت. حاولت تنييمهما مداعبةً رأسيهما ومؤخرتيهما.

قالت إراظجة: «عندما يكون هنالك حديث في مقهى نوري، تلعب بنات الجن وأولادها الكرة في الأزقة». ونهضت: «كان لدينا صحن انكشط طلاؤه (الشينكو)، هل رأيته يا كنة؟»

قالت خدوج: «وضعته تحت أصيص الزهر يا أمي. إنه قدام النافذة، انظري هناك!»

أنزلت إراظجة أصيص الزهر من قدام النافذة بهدوء، وسحبت الصحن الذي فقد طلاؤه.

«أحمد!.. خذ مجرفة الرماد من الموقد!..»

قال أحمد: «هذه؟..»

غضبت إراظجة من جديد: «هذه ولاه حمار، هذه!.. كم مجرفة رماد يوجد في البيت لتسأل: هذه؟»

لم ينبس أحمد.

«انهضي لنرَ يا كنة! إذا ناما فليناما، وإذا لم يناما، فليبكيا بعد أن نذهب. اذهبي أنت إلى الاسطبل، واخرجي المجرفة من هناك! لن تري في الظلام!. خذي ثقاباً!..»

«هل يوجد عمل يا أمي؟ لماذا لا تقولين؟»

«يوجد عمل يا كنة! سأقول لك ما هو؟ ستعلمين الآن!»

«علينا ألا نوقع بلاء على رأسنا؟»

«اصمتي ي ي!.. مازال عقلي في رأسي. أنا أحاول دفع البلاء الذي وقع على رأسنا، ألا ترين؟»

«ليس بلاء كهذا يا أمي!.. إنه الليل.. في هذا القفر.. وحدنا.. وفي ظلمة هذا الليل..»

«لا تخافي! لا أحد يستطيع عمل شيء! اذهبي، واجلبي المجرفة من الاسطبل».

نزلت خدوج متحسسة السلم بيديها وقدميها. فتحت باب الاسطبل متحسسة إياه بيدها. كان الاسطبل حاراً. أشعلت الثقاب. الثور فولاذ والبقرة والغنمات والحمار نائمة. يأتي ريح حار من ثقب روث الحيوانات. تناولت خدوج المجرفة من خلف الباب، وخرجت فوراً. أغلقت الباب، وأقفلت القفل.

أحمد وجدّتُهُ يتهامسان عند رأس الدرج.

تقول إراظجة لأحمد: «انزل أمامي، وامسكني من يدي، ولأنزل وراءك».

نادت خدوج: «دخيلك يا أحمد، قف أنت يا ابني! أنا أُنزل أمي!..»

قال إراظجة: «الحقي يا كنة. الحقي يا ابنتي! قف يا أحمد جدته هكذا... الله لا يبعث لك العمى يا بيرم! لم يغيّر خشب هذا السلم. إنه متماهل هذا الكلب».

أنزلت خدوج حماتها وهي خائفة. ونزل أحمد أيضاً حاملاً مجرفة الرماد والصحن المهترئ طلاؤه.

تقدمتها إراظجة، وقالت: «تعالا معي!»

خرجت من باب الحوش. وقبل ثلاث خطوات يبدأ أساس هاجلي.

قالت إراظجة: «الآخر، الآخر!.. الذي في الأمام..»

وصلوا إلى الأساس الذي في المقدمة.

«أنزلوني إلى داخل هذا!..»

أمسكت خدوج حماتها من ذراعيها، وأنزلتها.

قفا إلى الخلف قليلاً! منذ الصباح وبطني تقرقر. لأفرغها، وأرتاح».

ضحك أحمد مصدراً صوتاً خفيفاً.

قالت خدوج: «اللهم الهمني الصبر!» وانسحبت.

إراظجة تفرغ بطنها من جهة، وتراقب من جهة أخرى: «هل يجد زوجك المتماهل وقتاً لأعمال البيت بين كثرة نومه واستيقاظه يا خدوج؟ نبت الشعر على لساني لكثرة ما قلت له أن يعمل بيت خلاء. لا أستطيع النزول دائماً إلى الاسطبل في هذا العمر! أليس عيباً أن أضغط على نفسي يومين؟ أوووه! أفرغت نفسي براحة تامة!..»

«اضحك بهدوء يا شيطان! سيسمع من يمر».

قال أحمد: «لا تصوتي أنت! أصواتك هي التي تُسمع!..»

ضحك الجميع معاً.

قالت إراظجة: «خذاني، خذاني إلى الأعلى. بقدر ما يقلع أعينكم طعامي وشرابي، فإن خروجي أيضاً يقلع أعينكم! خذاني إلى الأعلى، أخرجاني! هاجلي الكافر حفر عميقاً. إذا عملت فيه خروجي سبع سنوات، فلن يمتلئ. أخرجاني بسرعة إلى الأعلى!..»

ساعداها، وأخرجاها.

«هيا يا أحمد. إذا كان عندك، فانزل يا عين جدتك!»

قال أحمد خجلاً، ومتضايقاً: «لا يوجد!»

«هيا يا كنة! هيا يا ابنتي! إذا كان عندك فلا تخجلي! كيفما كان يوجد ظلام. العين لا ترى أمامها. يقولون: الدببة لا ترى في الظلام!.. هكذا بالضبط! هيا يا امرأة ابنتي!..»

دواباً، فما ضرورة الرجال في هذه الدنيا؟ بيرم إراظجة مختلف. يخدم أرضه جيداً. اشترى قطعة بثلاثة آلاف من مزرعة نجيب بيك. وأنهى دينه. بعد ثلاث سنوات، هو أيضاً يصبح رجلاً. ولكن أرض المروية صغيرة: ثلاثة أرباع الدونم! تنهد. آه لو كان عنده ثلاثة أرباع الدونم أيضاً. حتى إن بيرم عنده عربة. وإذا اشترى عجلاً إلى جانب الثور! سيأخذ عندئذ ثلاثة أمثال من الأرض التي يشتغلها. إنه معجب بقرة بيرم. يخدم أرضه جيداً. يذهب إلى عمله، ويأتي منه. الحارس مصطفى يحب الرجل الذي يذهب إلى عمله، ويأتي منه.

«بيرم، واخ يا بيرم!..»

وجد (هاجلي) العضو الثاني في اللجنة مكانه قدام بيت بيرم، وسيبني بيتاً. سيبقى بيت الفقير في الخلف. هل ستبتلع هذا ولاه قرة بيرم!..

«قرة بيرم!»..

أليس موجوداً في البيت؟ يجب أن يمشي قليلاً، ويقترب إلى تحت الباب. عندما يتعب الرجل، تؤلمه ركبتاه.

«بيرم!»

خرجت زوجته إلى الباب: «تفضل يا عمي مصطفى!..»

زوجة بيرم جميلة. وهي حسنة العادات. يجب أن يكون زوج امرأة كهذه غنياً، أليس كذلك؟ لا ترد على زوجة الرجل الفقير! الجمال والبشاعة هراء. ما تدعوه امرأة، تكون جميلة إذا أكلت جيداً، وشربت جيداً! ها هي زوجة بيرم قد امتلأت قليلاً بعد أن أنهى الدين. آه من الفقر!.. انظر كيف اختلفت المرأة خلال ثلاثة أيام!..

«بيرم غير موجود في البيت يا خدوج؟»

«ذهب إلى بيت الخالة يا عمي مصطفى».

«عندما يأتي، قولي له: اذهب إلى مقهى نوري. المختار يطلبه. لا تنسي. الأمر هام جداً».

«سأقول له يا عمي مصطفى».

خدوج ابنة «عائشة ألانلي»!.. تدوّر وجهها. وجه النساء يضحك عندما يكون أزواجهن أزواجاً. وإذا لم يكن زوج المرأة زوجاً، فلا فائدة حتى لو أكلت البقلاوة بالعسل! بقلاوة بالعسل!. أغنية: «تأتي البقلاوة بالصينية!».. أين هي؟ انتظر، تأتي! آه لو أتى بائع تين! خلال عشرة أيام، إذا رعى خمساً وعشرين دابة، وأخذ عن كل دابة بيضتين.. وباع البيض بستة قروش للواحدة!.. خمسون بيضة، بسعر ستة قروش.. قف الآن.. التين بليرة ونصف.. قف الآن!.. لو استطاع الرجل أن يأكل تيناً في هذه الدنيا إلى أن يشبع.. إذا استطاع أكل اللحم.. إذا استطاع النوم.. إذا استطاع أن يرتاح.. قف الآن!.. آه..

- ١٠ -

دون أن يُرى أحد

قالت خدوج لزوجها: «اخلع عنك هذا القميص القذر، والبس النظيف!.. واغسل يديك ووجهك!..»

قالت إراظجة: «اعمل هذا.. ستخرج وسط الناس! حين ينظرون إليك من وراء أو قدام فلا يرون قذراً بسماكة إصبع عند أذنك!..»

خلع بيرم الذي يلبسه، ووجدت خدوج قميصاً نظيفاً مرقوعاً في مكان منه. وبينما كان بيرم يخلع ثيابه، قال لنفسه: «طالما نغيّر، يجب تغيير الداخلية!»

قالت: «صبوا قدر ماء بعد أن تجلبوا أخشاب السلم! فاحت رائحتكم بوضوح!» والتفتت إلى بيرم: «حينئذ ستغيّر الداخلية أيضاً يا ابني. هل فهمت؟»

جلبت خدوج إبريقَ ماء، وطستاً صغيراً، ووضعته أمام الباب. رفعت طرف المدّة. قالت: «تعال فوراً يا بيرم!»

جلس بيرم القرفصاء عند الطست. يداه مخموشتان خطوطاً خطوطاً من الأغصان الشوكية. تصلّب جلد يديه كالصخر. فرك يديه بالماء الفاتر كثيراً دون صابون. غسل وجهه وعينيه، وداخل أذنيه، ورقبته. وجففها.

قالت إراظجة: «إذا فتح المختار موضوع أرضية بيت هاجلي، فلا تجب من نفسك. قل له ما قلته. قل له: أمي تتصدى لهذا الأمر. وإذا سألك: ومن أنت؟ لماذا لا تتدخل أنت في الموضوع؟ قل له: إنها أمي. وهي اليوم كبيرتنا. بوجودها أنا لا أتدخل! لا تفتح مجالاً لأحد..»

قاطعتها خدوج قائلة: «لنر ما إذا كان يطلبك لهذا. نادى المنادي الجيران جملة. لعله يوجد حديث آخر!»

قال بيرم: «ممكن. ذهب المختار إلى الناحية ياه! لعل قانوناً جديداً قد صدر! من يعلم؟»

قالت إراظجة: «مهما يكن، تذهب، وتحضر. تجلس، وتستمع. وتأخذ العظة التي يجب أن تؤخذ. إذا اضطررت للكلام، فتجيب كما قلت لك. هيا اذهب الآن!..»

قال بيرم: «لا ضرورة للعجلة. الحديث يبدأ بعد صلاة العشاء. لم يُرفع الأذان بعد...»

«ليكن! تجلس، وتشرب شاياً حتى يقرر الناس ما إذا كانوا سيجتمعون أم لا. تحجز لنفسك مكاناً..»

نهض بيرم ببطء. وضع قبعته على رأسه، وخرج. كان طومان الصغير على رأس الدرج. لمسه برأس قدمه، وجعله ينبح.

قالت إراظجة: «التوبة يا ربي!.. اعتاد الولد على هذا!.. لابد أن يجعله ينبح وهو داخل، وهو خارج».

مشى بيرم وهو يطأ على التراب الجديد الخارج من أساس هاجلي، وهو متجه إلى المقهى الذي عند أول القرية من الجهة السفلية. يوجد ظلام لا يمكّن من الرؤية على بعد ثلاثة أمتار إلى الأمام. لا تظهر للعين غير بعض أضواء البيوت المفردة، وضوء مقهى نوري.

ابتعدت خدوج عدة خطوات، وجلست القرفصاء.

قالت إراظجة: «لا تستعجلي يا امرأة، يا خدوجي!»

تبولت خدوج، وخرجت.

قالت إراظجة: «لم يمتلئ، أليس كذلك؟»

ضحكت خدوج: «لم يمتلئ يا أمي!..»

«ولاه أحمد!.. واأسفي عليك!.. لم تضغط على نفسك ولو قليلاً!..»

قال أحمد: «أنا سأتبول دون أن أنزل إلى الأسفل!..»

قالت إراظجة: «أحسنت! تبول دون أن تنزل! يكفي أن تتبول. هيا بسرعة!..»

وقف أحمد عند حافة حفرة الأساس، وتبول.

قالت إراظجة: «هل امتلأ؟»

ضحك أحمد.

«ألم يمتلئ؟»

«وهل تمتلئ حفرة كهذه بقليل من هذا؟»

قالت إراظجة: «سيمتلئ هذا الليلة، هل سمعتماني؟»

قالت خدوج: «يا أمي، أنا أفهم قصدك. إذا كنا سنملأه، فلنبدأ في أقرب وقت ممكن. علينا ألا نمضي الوقت. هات أحمد تلك المجرفة! وخذ أنت مجرفة الرماد. واعط الصحن المهترئ طلاؤه لجدتك!. أليس كذلك يا أمي؟..»

قالت إراظجة: «تعال يا حمار!.. كم اعتدتِ على عاداتي أنتِ؟ عندما أراك هكذا، أحبك أكثر من ابني. ليأتوا، ويروا الكنة! واه يا كنتي الوحيدة، واه يا عزيزتي، واه يا وردتي الصفراء!.. ليروا الكنة!...»

لم تصدر خدوج صوتاً. قالت في داخلها: «ليروا!.. وليروا الحماة أيضاً! ما هذا الذي أعاني منه ليلاً؟ اتعبي من الصباح حتى المساء في الحقل، واتعبي هنا من المساء حتى الصباح. كأن هاجلي المجنون لن يحفره مرة أخرى. إننا نتسابق بالتبول دون جدوى!..»

قالت إراظجة: «ابدأا، واسرعا!. هيا يا أحمد، هذا ليس قتل أفعى عمياء، وتباه بهذا!. ها هو التراب. أرنا نفسك هنا!»

أحمد يجد أن ما تلقيه المجرفة لا يكفي، فيهيل التراب إلى الحفرة بيديه ورجليه. فور قول جدته: «أفعى عمياء!» نهض، وقال: «أية عمياء؟ كان لها عينان كل واحدة بقدّ حبة الحمص..»

صرخت إراظجة: «اعمل. لا يمكن أن تكون لأفعى بطول خطوة عين كالحمص! اعمل، ولا تتكلم!»

فكر أحمد كيف يعمل أفضل من هذا. إذا استمر بهذه السرعة، فسيملؤون أساس هاجلي بسرعة. «ما حفره رجلان أو ثلاثة من الصباح حتى المساء، نملؤه نحن بسرعة! وجدتي تقول: لا يمكن أن يكون للأفعى عين بقد حبة الحمص. كان فمها كبيراً. ولكن، كم كانت وساعة عينها حقيقة؟» إذا لبس جزمته، سيسير وسط الطين في الشتاء. وهو سيذهب دائماً لسقاية الدواب. وستتدلى سلسلة الموسى ذات المقبض العظمي من الأمام. بعد ذلك، لتهرب البنات منه لنرَ! إذا أمسكهن من شعرهن، سيشمهن. إنه يريد من تلك الفتيات اللواتي شعرهن كشعر أمه...

قالت إراظجة: «يا هاجلي السافل.. يا مجنون وسافل! قالوا: لا تستهن بخصمك حتى لو كان نملة! أنت لم تعتبرنا بشراً. شاهد أساسك غداً، لتصحو، يا كافر دون عقل!..»

- ١١ -
على الرحب والسعة

فور جلب صاحب المقهى نوري «الشاي التي سكرها بجانبها» نقل مختار قرة طاش سبحته من يده اليمنى إلى اليسرى، وقال لنفسه: «أعمال ابن المدينة تجري في نصابها، لابد أنه يفكر بشيء عندما يرفع أسعار الأغراض. ها هو الآن يصغّر كؤوس الشاي!..»

قال نوري: «يسمونها عش البلبل يا آغا. المغرمون بالشاي يشربونها بكؤوس صغيرة. هذه هي الأصول!»

قال المختار: «رح ولاه! أبصق في عش بلبل كهذا. انظر إلى هذه! تفوووه! وهل هذا عمل؟»

جلس العضو الأول في لجنة القرية إبراهيم على يساره، وقال: «الزمن تغيّر، الزمن! ونحن سنتماشى مع الزمن. قيل: طاعة أولي الأمر! لابد من حكمة في هذه العبارة. الأوامر الآن تأتي من المدينة دائماً. وأنت ستتماشى مع المدينة! هل قالوا: اشربوا بكؤوس صغيرة؟ ستشرب. إذا قالوا: لن تشرب أبداً، ستوافق. لن تشرب أبداً!..»

التفت المختار، ونظر إلى هاجلي. هاجلي شارد. أطرق رأسه، يفكر. عيناه شاردتان. ترك المختار كأسه، ووضع ذراعيه في حضنه. هزّ رأسه

الذي يُذكر برأس الذئب إلى الأمام والخلف، وصرخ قائلاً: «نعم يا جيران!.. استمعوا إليّ الآن لنرَ! ليترك اللاعبون اللعب! حسنٌ؟ صديقنا المحترم ابراهيم العضو الأول في اللجنة يقول: طاعة أولي الأمر! ماذا تقولون أنتم؟»

ضجوا قائلين: «على الرحب والسعة!»

أقليل ما استمعوا نصائح كهذه من الشيخ بيت الله؟ كأنها غاصت إلى نقي عظامهم، وامتزجت مع دمهم. ولأن البعض لا يعرفون ما سيطلب المختار طاعتهم فيه، لم يشارك بضجة: «على الرحب والسعة!»

تابع المختار: «يا جيران!. تعرفون ما يجري. جمع السيد قائمقامنا المختارين. قال: يا أخوتي المختارين! القضية كذا وكذا!.. والآن أمامنا جنازة كبيرة. وكما تعرفون، فإن الجنازة لا ترفعها إلا الجماعة. والآن سنرفع جميعاً هذه الجنازة. هكذا قال. ونحن قلنا: على الرحب والسعة يا سيدنا، كما تأمرون!.. هل جيد ما قلناه يا أصدقاء؟ طبعاً ما قلناه جيد. لا يمكن قول غير هذا وسط الناس! هنالك مختار وسبع وأربعون قرية. ستتحدث بحديث الناس. خاصة أن الديمقراطيين موجودون الآن! انتبهوا، (طيين) وليسوا (طيون) وهناك فرق كما هو معلوم. الهدف من الديمقراطية أن يكون المرء حيث يكون الجميع. الآن إذا بدأت عملاً، فيقولون لك: الغالبية!.. إذا فرضت الغالبية: على الرحب والسعة!.. فيا ويل من يقول: لا!.. حاله خراب. مفهوم يا أصدقاء!.. بعد الآن لا يوجد معارضة وما معارضة! مُنِعَ قول: لا!.. لنتابع يا أصدقاء!.. ماذا كنت أقول؟ أتعرفون ما قاله سيدنا القائمقام عندما جمعنا؟ قال: أخوتي المختارين!.. قال: هذه الجنازة مهمة. وأصلاً، كل شيء للحكومة مهم.

ولكن هذه أكثر أهمية. ألفت انتباهكم، فاستمعوا جيداً!.. جمعنا السيد المحافظ في المحافظة كما جمعتكم أنا هنا!.. يا أصدقاء، باختصار، قرروا في ذلك الاجتماع نصب تمثال ضخم وسط السوق الذي في المدينة. لهذا، انتقلوا إلى قضية التمويل. الجنازة هي أمر هذا التمثال. سيكون شيئاً كبيراً بحسب ما تواتر لنا. أما عن سببه، فمنذ عشر سنوات، زادت الحكومة أحكام السجن والإعدام. ومنذ عشر سنوات حتى الآن، انعدمت جرائم القتل، والاغتصاب، وسلب البيوت، وفج الرؤوس. وفي الحقيقة، زالت. حتى الإذاعة تقول هذا. لم تبق هناك قطيعة بين الناس. الأمة متصالحة. لم يبق خوف. في الحقيقة يا أصدقاء، لم يعد اليوم هناك أحد يخاف من أحد. لم تعد الزوجات يخفن من أزواجهن، والأولاد من آبائهم، وأحد من أحد! ولأننا نعيش في حرية عظيمة، قرروا نصب تمثال مرتفع جداً، وضخم جداً وسط سوق المحافظة. ما أجمل هذه الفكرة؟ أليس كذلك يا أصدقاء؟ سيُنصب تمثال من أجل السلام والأمن والحرية! قال القائمقامات للمحافظ: على الرحب والسعة! وطبعاً، نحن أيضاً قلنا للقائمقام: على الرحب والسعة!.. لأنه توجد ديمقراطية، فالاعتراض غير ممكن. الاعتراض تخريب. أي أنه الجواب الشهير: تذهب العجلة الخلفية حيث تذهب الأمامية. ونحن مضطرون للذهاب حيث يشير القائمقام. لا تذهب إن أردت. سيأخذونك بالقوة. والآن يا أصدقاء، ما جوابكم على كلامي هذا؟ هل هو: لا!... أم على الرحب والسعة!؟» انطلق صوت كالمدفع من المقهى «على الرحب والسعة».

قال المختار: «أحسنتم يا جيران! قوة في مواجهة الخارج، ووحدة في مواجهة الداخل! طالما الأمر هكذا، لن تُهزم قرية قرة طاش أبداً يا

أصدقاء حتى لو هُزم المصارع البهلوان عمر في كل نزال. وبإذن الله لا تُهزم الأمة أبداً!.. وهذا سيكون طبعاً طالما لا نتوانى عن قول: على الرحب والسعة، وطالما أطعنا أولي الأمر!.. والآن يا أصدقاء، يوجد من يعلم، ومن لا يعلم، من رأى، ومن لم ير. ما هذا الذي يدعى تمثالاً؟ لأشرح لكم هذا قليلاً. ما يسمونه تمثالاً هو حجر أو برونز. يعرف الذين رأوا قونية في العسكرية. ولابد أن الذين أخذوا قطعان ماشية حتى إزمير أنهم رأوه. في قونية حجر ضخم. ويوجد رجل يرتدي معطفاً فوق الحجر. يحمل شعيراً بيد، وسيفاً بالأخرى. وفي إزمير حجر ضخم. وفوق الحجر حصان كبير. الحصان يثب إلى الأعلى، وفوقه رجل من البرونز. وبحسب القائلين، وعلى رقبتهم، فإن هؤلاء الرجال البرونزيين يشبهون حضرة الباشا الغازي. سيكون الذي لنا مختلفاً!.. امرأة مدنية، ورجل قروي، وحارس ليلي، وعامل مقطع حجارة، وممرضة مشفى، وخياط أحذية، وتلميذ مدرسة، ومرضعة، وديك، وأشياء كثيرة تتقارب الواحدة من الأخرى.. يقول الرجل القروي للمرأة المدنية: لا تخافي! أنا لا آكل رجلاً، الرجل لا يأكل رجلاً! يقول الحارس الليلي لعامل مقطع الحجارة: أنت حر، اعمل إن أردت أو لا تعمل!.. يقول خياط الأحذية لتلميذ المدرسة: ادرس إن أردت أو لا تدرس. إذا لم تعينك الدولة كاتباً في إحدى دوائرها، تغدو إجيراً لدي. الديك الذي يقف في الأعلى، يصيح في الصباح دون انقطاع: أصبح الصباح، وها أنا أصيح، وعليّ أن أصيح، استيقظوا إن أردتم أو لا تستيقظوا!.... أي أن الأمر مفهوم، أليس كذلك يا أصدقاء؟ كل شيء بحرّية. لا يوجد لدى أحد من هؤلاء مسدس، بارودة، سكين عريض، خنجر، قنبلة يدوية. لأن هذا العمل عمل

الحكومة. كلامي بعيد من هنا، إذا جاء رجل إلى وسط القرية، وتبرز، وملأ المكان، فلن تعمل شيئاً. لأن هذا ممنوع! ستقولون: هل يمشي هذا الأمر؟ هل تتعقل الأمة بتمثال أو ما شابه؟.. أنا لا أعرف هذا!.. أنا شهدتُ أربع مراحل. وهذه الخامسة. يأتي أحدهم، ويقول كذا وكذا. قوال ابن قوال. واليوم يقولون تمثالاً. أنتم اسمعوا ما يُقال اليوم. يُطلب منا اليوم نقود كثيرة من أجل التمثال. ولأن حجر التمثال كبير جداً، ستذهب نفقات كثيرة. سيجلبون نحاتاً من إيطاليا أو اليونان. قال المحافظ للقائمقام: أريدك أن تُوجد كذا ألف! والقائمقام يريد مني إيجاد ألف وستمائة ليرة. قريتنا ثمانون بيتاً يا أصدقاء. إذا قسمنا المبلغ على الجميع بحساب موحّد، يقع على البيت الواحد عشرون ليرة. وطبعاً هناك من يمكنه دفع هذا، ومن لا يمكنه. يقول القائمقام: يُؤمن نصف المبلغ من صندوق القرية، ونصفه من القرويين. ذلك السافل يجلس هناك، ولا يعرف أن يقول إلا: تأمين!.. لا يوجد في صندوقنا خمسة قروش تُدفع للتمثال يا أصدقاء! لم نضع في الموازنة نقوداً، لهذا لا توجد نقود. لا يقوى أي بيت على سدّ هذه النفقات. هذه قرية كبيرة، فهل تبقى نقود في موازنتها؟ المهم، لنغلق هذا الأمر. ما هو جوابكم على هذا الأمر؟ قولوا!.. استعجلوا، أنا أنتظركم!..»

مسح المختار عرق جبينه بسبابة يده اليمنى: «هيا أنا أنتظر يا أصدقاء! هيا يا خال عبد الله، ويا محمد الرأس الحجري، وحسين البقال، ويا خليل المهزلة، وحسن الملاك، ويا آغالي، ويا منجل... تكلموا!..»

التفت إلى الأعضاء: «أنتم أيضاً فكروا!.. فكر يا اسماعيل التيوس، ويا علي عزت، ماذا نفعل؟..»

لا صوتاً أو نبساً يصدر عن أحد. عندما دخل حديث النقود، ابتلع ألسنتهم الذين قالوا قبل قليل: «على الرحب والسعة!». قرة بيرم لا يريد أن يتكلم أصلاً، ولكنه ألقى نظرة إلى الأغنياء!.. لا أحد منهم يتحرك. بدأ يفكر بجواب لسؤال المختار. قال لنفسه: «ما فائدتي من تمثال ينصب وسط السوق؟ أنا أعرف البيت الذي سيبنيه هاجلي المجنون قدام بيتي! أنا أفكر بالبلية التي طبها على رأسي هذا السافل!..»

تدخل المختار: «هل ارتبطت ألسنتكم ولاه؟ هيا لنرَ يا حسن الملاك!..»

قال حسن الملاك منوصاً بصوته وهو على كرسيه: «والله يا مختار، كيف أعرف أنا؟ الجيران يعرفون أفضل. اسألهم. أنا أوافق على ما يقوله الجيران، حسناً كان أو سيئاً...»

قال المختار: «دع الجيران الآن! ستوافق أصلا! وكلنا سنوافق. وإجباري. قل جوابك!..»

«جوابي... إذا كان الأمر لي...»

«نعم، إذا كان الأمر لك؟.. احكِ، احكِ!.. هناك حبة فول تحت لسانك، بقها!..»

«عشرون ليرة على البيت كثيرة!..»

«ماذا قلت، ماذا قلت، ماذا قلت؟..»

«عشرون ليرة على البيت كثيرة!..»

«ماذا تقولون يا جيران؟»

«كثيرة، كثيرة، كثيـ.... ـرة!..»

عندما هدأت الأصوات القائلة: «كثيرة، كثيرة!.» استلم الحديث

الخال عبد الله الشفة المشرومة قائلاً: «يجب تخفيض هذه النقود!. ألا يوجد طريق لهذا؟..»

قال المختار: «والله، شرحت لكم أن المحافظ جمع القائمقامات، وقسّم عليهم المبلغ، والقائمقامات جمعوا المختارين، وعملوا لهم تقسيماً آخر. واستمعتم جيداً. لا تجعلوني أكرر الكلمات نفسها! نوابكم لا يتكلمون من أجلكم كل هذا! نحن سندفع هذه النقود، ضعوا هذا في عقولكم جيداً. لا يوجد تخفيض. صدر الأمر من المحافظة. الكلام لا يفيد. لو كان الأمر من المخفر، غير مهم!..»

سأل آغالي: «لو نصبوا الحجر صغيراً قليلاً، ألا يمكن؟»

قال المختار: «عقلنا لن يعمل في هذا الموضوع! لأن السيد المحافظ يقول: إذا نظرتم إليه، يجب أن يُرى من أنقرة».

«هل القرويون فقط سيدفعون نقود التمثال يا ترى، هل عرفت هذا جيداً جداً؟..»

«المدنيون والقرويون جميعاً. وحتى الآمرون والمأمورون. سيدفع المأمورون راتب شهر. وفرض على الكسبة مبلغ من المال أيضاً. وكل بحسب وضعه طبعاً. والأكثرهم الأغنياء وأصحاب المصانع.. سيدفع أهل المحافظة كلهم. إجباري!..»

صرخ المختار: «أحسنت يا آغالي. فهمت جيداً، وعبرت جيداً أيضاً. ولكن، قل لنا ما سنفعله. من أين سنأتي بهذه النقود؟ أنا أقول: لنقسّم القرويين إلى أربعة أقسام: خمس عشرة، وعشرون، وخمس وعشرون، وثلاثون.. وبحسب هذا نوزع مخصصات الدفع. قسم من الجيران يدفع خمس عشرة، والجيران الذين يأتون في المقدمة يدفعون ثلاثين. الباقون يدفعون بحسب وضعهم».

صرخ بضعة أشخاص: «لا يا عزيزي، لا يا عزيزي! ليس خمس عشرة، لو فرضت عليهم عشر ليرات فقط، ليس لديهم! ألا تعرف هذه الأيام كيف هي؟ لو بقي الأمر للخريف، يمكن أن نجد حلاً. ولكنك إذا فرضت الآن، فهذا غير ممكن يا مختار!..»

صرخ الآخرون: «نعم، هكذا، نعم!..»

قال المختار: «لا إذن لدينا للتأجيل إلى الخريف يا جيران! القائمقام السيد أورهان يريد النقود فوراً! لا توجد مساعدة أمريكية لقرية قرة طاش هذه نأخذ منها، ونسدّد. أنا أيضاً تلخبطت، ولا أعرف ماذا أفعل. ستؤمن هذه النقود خلال أسبوع، وندفعها، ليس لدينا مجال آخر يا جيران!..»

قال آغالي للمختار: «عليك ذنب في هذا الأمر أيضاً. لماذا لم تعترض؟ لماذا لم تقل: هذه النقود كثيرة علينا. لم تقل: لا يوجد قرش بين أيدي الناس في هذه الأيام! ولا يمكن أن يكون عند القرويين نقود في أي وقت، وإذا وجدت، وأعطيته إياها، فهو يبددها على التبغ!.. أقلها، لو أنك قلت: ندفع في الخريف!.. الآن شح الكثير، ونفد الشحيح لدى القروي، فهل يبقى لديه نقود؟»

قال المختار: «لا تحكِ ما تعرفه وما لا تعرفه! لا يمكن الاعتراض على هذا هناك. ماذا قلت حين بدأت الحديث؟ قلت: ستكون حيث تكون الأمة!.. قلت: توجد أغلبية!.. قلت: توجد ديمقراطية. قلت، وقلت. بعد أن تقول الأمة: على الرحب والسعة، هل يفيد الاعتراض؟ هل تفهم الحكومة بعدم وجود نقود لديك؟ تقول الحكومة: الآن معك نقود! حسنٌ إذن. لا اعتراض. معك نقود! لولا أن النقود معك، فهل تَطْلُبُ منك

نقوداً للتمثال؟ من ناحية ثانية، انظروا يا هووووه! ألا يشتغل العقل الذي عندك أبداً؟ فكر قليلاً! لولا أن أمر التمثال هذا يلزم الحكومة، فهل تضايق قرويّها حيث يقيم؟ يمكن أن يكون مظهراً أمام الدول الأجنبية. هذا عمل سياسي! ممكن أن يكون معنى عميق وراءه..»

لم يستطع التوقف آغالي: «دع هذا يا هووووه! أيمكن حدوث شيء دون اعتراض أبداً؟ الجميع قالوا: على الرحب والسعة، وأنت وافقتهم. قلت لنفسك: سأبقى وحدي إذا اعترضت. وكل شخص فكر هكذا! إلى أين سينتهي هذا الأمر؟ تقول إن الأمر سياسة، ولكن لا سياسة ولا غيرها! عبارة عن تمثال صمّ! ما فائدة التمثال للحكومة والأمة؟ ما فائدته للحي والميت؟ ألا يعترض الإنسان على هذا؟»

قال المختار: «لا يعترض! لأن أحداً لا يعترض. إذا خرجت واعترضت، ستبقى نابياً في الوسط. هناك يوجد قائمقام، ورئيس شعبة، ومدعٍ عام، ومختار وسبع وأربعون قرية...»

«لو أنكم اعترضتم جميعاً! كلامي غير موجه لك فقط!..»

«يا عزيزي آغالي! لا تحك بالمستحيل يا صديقي! أين تجد أمة كهذه؟ هل تشكل الغربان موكباً؟ أناسنا كالغربان تماماً. صرخ الجميع أمام القائمقام: على الرحب والسعة!.. وعندما خرجنا، ماذا رأينا؟ ألم يبدأ الجميع بالتذمر؟ أنا أغضب من هذا!.. إيه ولاه حمار ابن حمار - بعيد من هنا - حيوان ابن حيوان، التذمر في الداخل عند القائمقام! أي كما قلت أنت!. ولكن أين تلك الأمة، كما قلت أنا؟..»

صمت آغالي. قال في داخله: «أين تلك الأمة؟ ألست من هذه الأمة يا قواد ابن القواد؟ لماذا لم تعترض أنت؟ لو أنك بدأت بالاعتراض، لعل

الآخرين يتبعونك. لن يقطعوا رقبة المعترض ياه!..» صمت، ثم تكلم من جديد: «كما قلت، سيأخذون هذه النقود منا طالما أنه لم يُعترض، وطالما أن المدني سيدفع! سيأخذونها يا أخي! لنفكر بحل إذن، ولنزح هذا الأمر عن رؤوسنا!..»

قال المختار مرة أخرى: «أحسنت يا آغالي!.. احك هذا، لا فائدة من الاعتراض! احك هذا، وفهم الجيران!» بعد ذلك، سأل: «كيف ترى الحل الذي علينا أن نُفكّر فيه؟»

قال آغالي: «إما يوجد بيننا عشرة أشخاص يمكنهم دفع هذه النقود الآن فوراً، أو لا يوجد. لهذا، يجب أن نفكر بحلٍّ يأتينا بنقود سريعاً!..»

تمتم المختار قائلاً: «نقود سريعة!..»

قال خليل المهزلة: «لنخرج لقطع الطرق في قرى نواحي بورضور مثلاً! أو في أطراف (دنيزلي) لنشلّح الأغنياء القدماء والجدد كلهم! ولنجمع كل ما نأخذه. ولنأخذ منها نقود الحجر، ونتقاسم الباقي. ولنشتر بدلاً نظيفاً للأولاد، وأحذية، وما شابه... لا أدري ما تقولونه بهذا الرأي؟..»

اضطرب المختار، وقال: «لا تجرنا إلى المزاح يا خليل المهزلة! وهل هذا وقت مزاح؟ احك كلاماً يدخل العقل، لنأخذ منه مثلاً!..»

قال خليل المهزلة: «والله لا يوجد في هذا الأمر جانب يدخل العقل. إذا كان هناك حل، قله لنا، ولنعلم به بفضلك!..»

قال المختار: «لنبع أرضاً من المرعى!..»

عندما سمع علي عزت كلمة مرعى، قفز وكأنه ناهض من كابوس،

وقدم اعتراضه: «وهل بقي مرعى لكثرة البيع؟ وكأن هذا لا يكفي من جهة، فإن بعض الجيران المفتحين ينهبون من هذا الطرف، ومن ذاك، ويحولونها إلى حقول! لم يبق مكان نرى فيه خروفاً يا مختار! عن أي مكان تتكلم يا صديقي؟ ألا يوجد في قلبك وجدان، دين، إيمان أبداً؟..»

«طالما الأمر هكذا، فلنبع من الحرش!..»

توحدت الاعتراضات: «مستحيل، مستحيل!..»

صرخ المختار: «هذا مستحيل، وذاك مستحيل، ماذا سنفعل إذن؟ ها، اسمعوا، نحن وجدنا حلاً لهذا يا أصدقاء!.. قبل أيام فكرنا، وقلنا: إذا وقع بلاء للقرية، فليس لدينا قرش. لنبع أرضية بيت بقدر ثلاث خطوات وسط القرية، وليكن ثمنها تحت يدنا!.. وبعنا!.. واشتراها هاجلي من لجنتنا. لنقل إننا بعنا هذه الأرضية من أجل التمثال...»

«مستحيل، مستحيل!..»

الذين قالوا «مستحيل» هم أصحاب البيوت وسط القرية.

قال آغالي: «لا علم لأحد منا بالأرضية التي اشتراها هاجلي. فعلتَ هذا دون أخذ رأي الجيران!»

قال: «لا يُؤخذ رأي الجيران بكل عمل. ماذا سيحدث إذا أخذت رأيهم؟ بعضهم سيقبل، وبعضهم لن يقبل. حللنا الأمر عن طريق مختصر، أفضل من إطالته. منذ أربعة أشهر لم ندفع راتب الكاتب. وأنا أيضاً لم أقبض. والإمام لم يقبض. والزراعة تطالب بنقود الثيران. وجاءت قضية التمثال هذه لتقع على رؤوسنا. وهل لدينا مطبعة نطبع فيها العملة في قرة طاش؟ سنبيع أرضية وسط القرية بالتأكيد! من لديه اعتراض، يذهب إلى السيد قائمقامنا، ويشتكي! هذا كل شيء!..»

لا كلام أبداً. يصمتون.

قال المختار: «اللجنة وجدت حلاً لهذا يا أصدقاء. لنغلق هذا الفصل!.. لنأتِ إلى الفصل الثاني!..»

قال بيرم لنفسه: «الدور الآن دورنا». ارتجف.

«سنأتي إلى الفصل الثاني يا أصدقاء. بعد عشرة أيام سيأتي القائمقام إلى قريتنا. سيفتش الناس من جهة، ويبحث أمر التمثال من جهة أخرى. قال لي: جهز النقود عند ذهابي!. لنقل إن اللجنة فكرت بفصل النقود، لدينا مجيء القائمقام. هكذا ياه! سيأتي هذا الرجل، سينزل، ويُستضاف، أليس من الضروري اتخاذ الاحتياطات؟ لا يمكن استقبال قائمقام كبير بمدائح لله والرسول، وتوديعه بها!.. القائمقام لا يأكل خبزاً فقط، مثلنا، ولا يجلس في مكان صلب، ولا يضطجع على فراش مبوّل عليه! سنلتزم بما يقتضيه استقبال القائمقام، إجباري!..»

قال خمسة أو أعشرة أشخاص: «حسنٌ ياه، إذا كان هكذا، فلتفكر اللجنة بهذا أيضاً».

قال المختار: «حسنٌ، لتفكر اللجنة. حسنٌ يا جيران! إذا كان الأمر هكذا، فكل شيء على ما يرام. يمكن للجميع أن يذهبوا إلى بيوتهم، ويناموا. يمكن لمن عنده عمل هذا المساء أن يعمله. نسيت أن أقول شيئاً، لأقله أيضاً: ليكنس كل شخص غداً منذ الصباح الباكر قدام بيته، وباحته، وزقاقه. سيدنا القائمقام شديد العناية. سيكون شيئاً إذا لفتت قذارة القرية نظره. لا أحد يقول: ما سمعت!. الحاضر يعلم الغائب. اضربوا رؤوس زوجاتكم ليكنسن. يمكن أن يكتب مخالفة أو تقرير. علينا ألا نسمع كلاماً حيث نقف. أنا أخاف من الكلام كثيراً.. مفهوم

يا جيران؟. سأرى كل طرف نظيفاً في الصباح الباكر!.. هيا لنرى، أنتم أحرار الآن..»

تحرك الناس عن كراسيهم، وبدؤوا بالخروج.

قال المختار: «يا حارس! تعال إلى هنا يا سبعي!..»

كان مصطفى منتصباً عند الباب. ركض فوراً. وقف أمام المختار وقفة عسكرية. كان يقول له المختار: «وقف باحترام وسط الناس، وافعل ما يحلو لك في أمكنة أخرى!.» وهكذا يفعل وسط الزحام. يلملم نفسه ويركض. ولابد أن ينحني أيضاً.

«قل لقرة بيرم ألا يذهب!.. لدي ما أحكيه له!..»

- ١٢ -

رأس الأفعى

لم ينهض قرة بيرم من حيث يجلس أصلاً. لم يبق في المقهى سوى عشرة أشخاص بمن فيهم نوري.

قال المختار للأعضاء: «وأنتم أيضاً اجلسوا!..»

جلب بيرم كرسيه إلى جانب الأعضاء.

أخرج المختار سيجارة. هرع نوري، وقدم شعلة. بعد سحبة أو اثنتين، قال المختار: «إيه يا بيرم! كنا نعتقد أنك شخص ذكي يا هوه! اعتقدناك جاراً جيداً! وهادئاً، وصامتاً، ونظيفاً، وبحاله..»

قال بيرم: «ابقوا كما أنتم، فأنا هكذا!..»

«نحن لم نتزرع في هذه الدنيا كالخوازيق. كنا نقول: إذا لم نجعلك مختاراً من بعدنا، سنجعلك عضواً في اللجنة!..»

كان سيقول: «مبارك على من صاروا!.» لم يقل. قال: «هناك جيران أذكى! وهل ستبقى قرة طاش من دون أعضاء إذا ظهر أنني سيء؟»

قال المختار: «انظر!. أنت تحكي باستفزاز!.. مهما يكن، مازلت صغيراً! توجد أمور كثيرة لا يستوعبها عقلك! طع ما يقوله الكبار. لا ترد..»

قال بيرم: «أنا أستمع!.» وصمت.

«ولكن، اسمع جيداً! أنت غير راضٍ عن حفر هاجلي هذا أساساً، أليس كذلك؟»

«..........»

ترسل أمك لتتمدد أمام الفأس عندما يحفر هاجلي الأساس!. أنا لا أريد رؤية أمور من هذا النوع يا بيرم! هل تريد أن توجد قضية دم في قرة طاش؟..»

قال قرة بيرم: «أنا لا علاقة لي بالدم وما دم!.. ولم أرسل أمي لتتمدد أمام الفأس. هي تذهب، وتتمدد. أنا لا أتدخل حالياً بشغل هاجلي في الأساس».

«وهل يصح خروج المرأة أمك بوجودك؟ لماذا لا تمنعها، ولا تقول لها: قفي!؟.»

«كيف أقول لها قفي؟ هل أضرب قيداً على قدمي امرأة عجوز في الستين من عمرها؟»

«غداً نطلبها إلى الغرفة، ونحقق معها أمام عدد كبير من الرجال، ألا تخجل من هذا؟»

«لماذا أخجل؟ وهل لديها نقاصة؟..»

«هذه نقاصة! لماذا تتدخل النساء بعمل الرجال؟ انظر!.. بعد ذلك، ارسلكما معاً إلى المخفر! أهمس بأذن الدرك أجعلهم يضربونكما ويحبسونكما!..»

«اجعلهم يضربونها إذا كانت هذه عقوبة من لا يريد أن يُبنى بيتُ قدام بيته! على الرحب والسعة إذا كان هذا يليق بمكانتك. أرسلنا إلى المخفر!..»

«تقول: قدام بيتي! ولاه، كيف قدام بيتك؟ هذا مال القرية المشترك! بعنا مال القرية المشترك بقرار اللجنة! ما الداعي للاستغراب في هذا؟»

«ولكن توجد بيوت عشرين شخصاً وسط القرية!»

«توجد!..»

«اللجنة تقرر بيع قدام بيتي فقط من هذه البيوت العشرين؟»

«قرة بيرم، يا قرة بيرم! يا ابني قرة بيرم!.. انظر، أنت تتمادى كثيراً يا سبعي! ما ضرر بيتك من البيت الذي سيبنيه هاجلي ولاه؟..»

«سيغلق إطلالتنا..»

ضحك المختار: «انظر لما يفكر فيه هذا!. وتتجول في القرية مدعياً العقل؟ لتأكل الكلاب عقلك! أية إطلالة هذه لك؟ أنت قروي بشحاطة! وهل سيدخل القروي الإطلالة في طيزه؟ ما تقوله خاص بابن المدينة. عندما يبني رجل بيتاً، يقول: لابد أن يُطلّ على البحر!.. ويطل على البحر. وفي ذلك الوقت إذا جاء آخر ليبني بيتاً قدام بيته، يصرخ بقدر ما يستطيع: لا تغلق إطلالتي، لا تغلق إطلالتي!.. ما تقوله ينطبق على تلك الحسبة. قريتنا قرية جافة، لا إطلالة لها، ولا شيء! ماذا يحدث أغلقت أم لم تغلق؟ عيب أن نتشاجر من أجل هذا. دعوا الضجيج، وعيشوا متصالحين. ماذا سينتج عن شخير أحدكما على الآخر؟ انظروا!. حكومتنا تنصب تمثالاً من أجل هذا، ألا تخجلون؟..»

قال قرة بيرم: «لا يوجد ما يُخجل في هذا. ليأتِ رجلٌ، وليبن داراً ضخمة قدام بيتك. وليسكن فيها، ولينظر كما يريد، وليضع تحتها التيوس والحمير، وليلق روثها قدام بيتك، فهذا ليس عيباً عليه، وهو

عيب علينا. أليس كذلك يا مختار؟ آه منك آه، الجيد إذا أعطى، يعطي وردة حديقة!..»

«يحكي.. أما عقلك سميك ولاه!..»

«عقلي سميك، لهذا لا أدع أحداً يبني بيتاً قدام بيتي! لا أدعه يبنيه، ويرمي الروث!»

«يوجد قانون في البلد الآن ولاه. كل شيء بالقانون. هل ترى شيئاً من دون قانون؟ يوجد قانون حتى للروث. ضع عقلك في رأسك يا قرة بيرم! بعد الآن! لن تعيش أمة القرويين على مزاجها. يقول القانون: لا يرمى الروث وسط القرية!.. ارمِ لأرَا!..»

«ماذا سيجري للروث؟ أين سيرمى؟»

«سيرمى في الحقل».

«رميته يوماً في الحقل، يومين! والثالث؟»

«كل يوم!»

«في الثلج والشتاء؟»

«في كل وقت!»

قال بيرم: «لن يحدث هذا!. رجل قرة طاش لا يكدِّن العربة، ويذهب لرمي الروث في الحقل شتاء!..»

«افرض أنه لم يذهب، وأن هاجلي رمى الروث قدام بيتك! ما المانع من هذا؟»

«ممكن ألا يوجد مانع؟ تفوح رائحته!..»

«هل أنت قروي أم أحد أكابر بورضور ولاه؟ وهل يهرب القروي من رائحة الروث؟»

«إذا جئتُ، ورميت الروث قدام بيتك، ألا تهرب من رائحته؟»

«والله لا أهرب!..»

«أنا أهرب!..»

«يقول أنا أهرب!.. وهل أنفك أنف نبي يا قرة بيرم؟ ما الذي في رائحة الروث يجعلك تهرب منها؟..»

«دون أن يكون أنفي أنف نبي، فأنا لا أريد رائحة الروث».

«طالما أنك لا تريد رائحة الروث، إليك هذا الكلام. اسمع جيداً! قلتُ: قررت لجنة القرية، وبيع المكان!. إذا لم يشتره هاجلي، سيشتريه آخر. تعال، واشتره أنت بالسعر نفسه!»

فكر بيرم قليلاً: «كيف أشتريه أنا؟»

«اشتره كما الشراء! دفع هاجلي سبعمائة ليرة، ادفع النقود نفسها، وخذها! ماذا أقول لك أكثر من هذا؟»

قال بيرم: «آه يا مختار.. لماذا تضغط عليّ دائماً. هل يشتري كل شخص لا يريد أن يُبنى بيتاً قدام بيته الأرض التي قدامه؟ لأشتر أرضاً فارغة، وأتركها فارغة، ما هذه الفكرة؟ هل ستجعلني أضحوكة في وادي (إرلا) الواسع كله؟ ادفع سبعمائة ليرة، واشتري أرضاً، ولتبق خاوية!»

«لا تتركها فارغة! اجعلها حقلاً! سيّجها من أطرافها الأربعة!»

«لا ماء، ولا شيء. وهل تصير الأرض الجافة هناك حقلاً؟»

«احفر فيها بئراً. وهل أنا أيضاً سأقول لك هذا؟»

«سلي نفسك بي! أنت تعتبرني سافلاً جداً، أليس كذلك؟..»

«ليس الأمر أمر سفالة! هناك حاجة للصندوق! رأيت قبل قليل.

سندفع ألف وستمائة ليرة للتمثال. وهل تخرج خمسة قروش من الأمة؟ وهل أقول لك هذا من مزاجي فقط؟»

«أنت لا تتكلم من مزاجك، ولكنني أتصيد القرش. أقول سأشتري عجلاً في الخريف. التعن إيماني بدفع الدين طيلة سبع سنوات. يمر الشتاء دون أن تدخل ملعقة سمن إلى فم ولد، ويمر صيف دون أن تدخل ملعقة لبن. أقول سأشتري غنمتين، وأحلبهما. وأنت تقول: اشتر أرضاً وسط القرية!.. أنت لست مختار الصندوق وهاجلي محمد المجنون، فكر بي قليلاً أيضاً! أم أنني لستُ من قرة طاش؟»

«انظر ما أجمل كلامك؟ طالما أن وضعك ليس جيداً، دع جيد الحال يشتريها! ولكنك لا تقبل بهذا أيضاً».

«إذا قيل إن بيتاً سيبنى قدام كل بيت يمكن أن أرضى! ولكنني لا أرضى أبداً بأن يكون هذا قدام بيتي فقط! وهذا جوابي النهائي!..»

«هكذا إذن؟»

«نعم، هكذا!..»

التفت المختار بهدوء إلى هاجلي، وقال: «أنت تابع عملك يا هاجلي. إذا تسلط واحد من هؤلاء عليك، أخبرني. سأرسل لك حارساً مسلحاً. وإذا لم يمش الأمر، أُرسل خبراً، وأطلب دركاً من المخفر. وتبني بيتك تحت حماية الدرك!». التفت إلى بيرم: «وهل سمعت يا بيرم ما قلته؟»

قال بيرم: «سمعت. ولكن، لا تقل هذا لي، قله لأمي!..»

أنت أيضاً اخبر أمك!..»

«أنا أخبرها، ولكنني لا أتدخل إذا لم تهتم!..»

«لا تتدخل. نحن نتدخل. من جهة أخرى، انتبه لنفسك وسط القرية!»

قال قرة بيرم: «حسنٌ، حسنٌ. لنر!..» نهض، ومشى إلى بيته.

انغرزت قدماه في التربة الناعمة عندما مرّ «بأرضية بيت» هاجلي. كانت الأساسات المحفورة نهاراً مستوية تماماً، ولكن بيرم لم ينتبه لهذا. مشى شارداً. قال لنفسه: «حسنٌ، سأنتبه لنفسي وسط القرية يا حسنو العاري!..»

* * *

قال المختار: «فعلاً يجب هرس رأس الأفعى وهي صغيرة! لم نعرف أن قرة بيرم سيكون خراء هكذا. رغم أنه كان واضحاً من صغره. التفت إلى هاجلي: «لا تخف ولاه! لا تخف أبداً، واحفر أساسك. وراءك مختار كجبل (ضوملو) الكبير..»

كح هاجلي. ابتلع ما خرج إلى بلعومه، وقال: «غداً سأسحب حجراً. صببت نصف القرميد. حفرت الأساس. عملي ماشي..»

قال المختار: «مشيه! وابن بيتك بلمح البصر. أسرع، وانهه في وقته! لا يمكنهم هدم بيت مبني بسهولة. حتى الحكومة لا تستطيع التأثير عليك!..» غضب: «ولكن هذا القائمقام وجد الوقت المناسب للمجيء. ماذا سنفعل بهذا الآن؟ هذا الرجل يريد خروفاً. هو لا يقول هذا، يجعل عثمان يقوله. صار الناس أمكر! وهل تؤكل الخراف الصغيرة، لا أدري؟..»

قال اسماعيل التيوس العضو الثالث: «لنجد خروفاً وُلد مبكراً. إذا وجدنا خروفاً مبكراً، يؤكل».

قال المختار: «كيف سنجد خروفاً مبكراً؟ يتطلب حلويات أيضاً. ويتطلب مشروب عرق. أنرسل رجلاً إلى أورطاكوي من أجل مشروب العرق؟ حسنٌ، ماذا سنفعل من أجل الحلويات يا أصدقاء؟..»

قال إبراهيم: «لو نجد عسلاً؟ ألا يوجد عسل عند الخال تشاقر يا ترى؟..»

«نسأله. إذا لم يوجد نفكر بشيء آخر. تلزمنا نقود كثيرة من أجل هذا. مائة ليرة على الأقل. الخروف، والعرق، والحلويات.. لنعمل فريضة نقدية على الجميع من أجل هذا!..»

قال الأعضاء: «نعم، ياه. نعمل فريضة نقدية..»

«حسنٌ، يوجد ثمانون جاراً. إذا فرضنا ليرة على كل واحد يُجمع ثمانون. إذا دفع عشرة من الجيران ليرتين، يصبح المبلغ تسعين. وإذا دفع عشرون جاراً ليرة ونصف، تُحلّ المشكلة. أنا غداً أملي على جمال من سيدفع، وكم، وأسلمها للحارس. وأنتم ابحثوا عن خروف مبكر. لا تهتموا إن كان بثمنه أو من دونه. رضي أم لم يرض. لنتدبر الأمر، ولنجعل شرفنا أبيض، مفهوم؟..»

لم ينبس «أصدقاء» المختار. يتمطون.

قال المختار: «تأخر الوقت. لنذهب الآن، لننم! ولكن، اسمعوا قرة بيرم عبارة أو عبارتين كلما رأيتموه! أرجو منكم هذا باسم القرية. مسيرُهُ ليس مسيراً. انتبهوا كثيراً!...»

- ١٣ -
خدوج

كَدَّنَ بيرم العربة على الدابتين. جهز كل شيء. فكر قائلاً: «العربة، العربة!.. يجب أن أزيت عجلاتك!..» انتظر مجيء زوجته وابنه. في رأسه ألم خفيف، وفي جفنيه ثقل. نام متأخراً في المساء. لم يشبع نوماً. يتمطى. الرجل الذي ينام متأخراً يجب أن ينهض متأخراً، يجب أن ينهض عندما يلفّ ضوء الشمس القرية. الرجل الذي ينهض في هذه الساعة يجب أن ينام في أول المساء كالدجاج. نظام بيرم هو النوم في أول المساء. ينام باكراً، وينهض باكراً. وهذا نظام القرية كلها تقريباً.

ظهرت خدوج مع كيس الزوادة: «اخرج العربة من الباحة، وأنا ألحق بك!»

زوجته نشيطة، وسريعة هذا الصباح. تذهب إلى العمل كأنها جائعة تذهب إلى الطعام. مهتمة...

سأل بيرم: «ما لأحمد؟..»

«سيبقى اليوم في البيت. تقول جدته: تعب كثيراً مساء. لينم كي يرتاح. وهو لازم لي!..»

جمعت إراظجة شعرها الأبيض تحت غطاء رأسها، وربطته. بعد

ذلك، جاءت إلى رأس الدرج: «اذهبا أنتما، واعملا بقدر ما تعملان، وليبق بقدر ما يبقى! سيلزمني أحمد إذا ظهر عمل هنا. يمكن أن أضطر لإرسال خبر إليكما. وإذا لم يلزمني، سأرسله إليكما ظهراً».

قال بيرم: «حسناً! أنا أرد التراب على عوارض السياج، وخدوج ترعى البقرة والثور. لا تُترك الدواب وحدها. ومازالت زوج الأفعى التي قتلها أحمد حية! فهي مجروحة القلب، وغاضبة منا!..»

قالت إراظجة: «اعملوا هذا..»

أخرجا العربة من الباحة. ركّب بيرم خدوجاً بجانبه، وقاد العربة وسط القرية. كادت تغوص عجلات العربة في الحفرة وهي تمر من أرضية بيت جاهلي. التراب الخشن الذي ملؤوا به يغدو كالطحين.

قالت خدوج لبيرم: «أمك هذه عجوز وما عجوز، ولكنها أكثر حيوية منا جميعاً. نحن تعبنا مساء، وهي لم تتعب. ثم إنها لا تخاف. سأقول لك شيئاً: أما نزلت، وعملت خروجها في الأساس؟ يندفع الإنسان إلى الضحك. ضحك الولد أحمد، وضحك. أمك طريفة جداً! ستجعل هاجلي ينفزر».

«لنر ما سيفعله اليوم! لو أننا لم نذهب اليوم إلى الحقل..»

قالت خدوج: «أنا أعتبر أن ذهابنا جيد. لا يستطيعون عمل شيء لأمي. ستقع بلية إذا بقينا أنا وأنت في القرية!.. هاجلي هذا مجنون. أنا من الحي السفلي. هكذا يغدو من يشرب من ماء الحي السفلي. سيجمع إخوته، ويأتي. ماذا ستقول؟ هل ستقول: أرجوكم يا شباب، لا تأتوا!. أم ستشمّع الخيط، وتهرب؟..»

«كان أبي يقول: عند الضرورة يجب الهرب! تسعة أعشار الرجولة هرب، وعشرها مجابهة».

نظر بيرم إلى زوجته بطرف عينه، ولامس ركبته بركبتها.

خدوج أيضاً لامسته. ركبة حارة.

قالت خدوج: «لنترك هذا وذاك. لنعمل غرفة صغيرة فوق السقيفة في الخريف، ولننقل إليها اللوازم. ولنضع أمي في الغرفة الجانبية التي ستفرغ. الخجل يقهرني. خلع ثيابي، والدخول إلى الفراش أمام أمي كل يوم يبدو لي كالموت. أعمل هذا خائفة وكأنني أسرق..»

قال بيرم دون أن يبعد عينيه عن زوجته: «هذا يعني أن من يشرب من ماء الحي السفلي يغدو مجنوناً..»

قالت خدوج: «هكذا يصير!.. قليلاً..»

«يا عديمة الإيمان ولاه، هل أنت مجنونة؟»

قالت خدوج: «غير معروف! لعلني جُننت قليلاً...»

«أنت تطلبين أشياء مستحيلة. وكلها في آن واحد: لنشتر عجلاً، ولنبنِ بيتاً، ولنشتر حقلاً، ولنشتر شالاً وحزاماً، ولنشتر زجاجاً للنافذة، ولنشتر أحذية، ولنشتر طستاً، ولنبن غرفة صغيرة..»

«لنعمل، ونشتر طبعاً.. هل هذا سيء؟..»

«ليس سيئاً، ولكن هذه غير ممكنة كلها معاً...»

«ممكنة إذا اشتريناها واحدة واحدة. لماذا غير ممكنة؟ ماذا يحتاج عمل غرفة صغيرة فوق السقيفة؟ صعب؟ إذا لم نعمل غرفة فوق السقيفة، لنعملها في طرف الشرفة. انظر، أحمد يكبر، وعقله يدرك كل شيء. يتظاهر أنه نائم، ولا ينام تحت اللحاف. والله إنه يستمع لتنفسك وخفقان قلبك.. خاصة، تبولنا ليلاً خلف الباب ونحن مواربون، الموت أفضل منه!...»

- ١٤ -

فاطمة

أشعلت إراظجة الموقد على الشرفة هذا الصباح من أجل خبز الخبز. نخلت الطحين، وعجنت في الخارج.

أحمد وعثمان وشرفة ينامون في الداخل.

جُمعت العجول والجحاش وسط القرية. بصعوبة بالغة نزلت إراظجة إلى الأسفل. أخرجت الباكورة والحمار من الاسطبل إلى الخارج. قادتهما إلى القطيع. يدب الذعر في قلبها كلما نزلت الدرج أو صعدت. يجب أن يُعمل ما يُعمل لإيجاد حلّ له قبل أن تكثر الأعمال.

صبت ماء على يديها، وجلست مجدداً إلى العجين. تتجه نحو الجامع. أرضية بيت هاجلي كلها تحت نظرها. تُرى ماذا سيفعل هاجلي عندما تصل الأمور إلى حدّ الفصل. سيغدو مسعوراً. لعله ينسحب، ويذهب من خوفه.

أنزلت أول الأرغفة عن (الصاج). فكرت أن تدهنه بالسمن، وتدرجه لأحمد. تراجعت بعد ذلك. قالت: «ليأكل الثاني. لا يُعد الأول فألاً حسناً. ستموت امرأته!..» أنزلت الرغيف الثاني والثالث عن (الصاج): «لئلا أقطع نوم الولد!..» الرغيف الرابع، والخامس، والعاشر...

جاء أحمد وهو يحكّ ما بين فخذيه. قال: «فَوَّتُها يا جدة! رأيت في حلمي زوج الأفعى التي قتلتها عند الحقل هناك. التقطت الحجر، وركضت، ولكنني لم أستطع اللحاق بها! انسلت بين القصب! لم أستطع ضربها، وقتلها». بعد ذلك، ضحك الولد: «غداً سأذهب مع أبي إلى الجبل، أليس كذلك؟ سأرى غابة صنوبر (غورأولوق)، أليس كذلك؟..»

«ستذهبان!..»

«أيقظيني باكراً غداً».

«ممكن.. هيا اغسل يديك ووجهك، وتعال، ولأدهن على خبزتك سمناً!. هيا بسرعة!..»

نهض أحمد مندفعاً.

قالت إراظجة: «هيا اجلب وعاء السمن من خزانة الجدار!.» قالت بعد ذلك: «قف!.. لأجلبها أنا... أنت لا تطولها!..»

قال أحمد: «أطولها!» وقفز.

«قف الآن قليلاً. أكبر قليلاً..»

«لا يا جدة أطول!..»

«قلت: لا تطولها ياه!..»

«أطولها».

«إيه، هيا هاتها إذن!..»

وصل أحمد إلى الداخل، عند أسفل خزانة الجدار.

توقف قليلاً. ذهبت إراظجة أيضاً. نظرت من خلفه، وضع أحمد مخدة تحت قدميه، ولم يصل. وضع مخدة أخرى، ويحاول الوصول إلى جرة السمن. ولكي لا تُخجل إراظجة حفيدها، انزوت، وراقبته من بعيد.

وضع أحمد مخدة أخرى تحت قدميه. تسلّق، وطالها في النهاية. أخذ الجرة، ووضعها على الأرض. وضع المخدات مكانها. احتضن الجرة، ورأى جدته حين مشى.

صرخ أحمد: «طلتها يا جدة!..»

قالت إراظجة: «ما شاء الله!.. كبرت يا هذا!. لأخبر أباك كي يخطب لك!..»

قال أحمد: «ليشتر لي جزمة!..»

«ليشتر!..»

«ليشتر لي سكيناً!..»

«ليشتر!.. هات، هات الجرة، وتعال كل خبزتك!..»

جلب أحمد الجرة.

لم يظهر آل هاجلي بعد.

نهضت إراظجة من جديد. أخذت البلطة من وراء الباب، وأخرجت عصا الفأس أيضاً. وضعتها بجانبها قرب الموقد. قالت لنفسها: «ســـأريكم الأرملة، المرأة الأرملة، انتظروااا!..» ونظرت إلى وسط القرية.

قال أحمد: «لماذا تلك البلطة يا جدة؟»

قالت إراظجة: «سأقطع حطباً!..» وضحكت.

«لماذا أخرجت عصا الفأس؟»

«سأعطيك إياها، إذا داهم هاجلي البيت، تقف عند رأس الدرج، وتضربه على رأسه!..»

فرح: «على رأسه؟ بهذه؟..»

«بهذه، وعلى رأسه!..»

«حسنٌ!..»

«هيـا الآن، كُلْ خبـزتك لتـدب الروح في ذراعـيك. لا تخف أبداً عندما يأتي هاجلي المجنون! ستجلس عند رأس الدرج. وستمسك عصا الفأس بيدك. عندما يصل إلى مرماك تماماً، ستغمض عينيك قليلاً، وتنزلها على رأسه. ستنزلها على خلف رأسه! ستستجمع قوتك كلها، وتنزل بها!..»

«هل أقتله يا جدّة؟..»

«اقتله كما قتلت الأفعى!..»

«حسنٌ...»

يأكل بسرعة، وكأن هاجلي سيأتي فوراً. قال في أحد الأثناء: «يا جدة! لماذا سأقتل هاجلي المجنون؟..»

«هو عدونا!..»

«ماذا يعني عدو؟»

«جاء ليبني بيتاً قدام بيتنا، ألا ترى؟ ذهبنا، وملأنا أساساته مساء ياه!.. منحط.. مجنون!... سيبني بيتاً قدام بيتنا!.. ونحن صرنا أعداء.. طبيعي سنكون.. ليذهب من قدام بيتنا!..»

قال أحمد: «ليذهب يا جدة!..»

«ما عمله قدام بيتنا؟.»

قال أحمد: «ما عمله؟ ليذهب!...»

أنهت إراظجة العجين الموضوع فوق الدفة. تقطع عجينة من الجرن. ظهر هاجلي بعربة مليئة بالحجارة. ذهب إلى القلعة القديمة، وملأها من

هناك. زوجته أيضاً معه. أوقف العربة بجانب الأساسات المملوءة. يهمر بشكل سيء. ويشتم بصوت مرتفع. شتائم بذيئة.

قالت إراظجة: «دخيلكم، دخيلكم.. زاغت عيناه!..»

التقط أحمد عصا الفأس، ووقف عند رأس الدرج.

تسمع إراظجة ما يقال كله.

يقول هاجلي: «هذه عداوة! الرجل الذي هو رجل لا يفعل هذا!. دفعت نقوداً للعمال حرجاً حرجاً!.. لم يُحفر هذا التراب بسهولة! لا يؤكل الخراء بهذا الشكل أبداً!.. المسلم لا يعمل هذا بالمسلم!...

إراظجة تخبز. عقلها، وانتباهها عند هاجلي. تنظر إلى الخبز الذي على الصاج بعين، وتراقب حركات هاجلي بالعين الأخرى.

ترك هاجلي المهمزة التي بيده، وتوجه نحو بيت إراظجة.

نهضت إراظجة ببطء، وتناولت البلطة، وانتقلت إلى رأس الدرج، وقالت: «تماسك يا أحمد. أنا أتكلم أولاً! إذا لم يذهب، تنزلها على رأسه فوراً! وأنظف مكان جثته تحت الدرج.. ولنغسلها أي غسيل..»

قال أحمد: «لنغسلها يا جدة!..»

هاجلي قادم كالعاصفة. فتح باب الحوش. دخل. مشى مسرعاً إلى الدرج. يصرخ: «عرض أمكم!.. قبر أبيكم!..» وهو قادم.

قالت إراظجة: «قف!.»

أحمد: «قف، قف!..»

شدّ هاجلي طرف السلم.

قالت إراظجة: «قف مكانك يا هاجلي المجنون، وإلا فالأمر كما تتوقع!. سأنزل ضربتين على رأسك». قطب حاجبيه بقوة.

توفّز أحمد، ونهض على قدميه. رفع عصا الفأس.

قالت إراظجة: «يا هاجلي! أنا الآن سأجعل كل قطعة منك بعَد إذنك تحت هذا السلم!.. لن يأتي ضررٌ لشعرة من شعري! لأنك أمام بيتي. أهذا جيد؟ قف مكانك. وقل ما ستقوله من هناك! احذر أن يخطر ببالك صعود درجة!. قف هناك!..»

بدأ هاجلي يتصبب عرقاً فجأة، وقال كأنه يئن: «يا عمة!.. يا عمة إراظ!...»

«هاه، هكذا.. قل ما ستقوله من هناك!..»

«يا عمة إراظ!.. لنتكلم يا عمة إراظ!.. لنتكلم لعلنا نتفاهم!.. الناس يتفاهمون بألسنتهم يا عمة إراظ!.. أنا لم آتِ للعراك، وإراقة الدم يا عمة إراظ!..»

«إذا لم تأتِ من أجل إراقة الدم، لماذا كنت تشتم قبل قليل؟ ليس لدي كلام معك!. انقلع من هنا!.. وإلا سأفتت مخك! ولا أتكلم معكم إلا إذا رحت من هنا بشكل جميل، وتركت بناء البيت قدام بيتي! في غير هذه الحال لا أحكي معك كلمة واحدة!..»

«متى ملأتم هذه الأساسات يا عمة؟ وهل بيرم غدار إلى هذا الحد يا عمة إراظجة؟»

«لا يد لبيرم بهذا!.. أنا ملأته مع أحمد عندما كنتم تتحدثون في الغرفة ليلاً!..»

«ألم تشفقوا أبداً يا عمة؟ أما فكرتم بالتعب؟..»

«أما فكرت أنت بقدام البيت أبداً؟..»

«كنا سنغدو جيراناً يا عمة!. لماذا صرنا أعداء هكذا؟..»

«لا أريد جيرتك. لا تتكلم أكثر، انقلع، واذهب بماء وجهك! إذا وقفت أكثر، ستأكل البلطة على رأسك!..» استعدتْ للضرب: «هيا!.. هل ستقف أكثر؟..»

استعد أحمد أيضاً للضرب.

نظر هاجلي مطولاً. فولاذ البلطة التي بيد إراظجة يلمع. عينا الولد أحمد جاحظتان، وتتحركان وهو ينتظر. التفت، وذهب. وقف عند العربة. فكر. دار هناك، وفكر. بعد ذلك، بدأ بتفريغ الحجارة.

بينما كانت إراظجة تعود للجلوس عند جرن العجين، قالت لنفسها: «لم يفد هذا!.. لم يفد هذا أيضاً... عقله لا يشتغل. مخّهُ مليء بالجليد!..»

قال أحمد: «إذا جاء مرة أخرى سأضربه يا جدة! سأضربه وسط رأسه!..»

«لا يأتي يا عزيزي!.. انظر، إنه يفرغ الحجارة..»

قال أحمد: «ليفرغها! عندما يأتي الليل نرمي حجارته في الوادي! نحملها واحدة واحدة... أنا أحملها كلها في حضني.... نرميها كلها في (البئر العميق) يا جدّة..»

ضحكت إراظجة. بعد ذلك، نهضت، ونادت متوجهة نحو هاجلي: «لا تفرغ تلك الأحجار يا هاجلي ي ي!.. لا تفرغها للاشيء! لا أدعك تبني بيتاً هناك! لا تقاوم من دون جدوى! هذا المكان سيصير قبراً لك. اسحب عربتك!.. لئلا ينشب شجار وقتال. لئلا نسيّل دماً. اذهب بشكل جميل من قدام بيتي. لئلا نتشاجر، غدا نتواجه!..»

استمر هاجلي بتفريغ العربة. وتحدث بشيء ما مع زوجته.

خرج عدد من الجيران إلى الأبواب، وهم ينظرون. عابرو الطريق الذاهبون إلى العمل نساءً ورجالاً توقفوا، يتبادلون النظر.

صرخت إراظجة بصوت مرتفع مرة أخرى: «أدفن جثتك هناك، ولا أتركك تبني بيتاً يا هاجلي ي ي!..»

قالت فاطمة لزوجها: «لأذهب أنا أيضاً، وأتكلم مع إراظجة. لأذهب، وأكلمها أنا أيضاً».

قال هاجلي: «اذهبي!..»

مشت فاطمة بهدوء.

قال أحمد: «يا جدةةة، إنها قادمة!..» وتناول عصا الفأس، وركض إلى رأس الدرج.

نظرت إراظجة. فاطمة تمشي. قالت: «لتأتي!.. لا تلمسها، دعها تأتي!. اجلس مكانك قليلاً!..»

جلس أحمد، ولكنه لم يترك عصا الفأس.

كان قلب فاطمة يقرع وهي تصعد السلم. تهبُّ من وجه إراظجة عاصفةٌ معقدة. ولكنها لا تبدو أنها ستنهض وتهاجم فاطمة. انظروا إلى الولد أحمد هذا بشكل خاص. أنزل رأسه إلى ما بين كتفيه، ويكشّر ككلب صيد...

بصوتٍ قوي، قالت: «الله يطرح البركة يا عمة إراظ..»

قالت إراظجة: «أهلاً بك، ادخلي لنرَ!....»

جلست فاطمة أمام جرن العجين.

«اطرديني إن أردت أو اضربيني، أنا لا أرفع يدي عليك!..»

«اجلسي لأرى، لماذا أطردك؟»

«اطرديني، اقتليني!. دمي حلال عليك!..»

«لا ابنتي، أنا لست مجرمة، لماذا أقتلك؟»

«سنجلس، ونحكي يا عمة!..»

قالت إراظجة: «احكي يا ابنتي!..»

أخذت فاطمة عصا حمل الخبز من يمين إراظجة، وبدأت تنقل الخبز الذي على (الصاج).

شكت إراظجة بداية: ترى هل أخذت هذه المرأة الفواحة ناقل الخبز لتلعب لعبة عليها، أم أنها فعلت هذا لبراءتها؟..

قالت: «ليفرغ زوجك حجارة هناك، وأنت اجلسي هنا، وانقلي خبزاً من أجلنا. أحسنت يا ابنتي!...»

تراوغ فاطمة بالكلام: «لماذا ينظر أحمد نظرة سيئة هكذا يا عمة إراظ؟ احكي معه ليعدل وجهه!..»

قالت إراظ في داخلها: «هذا الحجر لي!..» ثم قالت: «ماذا سنفعل يا ابنتي؟ الجمال لا يصير بالقوة!..»

«قولي له أن يبتعد عنا قليلاً. لديّ ما أقوله لك بشكل خاص. لا أستطيع قوله أمامه..»

قالت إراظجة لنفسها: «أرأيت ما وقع على رأسي؟» وندمت لأنها تركتها تأخذ ناقل الخبز. لو تجد طريقة وتأخذه من يدها. إذا استجمعت قوتها كلها، وغرزته في بطنها، فهو يثقبه يا إراظجة، يثقبه. إذا ارتمت فوقي فهي تخنقني. من يعلم مدى القوة في هاتين الذراعين!..»

قالت إراظجة: «الخبز يحترق!» واختطفت ناقل الخبز فجأة. ارتاحت قليلاً عندما التقطته. بدأت بتدوير الخبز بشكل عشوائي. تراقب المرأة

بطرف عينها. لم تتوقع سوءاً منها بداية، بعد ذلك، انقبض قلبها. نظرت في أثناء ذلك إلى أحمد. حسنٌ، هو أيضاً متوفز...

ألحت فاطمة قائلة: «ألن تبعدي أحمد يا عمة؟..»

«إلى أين سأبعده؟ ليجلس الولد هنا! قولي ما ستقولين، أو جري عربتك بسرعة! أنت تعطليني عن عملي».

«يا عمتي، تابعي عملك يا امرأة!.. رقّي خبزك لأشويه لك. ابعدي هذا الولد فقط لأحكي معك كلمتين».

ماذا يحدث إذا أبعدته؟ إذا شكّت بها كثيراً، تترك الخبز. وعندما تكون يداها فارغتين، تبقيان واحدة لواحدة. تقف، وتستمع. ولتهجم حينئذ إن أرادت. بيدها شوبك. تردّ عليها. إذا لم يكف، تصرخ. يلحق بها أحمد.

«أحمد!.. هيا اذهب إلى عند أخويك قليلاً. إذا استيقظا، اجلبهما إلى هنا. لنطعمهما خبزاتهما. انهض يا جدتي!..» لم يرد أحمد النهوض. قالت إراظجة: «انهض يا جدتي!..»

نهض أحمد، وذهب دون إرادة. عين الولد بقيت خلفه. يلتفت، ويلتفت، وينظر.

أحنت فاطمة رأسها ذي الشعر المكوّر كرات، كرات. وضعت يديها على ركبتي إراظجة المسكتين بجرن العجين. والآن عيناها خضراوان كالمياه الراكدة. تنظر بعمق. إنهما كأعماق البحار التي لا يُغاص إليها... هل ستبكي، أم ستضحك، هذا لا يُعرف...

قالت: «يا عمة!.. ادينيني إن أردتِ، أو عيبي عليّ. لدي كلمة. إنها في داخلي منذ سنوات. سأموت إن لَم أقلها.. سأقولها حتى لو قتلتني يا عمة!.. إنها تأكل قلبي. سأقولها، وأخلّص نفسي».

لم تستنتج إراظجة معنى من تخبط فاطمة: «حسنٌ ياه، قولي، قولي، واخلصي إذا كان هكذا!..»

«هل لديك قلب يا عمة إراظ؟..»

«أيمكن ألا يكون؟ لماذا لا يكون لدي ما لدى الناس؟»

«إذا كان هكذا، سأقول يا عمتي!.. أردت أن أكون كنتك، لم أستطع!. لأكن جارتك على الأقل يا عمة إراظ!.. لم يقولوا من فراغ: لا تطلب شيئاً كثيراً، فلن يحدث!.. خرجت خدوج ابنة عائشة الميداني أرجح مني، جاءت، وجلست في بيتكم. وأنا سقطتُ على سيء الحي السفلي. طلع لي هاجلي المجنون بملعقتي. إنه قدري. أعاني الآن. اتحمل، ولكنه صعب جداً يا عمتي إراظجة. لا تفعلي شيئاً، ولنكن جيراناً، ولأنظر من الطرف المقابل كيلا يذوب شحم قلبي كله. ارتبطتُ بسيء، وبقيت. ولا أستطيع الانفصال. لا طعم، ولا ملح لعمري. التصق بي كعشبة القراص، لا أستطيع قطعها ورميها. لم يستطع قلبي الحصول على ربيعه. الأيام تمر وتذهب. الشباب يروح. الحياة تروح وتجيء، وفي طرفها النهائي موت!. إنها فانية، ولكنها ليست قصيرة يا عمة إراظ!..»

قالت إراظجة: «يا ابنتي الجميلة! إذا كنت راضية، فلا يوجد أسرع من اليوم. تعالي، واجلسي في بيتي! وبإذن الله، سيدبر أمورك إن شاء الله! ولا تذهبي أبداً إن أردت طالما جئتِ!..»

دهشت فاطمة. غضبت. بعد ذلك، بدأت تبكي. قالت في النهاية: «يقتلونني يا عمة إراظ!.. يقطعون لحمي حزوزاً حزوزاً. يقطعونه، ويرمونه للكلاب!..»

«إذن اسحبي عربتك!.. لا تخربي حيوية ابني!. واعتبري أنك لم

تقولي لي هذا الكلام! ثم من أنت؟ زوجة عدوي. إذا أردت أن تكوني جارة خير، قولي لزوجك عديم الأصل أن ينسحب من قدام بيتي!. وأنت أيضاً لا تضعي عينك على ابني! تحترقين، وتشتعلين، فهل توجد فائدة في هذا؟ قبل كل شيء، فالأمر راح ومضى... اضغطي على أسنانك، واعملي على إسكات قلبك، حسناً كان أم جيداً! لكل شخص في العالم ما يحرق قلبه، ومن يحرق قلبه ولم يأخذه أو يصل إليه.. وماذا ستفعلين؟ لم يفكر الذين كسروا هذا النظام، وذهبوا بهذا الجانب من الأمر. مفهوم يا ابنتي؟..»

تذرف فاطمة من عينيها قطرات كحبات العنب الأبيض: «لا تخبري أحداً بما قلته هذا يا عمة. أنت عمتي. أنت أهم من أمي. هذا قدري. يبدو أن قدري سيء. وهل تنتهي الأيام مع مجنون الحي السفلي؟ لا تقولي عبارتي هذه لأحد. لا تخبري حتى بيرم بهذا. لا تخبري خدوجاً أبداً. ولا تقولي هذا لهاجلي إذا نشب عراك أو شجار. لا تنجرفي بغضبك وتقولي: جاءت زوجتك فاطمة الفواحة، وقالت: كذا وكذا... فكري بي يا خالة! سيأكلونني بعد ذلك. وهل كنت سيئة إلى هذا الحد؟ وهل أنا أسفل من في هذا العالم؟ هوه، هوه...!..»

فاطمة تبكي بشدّة. أشاحت إراظجة بوجهها كيلا ترى عيني فاطمة الدامعتين. نظرت إلى ناحية هاجلي: «انهضي!. زوجك أفرغ العربة. لا تطأي هذا المكان مرة أخرى!.. قولي لهاجلي ألا يستمر بالمقاومة. ليسحب قدمه!..»

مسحت عينيها بطرف غطاء رأسها قبل أن تنهض. وإلى هناك أيضاً تصل الحمالة التي تلف بها ثدييها الممتلئين. فاطمة جذابة أكثر

من خدوج بتكور كتفيها، وضخامة جذعها. ولكن إراظجة قالت لنفسها: «ماذا أفعل؟... عليّ ألا أزيد هموم رأس ابني بهذا أيضاً!..»

نهضت فاطمة ببطء، وذهبت: «أنا قربانك يا عمتي، لا تخبري أحداً بما قلته هذا!.. أنا غريبة في قرة طاش هذه. لا أحد يفهم حالي. افهمي حالي أنت يا عمتي الجميلة..» تمايلت كغصن سرو، وانسلّت ذاهبة.

قالت إراظجة في داخلها: «يا فاطمة الغريبة، يا فاطمة السيئة القدر!..» وحزنت لحال فاطمة، كادت أن تبكي: «ما ذنب هذه المسلمة؟ ما ذنبها كي تجعلها أسيرة هاجلي المجنون يا إلهي الجميل؟..»

بعد أن أفرغ هاجلي العربة، دور الثيران، وقال لزوجته: «بماذا أجابت إراظجة المهمومة؟»

بلعت فاطمة ريقها: «بماذا ستجيب؟ لم أستطع فهم هذه الأمور! وإراظجة عنيدة كالحديد. لا توجد طريقة لإرجاعها عن قناعتها. تقول أحرق بيتكم! تقول: إذا أردتم أن تكونوا جيراناً لنا، فهنالك خرابات، اشتروا واحدة، وابنوا بيتاً!.. وتقول: الرجل الذي هو رجل، لا يأتي ويبني بيتاً قدام بيت!..»

ذرّ هاجلي على الأرض التراب الذي كان يفركه بيده، وقال: «اركبي أنت على العربة، وامسكي المهمزة، وسيري في طريق مقطع الحجارة! لأجلب عمال البارحة! ليحفروا الأساسات من جديد. وسأتابع هذا الأمر إلى آخر حدّ! أكون حماراً إذا تراجعت! على ماذا تعتمد إراظجة المهمومة لتقول: لا أدعك تبني!..؟ كيف لا تدعني أبني؟ كل واحد من أخوتي صنوبرة ضخمة! تعمل هذا لأنني لم أُخبر أخوتي!.. لأذهب، وأحكي لهم.

لأقول: المسألة كذا وكذا!.. ولتفهم إراظجة حينئذ! هيا الآن، قودي العربة».

قالت فاطمة: «أنت تحفرها، ويأتون ليلاً، ويملؤونها ثانية. افرغ، واملئ. املئ وافرغ. أليس مؤسفاً لجهودنا؟ كم ليرة يأخذ العامل؟ تعال لنترك العمل المأزوم هذا هنا. لنجد خرابة هنا، ولنحفرها نحن، وننظفها، ونبنيها. أنا أنظفها، وأحفرها. وأعمل نهاراً، ولا نتابع هذه البلية».

تأجج غضب هاجلي: «اركبي العربة ولاه! لا تونوني كجرو كلب! أم أنك لا تطيعيني؟ إذا كنت هكذا فقولي!.. اخبريني، لأحاسبك خلال دقيقة!..»

ركبت فاطمة العربة، وقادتها. تنسحب ذاهبة من وسط القرية مهانة، مهدودة. تريد أن تبكي صراخاً، وتُسمع القرى التي بعد الجبال.. يوجد ألم يسكن في قلبها. لن ينتهي حتى لو بكت عشرة أيام. لن يخرج الألم من قلبها مغادراً. «إنه إيجاد ما تركه شيطان أعمى!.. لكل شيء حل. أيمكن الحفر قدام بيت الناس دون سؤال أو استشارة؟ حتى للنملة روح. يا ملعون، هل يتركك الناس تعمل على هواك؟ انهض من تحت هذه البلية إن كنت تستطيع النهوض. ها هي خرابات جميلة من حولك. ما أجمل حديث المرأة؟ كيفما كان تدفع نقوداً، ادفعها هناك بدل أن تدفعها هنا. لننظفها بشكل جميل. ولنحفر أساساتنا. وابنِ بيتاً كما تريد، واسكن فيه. ما الحاجة للشجار والعداوة؟!..»

تذهب، وهي تحدث نفسها.

تشعر بداخلها بالضيق الذي تشعر به عندما تُغلق عليها الغرفة الرطبة، وينقضّ عليها هاجلي ذو اليدين الشبيهتين بالشوك بجسمه

الجاف كالنسر: «تفوح من هاجلي هذا رائحة، وأية رائحة!. كريهة! إنها رائحة تشبه رائحة الفلفل المتعطن. أشعر بالغثيان كأنهم أدخلوا قطعة قماش قذر في فمي وأنفي. أغدو كأنني سأختنق. وبينما يخفق هو في شغلته مرتجفاً، أريد أن أصرخ قائلة: خلصني يا إلهي!.. أغدو كالمسجونين. كأن صندوقاً حديدياً ضيقاً مغلق عليّ. كأنهم قطعوا عني نفسي، وأختنق. أحترق، وقد قطعوا عني الهواء. عطشانة وأريد ماء. أروني نبعاً! أنا لا أُخدع بالنبع! لبيرم عينان براقتان كمياه بحيرة حلوة. لبيرم ذراعان حيويتان.. أريد من الماء الغزير... أريد ذراعي بيرم...»

آآآآه، لو أرادها بيرم أيضاً! ممكن حتى لو أراد خدوجاً أيضاً. هو يريد خدوجاً. تغدو أمة له. ولكنهم لا يريدون، ولا يدعهم الآخرون. لا تفيد شيئاً إرادة خدوج. قالت في داخلها: «خدوج ناعمة. خدوج... ما ذنب خدوج، وما ذنبي؟..»

- ١٥ -
القرميد المحمرّ

أحفادها على جانبيها.

إراظجة عند رأس السلم. تنظر إلى أرضية بيت هاجلي دون أن تحوّل عينيها عنها، وتفكر. لا يمكن التهاون في القرية. هذه الأمة ليست أمة، بل علة. إذا شعرت بأن واحداً تهاون، تركب طرفه. ولن يستطيع ذلك المتهاون أن ينصب ظهره مرة أخرى. يجب فعل ما يمكن فعله من أجل اقتلاع هاجلي ورميه.

قال بيرم: «ماذا فعلت يا أمي؟...»

قالت إراظجة: «لا شيء!..»

«هذا يعني أنهم يحفرونها من جديد ياه؟»

«يحفرونها!..»

«هل سنملؤها مرة أخرى هذه الليلة؟»

«سنملؤها!..»

«وإذا جاء مع أخوته؟..»

«سنهجم كلنا نحن أيضاً. كل البيت!.. أحمد وعثمان وشرفة، وأنت، وأنا... كلنا!..»

«هنالك موت يا أمي..»

«وليس هنالك تراجع!..»

«أمي!..»

«اسكت! لتقطّع كلاب القرية أمه! اسكت!.. اسكت إنه ابن حمار!.. اسكت، الله يهدّ آباءه!... اسكت، لتُجعل رقبته تحته!..»

تقول: «اسكت!» باستمرار. وتتغيّر فجأة، وتنتقل من حال إلى حال. تنتقل إلى الذكريات ذات الندب والألم. كانت عائدة بعد أن رأت ابنة حميها في الحي العلوي. وكان (حمدي بارنيك) والد العضو إبراهيم مختاراً، وخليل المهزلة الحالي حارساً. انعطفت عند بيت حسن الملاك. قال دركيان: «قفي لنرى!» تعرقا. صارا سمينين في المخفر. على كتف كل منهما بندقية. أشهر أحدهما حربته: «قفي! لا تتحركي لنرى!..»

«قلتُ لنفسي بداية: لأتوسل للدركيين. نظرتُ إلى وجه خليل المهزلة. نظرت إلى الخلف لعل المختار يخرج ويأتي؟! يأتي أبو حسن الملاك أو أخوه من مكان ما لنجدتي؟ لم يخرج أحد. وأنا لم أتوسل. مرَّ بيده فوق بطني. كانَ صدارتي مربوطة بحزام. سحبه. ولكنه لم ينقطع. لا أعرف إن كان كردياً أم لاظياً. كان الدرك يأتون من تلك الأطراف. ويذهبون من هذه الأمكنة إلى تلك الأطراف. قال: لا تتحركي أبداً. وغرز الحربة، ثم نترها من الداخل إلى الخارج. قطع الحزام. كنتُ قد جعلت المرحومة (عيشة شاهان) في (تشردق الصغرى) تطرزه لي. كانت له ألوان سماوية وسوداء وحمراء وبيضاء. وطرزت لي صدارتي أم حافظ في (غوغتشه ياقا). حكتُ الصدارة من صوف خروف ناعم: أسود مور، من صوف خروف (مور)، ومن صوف خروف أسود، وخروف أبيض..

قطّعها، ومزّقها، وناولني إياها. سألت خليل المهزلة: عقوبة أي ذنب هذه؟.. قال: دخيلك يا أخت إراظ، إنه قانون الهندام، ليته لم يكن... الصدارة ممنوعة! والطربوش ممنوع!.. حسنٌ، لماذا قطّع الحزام، الله يهدّه؟ نظر بخبل، وقال: «لأنه يحزم الصدارة على ما يبدو! قل لي يا خليل المهزلة إذا كنت تعرف! من أخرج هذا القانون؟ قال: أنقرة!.. قلت له: انتهت اليمن واليونان، وبدأت أنقرة الآن؟ ماذا تريدون من صدارتي وحزامي، الله يهدكم؟ وحارس ماذا خليل المهزلة؟ هزّ بيديه من وراء الدركيين، ومشى بجانبهما!...»

تتدفق أمامها ذكريات كهذه، وكأنها حدثت البارحة.

«ذهب قرة شالي إلى القرى العلوية للصيد. كان صديقاً جيداً (الهبيل الألوبناري). وُجد بعد ثلاثة أيام، وجاء. قلت: قطعوا صدارتي يا شالي. نظر مطولاً، وصمت. نطق الحجر، ولم ينطق قرة شالي. لعله يعرف أنقرة كما عرف اليمن واليونان..

زرعت خشخاشاً في مكان بقدّ داخل البيت في الكرم القديم. كان صيادي يحبه مجمداً بدبس العنب. لم تكن قد جاءت البيوت البلاستيكية إلى الكروم بعد. نقطف عنباً كثيراً. السلال لا تتسع للعنب. نضعها على العربات، فلا تستطيع الثيران جرّها. كان قد مرّ يوم خضر وإلياس(*). ونقترب من تساوي الليل والنهار. ذهبت وحدي لتشطيب الخشخاش. الصبي بيرم صغير، مرّ الضحى منذ زمن. ضغط الحرّ جيداً. إلى جانب الطريق توجد حفرة أساس، أمامها ستارة نباتات يابسة. وعلى جانبها خوخ ناصح، وخوخ عادي، وإجاص بري. زحفت

* - يوم ٦ أيار، ويعتقد بأن الخضر، والنبي إلياس يلتقيان كل عام في هذا التاريخ... المترجم.

أفعى حمراء مرقطة بين الشوك. لها قرطان تحت رقبتها! وما أجمل عينيها يا إلهي!.. أتبذل جهداً بخلقها دون أن تحيلها إلى ملائكتك؟ يشعر الإنسان أنه سيحبُّ حتى الأفاعي!.. بيننا حرب ياه. التقطت الغصن الطويل الذي كان تحت شجرة الإجاص. وتراجعتُ خطوتين أو ثلاث. رفعتْ رأسها كالإنسان حتى وسطها. أهاجمها بالغصن، فلا تهرب. أضربها، تخلي، ولكنها لا تهرب إلى داخل الأساس. حينئذ فكرت: أليست كلها عدوة يا ترى؟ وجدتُ شكاً كهذا في عقلي. ولكن الأفاعي أنواع، ويوجد ألف نوع أفعى. كيف ستعرف الصديقة وغير الصديقة بينها؟ لهذا ضربتها على رقبتها، وجذعها! لم تهرب. ضربتها.. لا توجد عندي قوة الرجال، ولكنني معتادة، عندما ألوح بالعصا، أصيبها. وعندما أصيبها يؤلم الغصن روحها. لم تهرب حتى ذلك الوقت. قلت: انتظري لنرى! ستهاجمني هذه الآن. وضربتُها على رأسها ورقبتها قبل أن تهاجم. جرحتها. لو ذهبت هاربة، سأتركها. مجروحة، ما مجروحة غير مهم. سأتركها رغم معرفتي أنها ستفتح على رؤوسنا بليات أكثر. ولكنها لم تهرب. إنها تشبه قادر شقيق قرة شالي الباقي في اليمن. كم كنتُ أحب المرحوم قادر. ذهب من القرية في السابعة عشرة من عمره. أدخلوه ثكنة السليمية. فلّوه من القمل قليلاً. بعد ذلك، ركّبوه من ميناء (بندك). كانت تُرسل الرسائل من هنا. كنا نسمع ميناء بندك، ميناء بندك.. جاءت رسالة من قادر، ولكنه لم يجيء، ذهب صوته، وأثره، وضاع. بعد ذلك، وُجد، وجاء. في زمن اليونان، ذهب مرة أخرى. لا تغيب ملامح وجهه عن عينيّ. والآن، ما سبب ظهور ملامحه في وجه الأفعى يا إلهي؟ ألأن الأفعى جميلة؟

سأفرح لو ذهبت هاربة، ولكنها لا تذهب. ماذا أعمل؟ قلت: في هذا الأمر فخ! فضربتها بالغصن. هشّمتُ مكان ضربها. جُرحت جرحاً بليغاً. وشعرت بالألم. حينئذ بدأت تهاجم! إنها تطير في الهواء. تطير، وطاااخ، تضرب! أهرب، وأدور من خلف شجرة الإجاص. أغافلها، وأضربها من جديد. كثيراً ما رأيتُ أفاعي طيارة. إحداها في حقل (كوربة) لنجيب بيك ونحن نحصد. لا أنسى أبداً. طارت، وجاءت. تمددنا على الأرض فور رؤيتها. عبرت ذاهبة! قطعت أذنَ حمار (هورو الشنديلية) واخترقت جدار بيت (عالمة جيك)، وضاعت. هذه ستطير هكذا لولا أن جرحها بليغ. هذا يعني أنني جرحتها جيداً. ولكنها مازالت تضرب، طاااخ، طاااخ!.. ركزت رأس الغصن على رقبتها، وضغطت. انغرز نصفها في الأرض ونصفها الآخر في الهواء يضرب الأغصان والأوراق. كحزام جلدي، ويصيبني أحياناً. ألمها أشدّ من أي ألم. يكوي. ستكويني وهي جريحة. كان كريم أوغلو قادماً من طاحون العربي. لحقني. تعاونّا، وقتلناها، وخلصنا منها. أشعلت ناراً بالأغصان والأعشاب، ورميتها فيها، وأحرقتها! في اليوم التالي، قلت: لا تذهبي يا إراظ!.. ليغر الخشخاش. كان يحب مجمّد الدبس في الصينية كثيراً. حين سمع قرة شالي بأن أفعى خرجت أمامي، تناول البلطة، وذهب. كانوا يقولون هذا، ولم أصدق. جاءت زوجها من وسط الدغل. وضع روحه بين أنيابه، وحاول معها، وبصعوبة بالغة، قتلها. صدقتُ أن أمة الأفاعي تتجوّل زوجين زوجين. منذ ذلك اليوم تمكنا من كثير من الأفاعي. أزواج وغير أزواج. ألن نتمكن من مختار وهاجلي؟..»

هكذا تشرد وتفكر. يأتي نهر، ويطفئ نارها، ويكنس الأغصان

والعيدان التي بداخلها. تمسك النهر، وتدفعه نحو هاجلي. تتدحرج منه أشياء كالرعد قادمة.. الدرك قادمون. ألبستهم مختلفة. السيول تأتي زابدة. تأتي أفاع من جانب (تشيل دة دة) ذات أقراط، وعلى أقدام... متلوية كأفاعي الماء، وصافرة... بعد ذلك، تأتي يد.. يدٌ لا تعرفها، تمسك قلبها، وتعصره. وفي صدرها كلب ضخم. وُجِد منفاخ لا أحد يعلم سبب وجوده. صوت يقول لها: «انهضي، واصرخي! انهضي!» ركبتاها متوترتان. عيناها على عمال هاجلي. بطريقة ما يذهب ويجيء في المكان نفسه. تنزل عيناها مع ذراعي خليل المهزلة، وترتفع مع ذراعي ابنه. تملآن الجاروف معهما، وتفرغانه معهما.

يقول بيرم: «يوجد تقليد في العسكرية يا أمي. يقول القادة: يجب ألا يفرغ الجنود من العمل. يقول القادة: إذا فرغ الجنود من العمل، يفكرون بالسوء!.. يُروننا مكاناً، ويقولون: احفروا هنا لنرى!.. يُحفِّروننا.. وفي زمن الطعام، أمرٌ آخر: املؤوا هنا لنرى!.. يجعلوننا نملأ الحفرة هذه المرّة. ما لهاجلي يقع في هذا الحساب. هو يحفرها، ونحن نملؤها. وهو يحفرها من جديد.

قالت إراظجة: «ليحفرها.. ليحفرها خمسين يوماً إذا كان لا يوجد عنده عقل. طائش. ونحن سنملؤها طوال خمسين يوماً».

تتقلب مشاعرها. أشجار حور طويلة كالسرو. حور وسرو. تُفكر بعصا بطول شجرة حور. ترفع العصا، وتنزلها على ظهر هاجلي. عشرة آلاف وثمانمئة وثمانية وثلاثون... تتدحرج الثمانينيات أمامها كسلة بيض. ترفع عربة هاجلي البكماء الفقيرة، وجثته، وتأخذها. الأشجار لا تعلن الحداد. القرميد الجاف المحمر في حفرته لا ينظم المناحات. الأحجار

Twitter: @ketab_n

اليـائسـة المتـفـزرة من الحرارة تُفرغ بـجنون. الأحجار، الأحـجـار، إيه أيتـهـا الأحـجـار!.. هيـ... ـه يا أحـجـار قـرة طاش! إراظجـة علي جسـر هائل الضـخـامـة تمسك (بدرا بزينه)، وتبصق على مـيـاهه المتدفـقـة مـتـمـاوجة. الأفـاعي من كل الأنواع، والأحـجـام، والأنسـاب تملأ المـاء، وتـسـيـل نحـو البعـيد. وفـاطمة في حديقة مغطاة بالعشب.. تشـرب مـن العـجين المرق الذي جلبه بيرم، وتعض أذني الصبي، وتغرز أسنانها في لحمه من أمكنة متعددة! حصان كالرصاص قائمتاه الأمـاميـتان بيضـاوان حتى الركبتين، يضيع مع الريح، ومع ركضه يكبر حفيدها أحمد. اختلطت عـصا الفـأس التي أمامـهـا مع ريش الدجاج، فلا تظهـر. قطة زهرية عمياء تطلب لحماً. قـرمـيـدها جلي الجـاف المحمر. قـرمـيـده اللقـيـط ابن اللقـيـط. قـرمـيـده نادم لكونه قـرمـيـداً. كـان يجب أن يغدو حجـارة أو تراباً، لم يحب، ولم يحبب بنفسه.

«هل جف قرميدها جلي يا ترى؟»

«لا علم لي يا أمي!..»

«الله يـبـعـث البـلاء لأمك! الله يبـعـث لك البـلاء أيضـاً. الله يبـعـث البـلاء للقرمـيـد أيضـاً. الله يبـعث البلاء لهـاجلي، ويبـعـث له بلائي أيضـاً! وليبعث البلاء للمختار والأعضاء والإمام!.. القرميد.. القر...ميد!..»

«.............»

«جـفَّت أم لم تجـف، بماذا يـخـتـلف الأمـر؟ قل يا بيـرم! بماذا يـخـتـلف الأمر؟ قل يا بيرم، الله يهدك! بماذا يـختلف؟..»

قـال بيـرم: «أنت تـعـرفين يا أمي! أنا مـعك فـي كل شيء! أنا قـررتُ أن أكون معك!..»

الفؤوس، والمجارف، والأسنان، والأظافر، ومرافق الأذرع، وكعاب الأقدام... النوم! طين القرميد الجيد يجب أن يُفتح، وينام ليلة على الأقل قبل أن يصير قرميداً. التراب متعب. طين القرميد الجيد يجب أن يُدعك ثلاث مرات على الأقل. نيموا قرميد منزل البيك سبعة أيام، ودعكوه عشرين مرة. ولماذا لا يُدعك؟ كل أهل قرة طاش كانوا عماله!.. قرميد.. نوم!.. نقود!.. بيت!.. جار!.. ليس بيتاً، بل جاراً!.. فاطمة!.. فاطمة وبيرم!..

* * *

جاء الحارس مصطفى إلى باب الحوش، ووقف: «قرة بيرم!..»

وبصوته الشبيه بصوت بقرة تُطعن وهي نائمة: «ياااا قرة بيرم!..»

استيقظت إراظجة فزعة، وتلفتت فيما حولها.

انتفض بيرم: «اصعد إلى الأعلى يا مصطفى يا آغا، إلى الأعلى!..»

قال الحارس: «أنا مستعجل يا قرة بيرم. سأتجوّل على القرية كلها مرة أخرى في هذا المساء! لدي عمل كثير أيضاً!..» وفي الوقت نفسه، فتح الباب، ودخل: «مد يدك إلى كيسك لنرى!. تقررت فريضة على أهل القرية هذا الصباح. غداً أو بعد غدٍ سيأتي القائمقام. أرسل العريف جعفر خبراً من المخفر. يمكن أن يأتي غداً ظهراً. ستجمع النقود لاتخاذ الاحتياطات اللازمة. سيرسلون رجلاً إلى (أورطاكوي) من أجل العرق والنبيذ. ستكون التحضيرات كبيرة. هيا لنرى! افتح كيسك!..»

قال بيرم: «كم سأدفع يا مصطفى آغا؟»

«ليرتان!..»

«هل سيدفع الجميع ليرتين؟»

«ما علاقتك بالجميع؟ لم يعد لك علاقة بالجميع!.. قسموا القرية إلى ثلاث درجات: ليرة، ليرة ونصف، ليرتان!..»

«أهذا يعني أنهم اعتبرونا من الدرجة الأولى؟»

«اعتبروك من الدرجة الأولى، عرفت جيداً..»

«؟؟؟؟»

«لا يوجد معي قائمة، ولكن عقلي أسلم من القائمة. جعلني المختار أقرؤها مرتين. وأنا عرفتها من أولها إلى آخرها. نعم، ستدفع الآن ليرتين يا قرة بيرم!.. صرت من الدرجة الأولى اعتباراً من اليوم!..»

«كنا ندفع فريضة القرية من الدرجة الثالثة؟..»

«إيه، حال الإنسان لا تقف في وضع واحد دائماً. تنزل أحياناً، وتصعد أحياناً. هذا يعني أنك صعدت الآن. ستقول: هل يصعد الإنسان في ثلاثة أيام؟ يصعد يا أخي. إذا ضبط أموره يصعد بثلاث ساعات. وأنت أيضاً صعدت! طورت عملك، واشتريت اثنتين كالبنات. كبر حقلك. توسعت أرضك المروية. ويقال إنك تحرث على الحصان. واشتريت عربة كالبنت من (اسكي شهير). غداً أو بعد غدٍ، ستشتري آلية وخلفها مقطورة، ومحراث أيضاً. عندك انثيان بصفرة الذهب. إذا لم تدفع أنت فريضة القرية من الدرجة الأولى، من سيدفعها في هذه القرية؟ أنا!.. أنا الأب لأربعة أولاد، الحارس، ولديه زوجة مياومة، مواليد ١٣٣٨ في قرية قرة طاش، ناحية يشيل أوڤا، محافظة بورضور، الحافي، والعاري، المدعو مصطفى بن عثمان اللامسنود سأدفع، وأنت لا تدفع؟...»

نظرت إراطجة مطولاً إلى الحارس مصطفى، وقالت: «هكذا

ياه!..» جاءت ابتسامة كورقة إلى شفتيها. وكما جاءت الابتسامة الرقيقة، ذهبت: «نحن سندفع فريضة الدرجة الأولى بعد اليوم».

نهض بيرم، ودخل، ثم عاد، وقال: «خذ ليرة ونصف» أخرجها من الصرة، ومدها له: «لا يوجد زيادة عليها. تقول للمختار: قَبِلَ أن يخرج إلى الدرجة الأولى، ولكن نقوده لم تخرج..»

قالت إراظجة: «هذا ما تقوله!.. إذا ضغط عليك كثيراً، تأتي، وتخبرني، فأنا أعطيك! الذين في درجتكم الأولى قليلون جداً! لا يخرج من يدنا أي شيء بسهولة! إذا فأفأ المختار، تعال إليّ فوراً لأدفع لك خمسين قرشاً!..»

قال بيرم: «نعم!..»

قال مصطفى: «أنا أشرح للمختار!..»

قال بيرم: «قل له ما تقول!..»

قالت إراظجة أيضاً: «قل له ما تقول!...»

ذهب مصطفى.

قالت إراظجة: «حتى تُحضّر السفرة، اذهب مع أحمد إلى خالتك سلطان مرة أخرى، وانظرا إليها، وعودا!... ماذا تفعل، وماذا تخربط؟ هل هي متعايشة مع أفعاها؟ لم نسأل عنها!..»

قال بيرم: «نذهب لنرى!..»

قالت إراظجة: «لا تتلهيا كثيراً!..»

قال بيرم: «لا نتلهى!..»

سار أحمد خلف أبيه. خرجا من الباحة.

كانا ذاهبين بخطى راكضة.

«هل سنذهب إلى صنوبر (غورأولوق) غداً يا أبي؟..»

«ماذا يوجد في صنوبر (غورأولوق)؟»

«سنجلب شجرة للسلم ياه!.. تقول جدتي: سئمتُ من هذا السلم!.. تقول: إن أباك كسلان جداً. تقول: لم يستطع تجديد هذا!..»

قال بيرم: «نجدده!..»

«هل سنذهب غداً؟..»

«لا أدري!..»

«لماذا لا تدري يا هوه؟..»

«لا أدري. سنفكر. ليأتِ الصبح أولاً...»

«ستفكر عندما يأتي الصبح؟..»

«عندما تصبح!..»

«لماذا لا تفكر الآن؟»

«الآن غير ممكن».

«لماذا؟..»

توقف بيرم، وقال: «انظر يا أحمد! نحن ذاهبون الآن إلى الخالة سلطان!..»

«ألا يستطيع الإنسان التفكير وهو ذاهب؟..»

توقف بيرم مرة أخرى: «غداً نفكر! صباحاً ننهض باكراً..»

«الآن فكر، الآن!..»

«الآن عقلي ملخبط..»

أمسك أحمد يد أبيه: «من لخبط عقلك؟»

توقف قرة بيرم مرة أخرى، ثم قال: «الكافر هاجلي لخبطه!..»

«لماذا لخبطه الكافر هاجلي؟..»

«كيف أعرف هذا؟ انظر!.. إنه يحفر قدام بيتنا!..»

«ليحفر! نحن أيضاً نملؤه.. عندما يحلّ الظلام، ننهض مع جدتي!.. وتأتي أنت وأمي أيضاً! نملؤه، نملؤه، أليس كذلك يا بابا؟»

«نملؤه!.»

«هل سيصحو عقلك عندئذ؟..»

«سيصحو!...»

«هل تفكر عندما يصحو عقلك؟..»

«أُفكر!..»

«لنملأه فوراً إذا كان الأمر هكذا...»

«لنملأه!..»

«ولنأكل خبزنا بسرعة!..»

«لنأكل!..»

«لا نجلس كثيراً في بيت الخالة سلطان!..»

«لا نجلس!..»

«ننظر بسرعة، ونعود!..»

«نعود!..»

تجاوز أحمد أباه. فتح خطواته جيداً. حين اقتربا من باب حوش سلطانجة بدأ يركض. ركض، وركض، ووقف عند الباب. فتح الباب قبل أن يلحق به أبوه. دخل.

كانت سلطانجة تتوضأ أمام الباب. دهشت عندما رأت أحمد يلهث. سألته قبل أن تنهي وضوءها: «ماذا يوجد ولاه؟ هل طلعت أفعى في بيتكم؟..»

قال أحمد: «لا!.. أي أفعى! نحن قادمان للسؤال عن أفعاك. ماذا جرى للتي لك؟»

«كيف التي لي؟»

«كالعادة! الأفعى التي ظهرت في بيتك! جئنا - أبي وأنا - لننظر! قولي بسرعة، ماذا جرى؟ هل تعايشك معها جيد أم سيء؟..»

قالت سلطانجة: «لا توجد أفعى. لم تظهر!..»

«طبعاً لا تظهر؟..»

استمرت المرأة بوضوئها: «لماذا لا تظهر؟..»

«طبعاً لا تظهر، سددنا كل الثقوب. لم يبق غير ثقب المدخنة مفتوحاً. لم يبق ثقب غيره أبداً. سدّها أبي كلها. أبي يسدّ الثقوب بشكل...»

قالت سلطانجة: «حسنُ ياه!.. لا تتكلم هكذا مستعجلاً!.. أين أبوك؟..»

«إنه قادم. سيأتي الآن!..»

ظهر بيرم عند الباب. كان متعباً. قال: «كيف حالك يا خالتي العزيزة؟..»

قالت سلطانجة: «جيدة!..»

«ما هي أخبار الأفعى؟..»

«لا يوجد خبر!..»

«جميل جداً!.. نحن سددنا الثقوب جيداً يا عزيزتي! طبعاً لا تظهر!.. لا تظهر نهائياً!..»

جففت سلطانجة يديها ووجهها بغطاء رأسها: «استشرتُ الشيخ

بيت الله اليوم!.. قال: لا تخافي أبداً!.. سأضع اليوم سورة الأنعام الشريفة تحت رأسي، وأنام...»

قال أحمد من حيث يقف: «حسناً!..»

قالت سلطانجة: «ادخلا، اجلسا!» وأشارت لهما.

قال أحمد: «لن نجلس، سنذهب فوراً!..»

قالت سلطانجة معارضة: «ماذا ستفعل لتذهب فوراً؟..»

قال أحمد: «سنملأ أساس هاجلي!..»

«متى؟..»

«بعد أن نأكل خبزنا. عندما يحل الظلام!...»

نظر بيرم إلى ابنه، وشرد.

قالت سلطانجة: «بيرم!.. ماذا يحدث لكم هكذا؟..»

قال بيرم: «أمورنا سيئة يا خالتي العزيزة! البارحة طلبوني إلى الغرفة. ذهبتُ. وعندما ذهبتُ، أخذتْ أمي هذين معها، وملؤوا أساسات هاجلي! جاء هاجلي صباحاً إلى بيتنا، وشاجر. بعد ذلك، أعاد حفره. تقول أمي: لنملأه هذه الليلة أيضاً!.. هم يحفرون، ونحن نملأ يا خالة. في النهاية سيسيل دم. يبدو لنا أن صراعاً كبيراً سينشب. ولكنهم سيبنون بيتاً قدام بيتنا. هل يمكن للإنسان أن يغمض عينيه على هذا؟..»

قالت سلطانجة: «لا تغمضوا أعينكم! من قال: اغمضوا أعينكم؟ أولاد محمد المجنون جبناء. لا عند هاجلي شجاعة، ولا عند أخوته. ليحفروا هم، واملؤوا أنتم!..»

قال أحمد: «سنملؤها!..»

قال بيرم: «سنملؤها، ولكن يا خالة سلطان، يخشى أن يحلَّ علينا بلاء ونحن نملأ، ونملأ!..»

«لا تخافوا أبداً!..»

قال أحمد: «هيا يا أبي، تأخرنا!..»

قال بيرم: «لنذهب. هيا يا خالة، بالسلامة!..»

قالت سلطانجة: «أخشى أن تبتلع الأرض أحمدك هذا!.. لو جلستم مساء هنا، فهل تُهمل الأعمال؟..»

قال بيرم: «في يوم آخر يا خالة سلطان!.. لا تزعلي، ولنذهب نحن».

«أنتم تعرفون. إذا كان الأمر هكذا، الله يسهّل لكم!.. سلما لي على أختي إراظ..»

قال بيرم: «طبعاً. بالسلامة!..»

كان أحمد قد خرج من الباب. التفت بيرم إلى سلطانجة، وضحك. وسلطانجة ضحكت.

قالت: «الحمل يشدّه الثور. وحين تأتي إلى الصراخ، فالعربة تصرخ. أحمدك هذا هكذا!..»

بينما كان بيرم ذاهباً، وافق خالته قائلاً: «هكذا يا خالتي العزيزة!..» ولم يجد علاقة بين ركض أحمد وتقافزه، وهذا التشبيه. ولم يبذل جهداً لإيجادها.

الرجال يخرجون من صلاة العشاء. رائحة السمن المحروق والبرغل تملأ جو القرية الفقيرة. جاع بيرم كثيراً. وتعب أيضاً. لحق بأحمد في منتصف الطريق. مشى الأب والابن دون أن يلتفتا إلى أي طرف، أو إلى

أمامهما. ذاهب كل منهما يمسك بيد الآخر. داخل أحمد عاصفة بدأت تتأجج. اجتمعت غيوم ذات فقاعات بيضاء، وتأخذه. يسحب أباه.

عندما وصلا إلى أرضية بيت هاجلي، توقف بيرم: «ولاه، ما هذا؟...»

في وسط الأرضية فراش. جلبوه، وفتحوه فوق قماش سميك. فوق الفراش بساط يتقافز أخضره وأحمره. هاجلي يجلس على طرف القماش الممدود، ويمسك بيده بندقية. يقطب جبينه ووجهه. في عينيه العميقتين ضباب.. يفكر.. لا حيوية فيه...

لم يقطع بيرم الأساس ويعبر. التف من جانبه. هاجلي يعدُّ خطوات بيرم بطرف عينه خطوة خطوة. مرت بين شفتي بيرم ضحكة غير واضحة. فكر: «لأسلّم على هذا!» تراجع بعد ذلك. قال: «سيتحمرن... سيتذرع بالسلام، وينشب شجاراً...»

قال هاجلي في داخله: «تعال لنتكلم! وأرسل أمك، أمك!. ولتأتِ زوجتك معها!..»

سمع بيرم هاجلي يتمتم. ولكنه لم يفهم ما قاله. يعرف أنه لم يتكلم كلاماً جيداً. «لا يتكلم جيداً بالتأكيد! هل أتكلم جيداً إذا ملؤوا أساسي؟ حسنٌ، رغم هذا، رجل صبور!...»

جاء بيرم إلى البيت.

انتصبت إراظجة واقفة: «وَضَعَ رجُلُكَ بندقية في حضنه، وجلس كما نرى!..»

قال بيرم: «ليجلس!..»

«سيطلق النار علينا، ويقتلنا!..»

قال بيرم: «يعملها!..»

ذهبت إراظجة داخل البيت، وعادت، وقالت: «من خوفه...»

بيرم: «ممكن!..»

«كله من الخوف! بعد أن أتناول خبزي، سأذهب إليه!.. ليطلق عليّ، ويقتلني لنرَ. سأذهب بإرادتي. ليطلق إذا كان رجلاً! سأجلس أمامه. سأجلس حتى الصباح. ليطلق هذا الكلب الذي سأخرى في فمه!..»

قال بيرم: «يجب جر السافل من رجله إلى الترعة! بعد ساعة ينام كالميت... لا يستيقظ نهائياً! حينئذ يجب أخذ البندقية، وإدخالها في طيزه...»

قالت إراظجة: «سحب حجراً اليوم حتى المساء. تعب كجثة! ساحب الحجر أولاً، وغاسلة الثياب ثانياً، إذا ناما، فمن غير الممكن أن يستيقظا! حينئذ، امسكه من رجله، وجره!.. حقيقة لا يمكن أن يعلم....»

جاءت خدوج إلى جانبهما، وقالت: «سأضعُ السفرة اليوم في الخارج! ما رأيكم؟ أأضعها؟..»

تبادل النظر الولد والأم.

قال بيرم: «ضعيها طبعاً. ضعيها بسرعة!..»

خدوج: «تعال يا أحمد، ساعدني يا أمي!..»

قطب أحمد وجهه، ونهض من جانب جدته.

قال بيرم: «انظري يا أمي! فاطمة قادمة!..»

نظرت إراظجة إلى وسط القرية.

قال بيرم: «في يدها غربال!..»

«تجلب طعام العشاء لزوجها!..»

«فاطمة هذه تفيد كثيراً يا أمي!..»

«تغور فاطمة، واسمها، واسمك أيضاً».

«لماذا يغور اسمي يا أمي؟»

«يغور اسم أمك أيضاً يا قرة بيرم!..»

جاءت فاطمة إلى جانب هاجلي. فتحت طرف القماش الممدود. كانت جهتها نحو بيت آل بيرم. وظهر هاجلي إليه.

جلس بيرم بحيث يتوجه نحوها. جهزت السفرة بعد قليل. بدؤوا بدسٍّ قطع الخبز الرقيق في أفواههم، وضرب الملاعق بالبرغل. كلما رفع بيرم رأسه ونظر، يرى فاطمة تنظر إليه. كانت فاطمة تقول أشياء ما عبر نظراتها الأنثوية من بعيد. لا تأكل الخبز. تنظر إلى بيرم باستمرار. كأنها تقول أشياء ما بعينيها.

قالت إراظجة: «ليحرس هذان هنا هذه الليلة. أنتم - يا جماعتنا - افتحوا أعينكم! ولنذهب نحن إلى المسطاح، ولنكسر القرميد. كلنا معاً. عند انقطاع حركة الأيدي والأرجل. عندما يضطجع الناس، وينامون! لنجعل ألفي قرميدة الحمار هذا كالطحين. ولنر ماذا سيفعل بعد ذلك؟..»

قال بيرم: «فكرة جيدة!..» وذهبت عينه إلى فاطمة. وفاطمة تنظر دائماً إلى هذه الجهة. لا تأكل الخبز، وكأنها تتظاهر أمام زوجها بتناول الطعام. أطرق بيرم برأسه، وانتظر قليلاً، ثم رفع رأسه فجأة. كانت فاطمة تنظر. لم يخطئ أبداً. تبدو كأنها تبتسم.

قالت خدوج: «انتقل جيراننا إلى أرضية بيتهم، قبل أن يضعوا أساساتهم. تُرى من محبتهم الكبيرة لنا؟..»

قالت إراظجة: «لا أحد يعرف ما بداخل أحد. إنهم يموتون الآن في طريقنا. إنهم بشوق إلينا منذ سنين.

ولكننا سيئون. هم يأتون مبادرين، ونحن لا نقابلهم. نحن، نحن متمردون...»

قالت خدوج: «ما الذي يحبونه عندنا يا أمي؟..»

«سواد عيوننا، وسواد حواجبنا... قدام بيتنا.. ولكننا لا نحبهم. لو بنوا بيتهم في إحدى الخرابات المجاورة، لعلنا نحبهم. لو بنوه الآن هناك، سنحبهم أيضاً...»

قال قرة بيرم في داخله: «نحبهم ولاه!..»

التفتت خدوج إلى بيرم بهدوء: «هل نحبهم يا بيرم؟..»

قالت إراظجة: «يجب على الناس في الدنيا أن يتحابوا، أن يتحابوووا، أن يتحابوووا!.. لا تنفد الأيام إذا لم يتحابوا!.. تغدو الحياة زنزانة إذا لم يتحابوا. إذا لم نتحاب، فلا ننتبه إلى أننا نعيش. اعبس أنت، وإذا عبس جارك، فماذا سيحدث بعد ذلك؟ ما نسميه إنساناً يجب أن يحب الناس في الدنيا يا ابنتي!...»

طومان المتمدد بجانب السفرة ينظر نحو جهة آل هاجلي...

قالت: «بقوا هنا طويلاً. ليس لهذا العمل طعم!..»

قالت إراظجة: «سنجعلهم نادمين عندما يأتون إلى هنا! حينئذ، سيذهبون برضائهم».

رفع بيرم رأسه، ونظر. أكل هاجلي خبزه. فاطمة تجمع السفرة. تضع كل شيء هناك في الغربال. بعد ذلك، وضعت الغربال جانباً، وجلست على طرف المدّة. الظلام يحلُّ تدريجياً. تدخل القرية تحت غطاء أسود فاحم. عينا فاطمة، ووجهها تضيع.

- ١٦ -
شغل الليل

يأتي باتجاه القرية مباشرة ضباب من طرف (سيفري) التابعة (لهاونا). الضباب يأتي بطيئاً.

بينما كانت خدوج تجمع السفرة، سُمع صوت الحارس مصطفى: «يا عمة!.. يا عمة إراظجة!..»

ردّ بيرم: «ماذا يوجد من جديد يا آغا؟ تعال إلى الأعلى!»

«أنا قادم. امسكوا كلبكم لنرى!..»

قال بيرم: «كأنه كلب صاخب جداً!» ونهض، وداس بقدمه على رقبة طومان المتمدد عند رأس الدرج. وقال للحارس من جديد: «تعال إلى الأعلى. تفضل، تعال!..»

صعد مصطفى، وجاء. قال: «عمة إراظ!. قبل كل شيء ادفعي الخمسين قرشاً! بعد ذلك، المختار يطلبك إلى بيته!.. أنتِ وهاجلي أيضاً... إذا كنت قد أنهيتِ تناول خبزك، فالحقيني!..»

«يطلبني الآن فوراً؟..»

«يطلبك الآن فوراً!..»

«وهل يطلب هاجلي أيضاً الآن وفوراً!..»

«يطلب هاجلي أيضاً الآن وفوراً».

بيرم: «هل أخبرته أيضاً؟..»

قال الحارس: «أخبرته. ولعله يكون قد ذهب حتى الآن..»

قال بيرم: «انهضي لنرى يا أمي!.. لأصطحبك!..»

إراظجة: «لا يلزم! أنا أذهب وحدي».

«المكان كالزنزانة يا أمي! العين لا ترى مغرازها!..»

«وإن لم تر! ماذا سيحدثَ لي؟»

مصطفى: «قرروا بسرعة، انهضوا، لدي عمل كثير أيضاً!.. سأمر على الخال (تشاقر) من أجل العسل. سيخرج عسل من أجل القائمقام غداً..»

إراظجة: «يأخذ أفندينا القائمقام هواء بدل العسل!..»

«لماذا؟ قولي لنرى!..»

«لماذا سيكون؟ هل يفتح الرجل خلية في هذا الوقت؟..»

«صحيح!.. الخال تشاقر، منذ عهد نابه، لم يفتح خلية قبل أن تبدأ مناجل القمح!...»

مصطفى: «لكن الأمر أمر. سأذهب وأقول له. أنتِ اسرعي يا عمة إراظ. سيوبخني المختار بعد ذلك! ثم إن هاجلي ذهب منذ زمن. سيصل قبلكِ، ويكسب الدعوى! إذا وصلت متأخرة، تخسرين...»

ذهب الحارس.

نزلت إراظجة وبيرم السلم من بعده.

بيرم: «أرأيت سفالة المختار يا أمي؟ نقلنا في فريضة القرية إلى الدرجة الأولى من جهة، ويطلبك إلى الغرفة أنت الأنثى من جهة ثانية!.. انتقل السافل إلى جانب هاجلي فوراً».

قالت إراظجة: «لينتقل، وليعمل ما يريد!..»

«هذا يُعدّ شرفاً في القرية».

«ليكن شرفاً!.. لن يأخذوا جبين وجهي ياه!..»

يوجد ظلٌ يجلس وسط الأساسات. وقفوا قبل ثلاث خطوات من الأساسات. تحرك الظل، وهمس: «عمة إراظ! هذه أنت؟..»

كانت هذه فاطمة. لم ترد إراظجة.

«عمة! يا عمة إراظ!.. أحمد!..»

وخزت إراظ بيرم معطية إياه إشارة. بعد ذلك، قالت: «نحن يا فاطمة! هل أنت وحدك؟..»

قالت فاطمة: «وحدي يا عمة إراظ. هاجلي طلبه المختار، راح.. والضباب قادم إلى فوق القرية..»

قالت إراظجة: «وطلبنا نحن أيضاً، لنرى ما سيقوله؟ نحن أيضاً قلنا: لنذهب، ونر!..» بعد ذلك، قالت إراظجة: «آآآه!..» وصرخت: «أرأيت يا أحمد ما وقع على رأسنا؟ نسينا خمسين قرشَ المختار يا جدتي!.. أخبرنا الحارس قبل قليل. لنعد، ونأخذها...»

عادا. قلبُ بيرم يخفق بسرعة. دخلا إلى الباحة، ووقفا..

قالت إراظجة: «اجلس القرفصاء يا بيرم!» وأمسكته من ياقته، وخفضته. رجل كبير ترتجف يداه ورجلاه.

«اسمعني يا بيرم! منذ متى يغلي دمك كالنار يا سبعي؟ منذ متى التقط شعلة، والتهب؟ أطفئه يا بيرم. كيفما كان فقد حفر زوجها الأساسات!. فهمت يا كبشي؟ في هذا الأمر ثواب!..»

قال بيرم لنفسه: «ثواب!.» وقرع قلبه كالطبل. جلس، وبقي مكانه. «حفر الحفر! لا يوجد قمر، والضباب قادم! والمكان كالزنزانة».

إراظجة: «لأذهب أنا، وآخذ معي أحمد! ابق أنت، واطفئي هذه الحرارة يا أمي!..»

لم يصدر عن بيرم صوت أو نفس. قلبه يخفق كالمجنون. كان قلبه يكفي لإطفاء حرائق العالم كماء سيل شق سدّه، وتدفق.

نهضت إراظجة بهدوء. توجهت نحو السلم. شخر طومان. قالت: «اسكت!..» وأسكتته بهدوء.

انتصبت خدوج واقفة أمامها: «أهذه أنت يا أمي؟..»

«أنا يا ابنتي!..»

«أين بيرم؟..»

«ذهب بيرم! سآخذ أحمد. المختار يريده أيضاً! أين الولد؟..»

قال أحمد: «أنا هنا!..»

قالت خدوج: «ماذا لو طلبني يا أمي؟..»

«لا يطلبك!. وإذا طلبك، فلا تذهبين أيضاً. إنه ليس بهذا الطول! لنذهب نحن الآن..»

قالت خدوج: «عودي بسرعة يا أمي! أنا أخاف...»

«وهل ممكن أن يُخاف؟ هل يخاف الطير في عشه؟ لا تقلقي، سنعود بسرعة...»

أخذت إراظجة أحمد، وذهبت. استند بيرم إلى الجدار عند اقتراب وقع أقدامهما، ثم ابتعاده. ذهب وقع أقدامهما. ذهبت إراظجة وأحمد وهما يتكلمان. نهض بيرم بهدوء. قلبه يخفق: «بم، بم..» ولا يهدأ..

عند عبورهما الأساس، قالت إراظجة: «اضغط برجلك جيداً، أمامك حفرة!..»

قال أحمد: «أضغط! ها أنا أضغط يا جدتي. لم أسقط!..»

إراظجة ترفع صوتها كي تسمع فاطمة أنهما عبرا، وذهبا: «لم تسقط، ولكنك يمكن أن تسقط. أمامك حفرة!. قلت لك: انتبه!..»

مشيا!..

أحمد: «هل ستمتلئ هذه الحفر في هذه الليلة يا جدة؟..»

قالت إراظجة: «سيملؤها أبوك؟»

«أين أبي الآن؟»

«هـ.... ي!»

أحمد لا يصمت: «أين أبي الآن؟»

«أبوك في الحفر. اختبأ كيلا يراه أحد! سينهض بعد قليل، ويملؤها. هاجلي أيضاً سيذهب إلى الغرفة. سيملؤها عندما يذهب!..»

«هل يستطيع أن يملأها وحده؟..»

«يستطيع».

«إنها حفرة كبيرة يا جدة!..»

«لتكن! أبوك...»

«ما لأبي؟..»

«أبوك سيء الحظ...»

مشيا نحو بيت المختار في الحي العلوي فاتحين بخطواتهما.

* * *

نهضت فاطمة من حيث تنزوي. تلفتت فيما حولها في الظلام. لم ترَ شيئاً. يبدو بعض الرجال بصعوبة في مقهى نوري. لا يوجد في القرية صوت أو نفس... التفتت نحو بيرم، ونظرت. كانت الأبواب مغلقة. لا

تبدو إلا أضواء ضعيفة من الحواف والزوايا. جلست القرفصاء. كانت ذراعاها قويتين كغصني شجرة تفاح فتية. كانت ترغب بأن يعصر ذراعيها رجل ذراعاه كأغصان شجرة تفاح فتية إلى أبعد الحدود! لماذا لم يكن هاجلي هكذا؟ لماذا لم يكن هاجلي منتبهاً إليها أبداً؟ لماذا ينهي عمله بسرعة عندما يتمددان في الفراش؟ قالت فاطمة لنفسها: «مريض، مريض! لتسقط الصاعقة على رأس الحمار. ما أفضل أن يكون صخرة ضخمة في (تشيل دة دة!) بدل من كونه زوجاً فوق رأسي؟» مدت ذراعيها نحو بيت بيرم. أرخت ذراعيها، وفتحتهما، ثم أغلقتهما في الظلام. شدتهما بقوة: «واحدة أخرى مكاني ستجن، ستنتحر..»

مشى بيرم نحو الأساس. الصرير الذي أصدره الباب رجَّف فاطمة. عبر جسدها تيار. مدت رأسها، وبدأت تنتظر. هل زوت أضواء عينيها؟ لماذا لا ترى شيئاً؟ إنه ظلام دامس.

مشى بيرم ببطء. كان مصمماً. اقترب من الأساس. لفت النار رأسه ورجليه وجسده كله. قلبه يخفق بجنونه القديم. كأنه لم يضاجع امرأة حتى الآن. قال مفكراً: «هذا حرام! يقولون: الحرام لذيذ! لنتذوق طعم فاطمة مرة!..» الرجال الذين يضاجعون نساء أخريات يباهون بأنفسهم، ويظهورهم في الطريق. لن يباهي بيرم أبداً.

وقف على حافة الأساس. شمّ الجو المظلم. ملأت جيوبه الأنفية رائحة زبل قوية. سمع حركة من داخل الأساس. مدّ رأسه، واستمع. عبر الأساس بخطوة. وقف. تقف فاطمة على مبعدة خطوة منه، وهي ترتجف. تكاد تجن. ضغط بيده على رأسها. كان عقله سيطير مبتعداً. جف داخل

فمه. جفّ لسانه وحلقه وهو يتنفس بسرعة. يسمع قرع قلب فاطمة. الضباب يأتي، ويرخي نفسه فوق القرية.

إذا خطا خطوة أخرى ستلمس يدُه يدَها. ولحظة تردده بأن يخطو، وجد نفسه يعانق فاطمة. ركبتا كل منهما ترتجفان. لولا احتضان أحدهما الآخر سيسقطان. أرخت فاطمة نفسها. فتح بيرم قدميه كيلا يسقط. انقطع حيله. انهار. أمسكها من خصرها، وجنبها. مشت فاطمة بسرعة. كأن هنالك مكاناً مجهزاً لهما، ويذهبان إليه.

تمددا في الحفرة. لم يستطيعا الكلام «إنه مكمن بطول شخص! أفكٌّ تكة المحرّم في مكمن لصيادين» بعد ذلك، قال بصوت خفيض: «حرام!»

أنّت فاطمة قائلة: «حلال!.. فاكهة أعطيتك إياها برضائي!.. هل تغدو حراماً؟» واندست به ليحتضنها. ترطب وجه بيرم وعيناه كثيراً من دموع فاطمة وقبلاتها.

فاطمة: «كسّر عظامي اليوم! اقتلني هنا اليوم! اخرج روحي من بشرتي. روحي حلال عليك!. أحلٌّ الحلال!..»

إلى الأمام، عند بيت علي عزت، ينبح كلب. قال بيرم لنفسه: «لينبح!» وكما يعطي الحراس الليليون إشارات لبعضهم بعضاً بالصافرات، ردت كلاب الحي السفلي على الذي عند بيت علي عزت. لا يوجد صوت أو نفس آخر. يختلط الصمت بدم القرية تدريجياً. الجن والأنس.. الجن...

كان وسط القرية خاوياً تماماً، مناسباً للعب الجن فيه. لفّ الضباب القرية كلها.

* * *

نهض بيرم، وذهب إلى الطرف الثاني من الأساس. تمدد على بعد خطوتين من حيث تضاجعا. بقيت فاطمة حيث هي. قال لنفسه: «لذيذ جداً!..» ارتخى. وبشكل ما، استطاع استجماع قواه بعد قليل. غدا المكان الذي تضاجعا فيه مستوياً برجله.

تمددا متجاورين. أسندا ظهريهما إلى التراب المستخرج من الأساس. قرّبت فاطمة رأسها من رأس بيرم، وقالت: «لن يحدث!.. آه، لو استطعنا أن نتجاور!..»

قال بيرم: «لا ضرر من هذا!..»

صمتت فاطمة.

بيرم: «لم يسيّل هاجليكِ دماً على الأساس؟»

قالت فاطمة: «لم يسيّل! سيسيل عندما يدخل..»

قال بيرم: «الدم نوعان. دم أبيض، ودم أسود. يخشى أن يسيّل رجلك دماً أسود. نحن سيلنا دماً أبيض!..»

احتكت فاطمة به، وقالت: «رحماك!.. الله يبعث لك البلاء! ما علاقة هذا العمل بذاك العمل؟ هذا العمل مختلف يا بيرم! هذا العمل لذيذ! ألذ ما في الدنيا. آه لو استطعنا أن نتجاور!..»

«قولي لزوجك أن يبني أحدى الخرابات بيتاً!..»

«حينئذ سيكون سريعاً، وكثيراً، ها؟..»

بيرم: «لا يُعرف!..»

«لماذا لا يُعرف؟»

«ألا يكفي هذا القدر؟ ألم تشبعي؟..»

«الآن شبعت، ولكن فيما بعد؟..»

«ماذا تفعل؟..»
«هل شبعت أنت؟»
«أيُشبع يا مجنونة؟»
فاطمة تبكي: «أيُشبع منك يا بيرم؟»
«لا يُشبع منك أيضاً. ولكن، توجد أمكنة يحترمها الإنسان! لم يحترمها مرّة، مرتين، بعد ذلك يجب أن يحترمها..»
«وروح الإنسان..»
«لتكن روح الإنسان!. هناك زوجك!..»
«روحي لا تريده، تريدك..»
«الصبر...»
«الصبر... بعد الصبر القبر...»
«ستحترمينه...»
«أحترمه، وأحترمه... ماذا سأستفيد؟..»
«لا يوجد حلّ...»
«كالأسيرة!.. كأن يديّ ورجلي مربوطة!...»
قال بيرم: «صحيح ما تقولين، ولكن...»
«ولكن ماذا؟..»
صمت بيرم..
سألت فاطمة: «هل تحب أنت خدوجاً هذه؟..»
«طبعاً أحبها. هذه خدوج!..»
«هل تحب خدوج هذه كثيراً؟..»
«قليلاً أو كثيراً! ماذا ستفعلين؟»

حكت نفسها به، وقالت: «حبني أيضاً!.. كثيراً أو قليلاً..»

قال بيرم: «ممكن!..»

«حبني دائماً!..»

«ممكن، على الرحب والسعة!..»

«خذني، واغلق عليّ اسطبلك! لن أؤذي خدوجاً هذه أبداً!..»

«قلنا غير ممكن ياه...»

«أكون عبدة خدوج هذه!.. وأكون لك!..»

«ماذا ستفعلين بهاجلي ذاك؟..»

«أخرى بفم هاجلي ذاك!..»

«عند أخوته!..»

«وفي أفواه أخوته!..»

«يطلقون عليك النار...»

«وفي إطلاقهم أيضاً...»

«يقتلونك!..»

«وفي قتلهم أيضاً..»

«يقطعونك قطعاً قطعاً!..»

«لا أخرج من بيتك أبداً!....»

«في بيتي غرفة واحدة..»

احتكت به مرة أخرى: «أما قلت لك اغلق عليّ اسطبلك ياه!..»

«اقنعي رجلك، وتعالوا إلى الخرابة...»

«عنيد، لا يتراجع عن عناده..»

«عنيد..»

«عنيد...»

«عنيد....»

نزلا مرة أخرى إلى الحفرة. مرة أخرى تشابكا...

وقع أقدام يأتي. يوجد ضباب.

قفزت فاطمة. اضطجع بيرم على الأرض. سمع همس أحمد. دُفن بيرم داخل الضباب...

«لم يملأ أبي الحفرة يا جدة!..»

صرخت إراظجة: «امش!..» وأمسكته من ذراعه، وسحبته.

ابتعد وقع الأقدام. بدأ ينقشع الضباب.

نهضت فاطمة، واقتربت من جديد نحو بيرم.

انتفض بيرم، ووقف.

«هذا يعني أنكم ستملؤون هذا المكان هذه الليلة أيضاً؟..»

قال بيرم: «كنا سنملؤه».

«هل تخليتم عن الأمر عندما جلبنا الفراش؟..»

قال بيرم: «لاااا!..» وقرفص: «ها نحن ملأناه ياه!..» وجذب إليه فاطمة، وقبلها طويلاً...

انكمشت فاطمة: «لم تُرِحْ روحي التي ستتنفس الصعداء يا بيرم!.. أنت لذيذ جداً!.. أنا آتي، وأجلس في بيتك غداً!.. أجلس، ولا أنهض!.. حتى ولو كان في طرف هذا الأمر موت!...»

انتفض بيرم، وقال: «أنا ذاهب. الآن سيأتي رجلك. استجمعي نفسك بسرعة. ستتبهدل بعدها... انهضي كيلا يراك على هذه الحال..»

تتنهد فاطمة: «أوووه، أوووه، سأموت!..»

انسحب بيرم، ومشى. لا (تك) في المحيط. عندما وصل إلى باب الحوش، توقف. ضباب التو ارتفع، وذهب. بزغ القمر. ورأس الجبل (ضوملو) الضخم ظهر ملتمعاً.

جاء هاجلي مجرجراً قدميه إلى جانب الفراش الذي في أرضية البيت. وقف بيرم، واستمع!..

بداية صرخ هاجلي: «يا فاطمة!..»

لم يخرج صوت فاطمة بداية. عندما لم يتلق جواباً، بدأ يصرخ أكثر: «هل نمتِ يا خلاصة القحبات؟..»

استجمعت نفسها فاطمة بصعوبة، وقالت: «لم أنم، لم أنم، لماذا تصرخ هكذا كالمجانين؟.. وهل سترضع؟..»

بدأ قلب بيرم الواقف جانباً بالخفقان من جديد.

هاجلي يصرخ: «أين أنتِ ولاه؟..»

قالت فاطمة: «في الحفرة. في قعر جهنم!» ونهضت، ومشت

«ذهبتُ لقضاء حاجة، وأنت تصرخ: فاطمة، فاطمة.. ماذا يوجد؟..»

«ولاه، عديمة الأصل!.. وهل يُجلس في الأساس لقضاء حاجة؟..»

«ماذا كنتُ سأفعل؟ إلى أين سأذهب؟..»

«واخ يا عديمة الشرف، واخ يا مشروخة الدين..»

فتح بيرم باب الحوش، ودخل. عندما دخل، وجد نفسه وجهاً لوجه مع أمه.

قالت إراظجة: «يا بطة سارحة. كاد يهاجمنا هاجلي. هل فقدت صوابك أنت؟..»

قال بيرم: «لم أفقد صوابي، لم أفقد صوابي!..» واحمر وجهه في الظلام، وندم لأنه قال هذا.

«والله كدت أقع فوقكما!.. كل هذا القدر من الحجارة رميت. ألم تعلم؟..»

صمت بيرم.

قالت إراظجة من جديد: «ألم تعلم؟»

قال بيرم: «لم أعلم».

«هيا اصعد إلى الأعلى بسرعة! إذا سألتك خدوج، تقول لها: بقيت لقضاء حاجة. أنا ضحكت على أحمد. قلت له: أبوك بقي في الخارج ليراقبنا...»

«قبل قليل كنت تقولين: يملأ الحفرة ياه..»

«شرحت له عندما وصلنا إلى الباحة. قلت له: انتظرنا دون أن يراه أحد. وقلت: هو الآن يجلس لقضاء حاجة. سيأتي الآن!..»

قال بيرم: «فكرة جيدة، فكرة جيدة، ولكنها ملخبطة..»

قالت إراظجة: «القائمقام قادم غداً. لنشتك! بدأ يضغط علينا المختار بكل شيء. لنشتك، ولنعرف، ونر».

«سيحولها القائمقام إلى العريف!..»

«لا يمكنه تحويلها! نجعله لا يحولها. أقول: ستنظر بالدعوى بنفسك، وبعينك. أقول: طالما أنك جئت إلى هنا، إلى عند قدمنا...»

قال بيرم: «حسن ياه..»

إراظجة: «أين وضعنا الفؤوس؟ الفؤوس، والجاروف..»

«من أين سأعرف؟..»

عندما صعد بيرم إلى الأعلى، جعل طومان ينبح. غضبت إراظجة. قالت في داخلها: «تعاندي دائماً، أليس كذلك؟..»

دخلا. تمدد الأولاد، وهم نيام. خدوج وما خدوج متمددون على الأرض. نظر بيرم، وتثاءب.

لكزت إراظجة خدوجاً برؤوس أصابع قدمها: «انهضي يا كنة!.. انهضي يا خدوج المتعبة!.. انهضي يا ابنتي!.. جدي لنا الفؤوس والمجارف!..»

نهضت خدوج. تتهاوى، وتسقط. إنها دائخة. لفّ النوم عينيها، ويسيل.

خرجت إلى الشرفة، ووجدت الفأس والجاروف.

قالت إراظجة: «لينم أحمد!..»

سألت خدوج: «هل سنذهب نحن الثلاثة؟..»

إراظجة: «سنذهب ثلاثتنا يا ابنتي! ألا نكفي؟»

خدوج: «نكفي، ولكن علينا أن نسرع».

مشت الكنة والحماة. بيرم قادم من خلفهما. بعد أن خرجوا من باب الحوش، قالت إراظجة: «اذهب أمامنا يا بيرم! لآتي أنا في الخلف! لنذهب كل واحد وحده!..»

قال بيرم: «مثل تدريب العسكرية الليلي!» وانطلق في المقدمة. مشى حاملاً الجاروف.

ينبعث من وسط القرية ضجيج هاجلي، وفاطمة. قال بيرم: «مازالا يتجادلان».

إراظجة في الخلف، تمشي، وتحكي بآن واحد: «أخرى في فمه! سيجعلني ألوث يدي بالدم بعد هذا العمر! انتقل إلى رأس القرية قائلاً إنني مختار، وكل عمله تحضير المقالب. كل شغله تحقيق مصالح البعض

على حساب الآخرين! وضع هاجلي المجنون تحت جناحه، وهو يدلل هذا المُخدر دائماً: حفر هاجلي أفندي الأساس! قطع هاجلي أفندي الحجارة! صب هاجلي أفندي القرميد! يجب ألا تضيع جهود هاجلي أفندي!.. صبَّ القرميد!.. سأكسر القرميد على رأسه! هو هاجلي أفندي، ولكن هل قرة بيرم عبدٌ عند آبائكم يا أرذال؟ قفوا أنتم! أم أنكم لا تعرفونني؟ أنا معروفة في قرة طاش. ينادونني قرة إراظجة. أنا آخذكم جميعاً إلى وادي ماء، وأرجعكم عطشانين!. أنا أكسر قرميدكم على رؤوسكم. أنا أجعل أرضية البيت هذه قبراً لكم!..»

بدؤوا بالفأسين والجاروف، اضرب، واضرب!.. اضرب، واضرب!.. جعلوا قرميد هاجلي المحمرّ ناعماً كالدقيق.. اضرب، واضرب! دار القمر، حتى تجاوز جبل ضوملو الضخم...

- ١٧ -
توازن طرفين

بدأ الفجر يبزغ.

استيقظ هاجلي في أرضية بيته وسط القرية.

الدنيا تشتعل في الجهة التي ستطلع منها الشمس.

في الجو لسعة برد، تجمّد.

انزلق هاجلي عن فراشه إلى المدّة وهو نائم. لا يوجد لحاف عليه. وبقي كما هو. تمددت فاطمة متراخية، وكشفت عن ذراعها وساقها. تناثر شعرها وما على رأسها. ملأت الفراش. نائمة. اندس بها هاجلي. زوجته تشتعل كالنار. فجأة، تبددت غيبوبة نومه. فتح عينيه جيداً. نظر إلى زوجته. وجه فاطمة الممتلئ يميل إلى اللون الزهري في الفجر. قال لنفسه: «كالتفاح الهش ولاه!». مدَّ يده تحت اللحاف، ومررها على فاطمة. مررها على ثدييها. عصر رأسيهما. تمطت فاطمة، وقالت: «حلاا!..» تمتمت: «الأحلّ!..» ارتجف هاجلي. احتضن زوجته، وقبلها. مرّ بلحيته على المخدّة. خطر بباله أنه لم يحلقها منذ عشرين يوماً على الأقل. عندما أراد تقبيل زوجته وهو ملتحٍ، كانت فاطمة تقطب وجهها. كان يراها بطرف عينه. استمر بمداعبة ثدييها. انقلبت

فاطمة، وقالت: «هل أحلّ الحلال!..» متمتمة من جديد. بعد ذلك، اندست بزوجها وكأنها جُنّت. اندهش هاجلي. قال: «أول مرة...» إنها أول مرة يرى فاطمة فيها هكذا. يا لما يريد هذا؟ احتضنها، وقبّلها. انغرز شعر لحيته في لحمها، وآلم ذراعيها.

انتفضت فاطمة، وفتحت عينيها دون أن تعرف أين هي، وماذا تفعل. أغمضتهما، وفتحتهما، وقالت فجأة: «آآآ... أصبح الصبح!..» أرادت أن تخلّص نفسها: «آآ...آ!..»

لم يترك هاجلي زوجته، وعصرها.

خفقت فاطمة: «قلت: أصبح الصبح يا هاجلي!..» وخلصت نفسها، وانزلقت إلى الطرف الآخر من الفراش: «سيرانا أحد..»

اقترب هاجلي. قال: «لا تهربي يا هذه!..»

فاطمة: «أصبح الصبح، سيرانا الشيخ بيت الله!..»

«اسكتي، اسكتي!... لا تجعليني أبدأ بمشيخته!..»

دفعت فاطمة ذراع زوجها: «هل جُننت؟ أم أن عقلك فقد توازنه؟..»

«قلك لك: اسكتي!..»

«اسكتي، اسكتي!... أقول لك: أصبح الصبح! حلّ وقتُ الفجر، وسيمر. الآن سيخرج الشيخ بيت الله ليؤذن. سيملأ الناس الأزقة الآن، ومازلت تقول: اسكتي، اسكتي!.. هل أنت مجنون، أم مجنون المجانين؟ أم أنك مجنون مجنون المجانين؟»

أقدم هاجلي على حركة أخرى: «اسكتي!..»

قالت فاطمة: «لا تلحّ عليّ هذا الصباح يا هاجلي المجنون. لا رغبة عندي ولو بمقدار شعرة!..»

سأل هاجلي: «مساءً؟»

قالت فاطمة: «حسنُ ياه. مساءً...»

تخلى عن الأمر يائساً. غضب...

قطبت فاطمة وجهها تماماً...

«يجب أن أحلق هذه الذقن اليوم! سنقف في حضرة القائمقام أيضاً. يجب أن أجلس في الصباح أمام الحلاق حسن الملاك!.. وأقول له: ارغ الصابون، واحلق يا صديقي!..»

استدارت فاطمة إلى جنب. كان جسدها كله «كالبرغل المطبوخ مع اللحم». كأنهم دحرجوها عن جبل صخري مغطى بالثلج، وسقطت إلى نهايته. من المفروض أن داخلها كعشب رطب بعد مطر. آه!.. لو أن أحداً لا يلمسها طيلة عشر أيام. لو أنها تنام متمددة على هواها هنا وسط القرية. وإذا سألوا: «ما سبب هذه السعادة يا مجنونة؟ لماذا تنامين وسط القرية دون خجل؟» عليها أن تقول: «قرة بيرم» عليها أن تضطجع، وأن يتدفق ماء فاتر من جانبها، وأن تدخل فيه، وتتمدد، وتغوص كالحوريات. فكرت ببيرم المساء. قالت لنفسها: «مساء الأمس صرت فاطمة أول مرة. فاطمة أول مرة..» لا يغيب بيرم عن عينيها. قالت لنفسها: «كسّر عظامي يا بيرم وطقطقها». اندست به ليحتضنها، وقبلته في خيالها. مسحت وجهها على المخدّة. تظاهرت بأنها بردانة، ولفت جسدها بذرايعها. بعد ذلك، ضحكت، ثم تأوهت. كادت تبكي. بدأ يشتعل بيدر داخلها من تحته. ومع هبوب الريح يلمع شرر الحريق.

اقترب هاجلي من جديد. جال بيده على مؤخرتها. صعد بها إلى ثدييها. تذهب يده، وتجيء وهي تخمش جلدها. يداعب زوجته متأملاً.

قفزت فاطمة ناهضة، قالت: «أنت تخرب متعتي يا ناصح! انهض أنت أيضاً ياه! لنأخذ الفراش، أو نم قليلاً أنت، ولأذهب أنا! ستسقطني على ألسنة الناس في القرية! ستجعلهم يؤلفون أغنية عنا. ستجعلهم يقولون: وضَعَ المرأة في حضنه، وضاجعها وسط القرية!... ألححت عليك كثيراً مساء بعد أن أنهيت طعامك: دعني أروح إلى البيت!.. لم تتركني! تعلقت بالذهاب إلى بيت المختار. أنتِ أيضاً يا قرة طاش شهدت مضاجعة امرأة وسطك... مجنون وحمار.. مجنون المجانين. مجنون غدار!..»

لملمت شعرها وما على رأسها. لفت غطاءها. لبست نعليها الخشبيين. جلست عند طرف الفراش، وقالت: «هل ستنام أكثر؟»

تمطى هاجلي. تثاءب. كأنه أسقط اللقمة من فمه لحظة ابتلاعه لها. كان غاضباً.

قالت فاطمة: «أجب ياه! إذا كنت ستنام، فقل: سأنام! كالناس، لأذهب. إذا كنت لا تريد أن تنام فلآخذ الفراش!..»

صرخ هاجلي قائلاً: «انقلعي من هنا يا هذه!» فجأة، انفجر غضباً، وبدأ يشتم الفراش والنوم وسلالتها!..

نهضت فاطمة، وقالت متوترة: «حسنٌ، لأذهب!..»

«لأذهب، لأذهب! اذهبي إن كنتِ تريدين الذهاب!»

يجب أن تتمكن من الانسحاب، والذهاب إلى بيت قرة بيرم.

اعتبرت نفسها أنها قررت الذهاب. وهي الآن شخصية حكاية قوية. في الحكاية تذهب إلى بيت قرة بيرم. نهضت، وصعدت إلى تلك الجهة. قفز هاجلي، وانتصب أمامها، وسألها: «إلى أين النية يا

فاطمة؟» تدفعه بقفا يدها. «أين وجهتك؟». «الوجهة التي ترغب فيها روحي!». «إلى أين ترغب روحك بالذهاب يا فاطمة؟» تردّ متبخترة: «روحي تريد قرة بيرم!..» تمشي خطوة خطوة... خطوات بطيئة... وواثقة!...

بخطوات بطيئة، تصعد سلّم الحكاية، وتصل إلى بيرم وخدوج. تضع المرأتان بيرم بينهما، ويلفانه بروحيهما أمام هاجلي، وعلى مرأى من العدو والصديق ومن قرة طاش. وعندما يلفانه تنتهي الحكاية. تنتهي نهاية جيدة. يستمتع الثلاثة بطعم تبادل الحب.

صرخ هاجلي: «لماذا لا تذهبين؟»

قفزت فاطمة، ونهضت فجأة. صارت لا حول ولا قوة! لا توجد قوة، ولا يوجد صديق أو سند يمنحها قوة في محيطها. لا يوجد غصن تتمسك به. وحيدة تماماً في قرة طاش، وفي العالم.. يجب أن يكون لها غصن أو أنها يجب أن تميز كل شيء في صراعها الذي ستخوضه مع هاجلي شخصاً لشخص...

* * *

استيقظت إراظجة اليوم مبكرة أكثر من المعتاد. لم تقذف عنها اللحاف، وتنهض فور استيقاظها. لم تستطع النوم بسبب الأحلام والعادات. ثلاث عشرة أفعى تندفع دفعة واحدة إلى داخل البيت في حلمها. التفّت الأفاعي بأنواعها حول ساقيها وفخذيها. ومن الطرف الآخر، يضحك حسنو العاري وهو يقول: «أوه..» كانت أحلاماً صعبة، أتعبتها حتى الصباح.. بيرم وخدوج وأحمد وشرفة وعثمان ينامون جميعاً. لا تستطيع رؤية تفاصيل وجوههم لقلة الضوء الداخل من فتحة

المدخنة والنافذة الصغيرة. وجهة خدوج نحو بيرم. امتد وجهها نحوه. بيرم ينام على ظهره. رأسه متجه نحو خدوج. خطر ببال إراظجة أن بيرم قد أقدم على عمل «سيء جداً» مساء. ارتعدت تحت مسؤولية ميل قلب بيرم إلى فاطمة بعد ثلاثة أولاد. قالت: «يجب أن يبرد بيرم نحوها». ولكنه رجل. وهل يوثق بحرارة الرجل أو برودته؟ قالت: «سيء ما فعلناه، سيء. سيء ما فعلناه، ولكننا ثأرنا من عدونا. الله، الله من قبل، والله من بعد، والله دائماً. جاء مجنون الحي السفلي إلى هنا لينيّك زوجته!. أووخ!» تفكر بأن هاجلي صار جاراً. توجد نافذة خلف بيته الجديد. تصعد فاطمة وتجلس. يجب ألا تشعر خدوج! هي ناضجة، وقد نضجت جيداً، وتعرف متى تصبر، ولكنها امرأة على كل حال. ماذا لو نطّت أنوثتها؟..

نظرتْ، إنهما يتنفسان أحدهما مقابل الآخر. لا توجد مسافة شبر يفصل بينهما. تحركت خدوج قليلاً. مدت ذراعها إلى رقبة بيرم، ثم سحبتها. أصدرت صوتَ: «أوووه!..» وتنفست. حركت شفتيها.

فكرت إراظجة مرة أخرى: «يجب ترك هذين وحدهما» يجب إقامة غرفة في طرف الشرفة هذا الخريف مهما حصل. يجب عمل هذا. ستضغط على ابنها مرة أخرى. هذه المرة ستجعله يعملها مئة بالمئة.

تحركت خدوج مرة أخرى. داعبت وجه بيرم. كأنها قبلته. عندما فتحت عينيها رأت أن حماتها مستيقظة. لملمت نفسها، ونهضت.

إراظجة: «اليوم لا يوجد عمل يا ابنتي، لماذا نهضت؟ لو اضطجعت قليلاً، وارتحتِ...»

خدوج: «أصبح الصبح تماماً يا أمي العزيزة!..»

يداها ورجلاها ترتجفان من الخجل. سحبت غطاء رأسها إلى الخارج، ووازنته. تمدد طومان عند رأس الدرج. وسط القرية قفز. بيت الله في فسحة الجامع الحجرية يجهز نفسه للأذان. يوجد فراش في مقسم هاجلي. تبرز ألوان بساط قوية. نظرت خدوج إلى البساط، وضحكت. بعد ذلك، أخذت الإبريق من رف الشرفة، ونزلت إلى الاسطبل. ستجلس لقضاء حاجة. الاسطبل دافئ. بعثرت الدواب المكان يميناً ويساراً. وجدت طريقاً، وبصعوبة وصلت إلى آخر حجرة الزبل. جلست القرفصاء. نهض فولاذ باشا، وملاك القمر، وبدأ كل منهما يلحس الآخر. بدأ الوبر يتساقط من رقبة ملاك القمر حيث توضع كدانة الحراثة. تكاد رقبتها تشبه رقبة فولاذ باشا. أثداؤها تصغر مع الأيام. ابنتها الصغيرة البالغة سنتان ونصف لا تنمو بأي شكل. لم تستطع المسكينة أن تجد حليباً في ثدي أمها، أو عشباً في الحقول.

قالت: «البقرة لا تُربط إلى النير. ترضّع باكورتها! ستحلب، وتعطي حليباً!..»

تقدم فولاذ باشا بالسن. الحزام يدور على ظهره في الحراثة وشدّ العربة. الثور فولاذ يشد حملاً أكثر مما يقع عليه. «يقولون: توازن طرفين، يطلق هذا القول أصلاً على معشر الثيران، ولكن الثور فولاذ مسكين!..»

لم أستطع ربطك إلى عربة
لم أستطع تجاوز حفرة
احترقوا يا جيراني
لم أستطع جعل الطرفين متوازنين.

«هذه الأغنية لك يا ثور فولاذ.. قضيت نصف عمرك مع ملاك القمر، وإذا اشترينا عجلاً في الخريف ستقضي بقية عمرك بتدريبه: قلنا بقرة، فحملناك النير، سنقول عجلاً، سنحملك إياه أيضاً. سيربى العجل على ظهرك. وعندما يربى تماماً تكون قد عجزت. لن يدفع حقك أو تحصل على عدالة».

نهضت. وضعت الإبريق عند جانب الباب. فتحت باب مخزن التبن. ملأت السلة المفلطحة بالتبن. وضعتْ تبناً أمام فولاذ باشا أولاً، وأمام ملاك القمر بعده. وبعد ذلك، أمام الباكورة «الفتاة الغضة» والأخريات. جلبت سلة عشب أخضر، ووضعته فوق التبن أيضاً. وضعت لفولاذ باشا كمية أكثر قليلاً. داعبته، وقبلته من عند أسفل أذنه. قالت له: «سبعي! يأتي زمن إطلاقكن إلى العشب الأخضر. يجب أن يعتدن تدريجياً. إذا أخرجنا الدواب كلها دفعة واحدة، تخرب. قليل من التبن، وقليل من العشب الغض، بعد ذلك، اطلقها ولا تخف!..» طبطبت على ظهر ملاك القمر، وضربتها على وركها، وقالت: «ابنتي. ابنتي لي أنا، يا فرخة جملي!...»

كانت ستخرج، خطر ببالها: بقي القذر في آخر الفتحة مكشوفاً. بحثت عن المجرفة. فجأة، تخلت عن البحث. تذكرت. أخرجوا المجارف إلى الأعلى عندما عادوا من تكسير قرميد هاجلي.

خرجت دون أن تغلق الباب. هرعت إلى الشرفة في الأعلى. تركت الإبريق، وأخذت الجاروف. نزلت من جديد. رمت القذر. عندما يبني هاجلي بيته، سيكون قذر كهذا أمام بيتهم. حماتها لا تحتمل هذا. وهل هذا يحتمل؟ فكرت: «نحن أيضاً نرمي قذرنا هكذا!» بعد ذلك، قالت:

«ولكن لا يوجد بيت خلف بيتنا». فكرت بإلقاء أربعة جواريف زبل فوقه. «يجب ألا يُرى قذر الإنسان في الخارج». بدأت تلقي. تملأ الجاروف، وتلقي ما فيه من الثقب. ومع عملية الإلقاء تستطيل ذراعاها كذراعي رجل. قالت: لأخرج الزبل المكوّم طالما تناولت الجاروف. الدجاج يبعثره في الخارج! يجب جلب عربة أغصان، وإحاطة مكان تكويم الزبل. وهكذا لا يغدو القذر في الطريق! أوف، بدأت تتراكم الأعمال! اعملي ليلاً، واعملي نهاراً!..» طحنوا قرميد هاجلي كله. لا يمكن الوقوف هنا عندما يعلم بهذا. ستقوم القيامة. ولكن، أتقوم يا ترى؟ ولكن ليس لدى هاجلي معدة. «لو أراد أن يقوّم القيامة لقومها حين ملأنا الأساسات. هاجلي متردد خواف! هاجلي واحد مسكين! يا لما تعانيه فاطمة تلك!.. الشهادة لله، بيرم يساوي الدنيا. ذراعاه قويتان. آه، لو أن لدينا غرفة مستقلة، ولدينا ماؤنا الساخن وطستنا! لن يكون هاجلي ذاك حذاءً في قدم بيرم. إنه رجل نحس لا شخصية له!... علينا أن نعمل غرفة مهما كلف ذلك، ما أجمل أن تعمل؟ ولو عمل فيها بيرم مرشَ ماء، وآآه، لو نمنا فيها كلانا!..»

تتكلم مع نفسها. تقول: «أنا ماذا أريد، أتعرف يا بيرم؟ وكأن بيرم بجانبها «أريد أن يكون لكل شخص بيت جميل، بيت واسع هكذا!.. وألا يتضايق أبداً! لكل زوجين غرفة! ولكل زوجين مرش، وماء للمرش. وإذا لم يوجد الماء، فأنا أنتحه بالصفيحة!.. لو نحفر بئراً أمام البيت!.. ولكن لنفترض أننا حفرنا البئر، أين ستذهب المياه القذرة؟ أنجعل الاسطبل ومخزن التبن بحيرة؟ ماذا عن الزقاق؟ عندها سنكون فرجة للناس. سيعرفون في أي يوم تضاجعنا!» ضحكت. «كأن أمي الآن

لا تعرف؟ نصب على أنفسنا الماء في كل مكان ضيق. نشطف الماء نحو اليمين ونحو اليسار. تنهض صباحاً، وتنظر، ترى كل مكان رطب! تتظاهر العجوز بعدم الفهم. كأن فتاة في الدنيا عاشت من دون رجل؟ ألا تعرف أبداً؟ هي أيضاً تتضايق، مسكينة! هي تتضايق، ولكن روحي تخرج من أنفي. حين أضاجع بيرم أشعر بأنني أريد أن أقول له شيئاً، ولكنني لا أستطيع. أريد أن أصدر صوتَ «مجق» وأنا أقبله، ولكنني لا أستطيع. كأن الحياة حرام. كأن زوجي المسجل رسمياً حرام عليّ! إنه عمل كالسرقة تماماً... كل يوم يخجل الإنسان! ماذا سيحدث مع الخجل هكذا دائماً؟..»

تركت الجاروف في الاسطبل، وخرجت: «خاصة أنني كدت ألف رقبة الرجل عندما استيقظت قبل قليل. وكانت حماتي مستيقظة! سترى كل شيء! غرتُ إلى قاع الأرض والله..»

مازال هاجلي نائماً وسط القرية. «إذا صار هؤلاء جيراننا فهل تضع فاطمة عينها على بيرم يا ترى؟ فاطمة المسكينة! قدرها سيء! وهي تمضي الأيام مع ذلك الرجل الذي لا لون له؟» فكرت بما سيحدث بعد أن يرى هاجلي حال قرميده. من المؤكد أن قيامة حمراء ستقوم! حماتها ستضرب هاجلي بحجر على بطنه، وتهدّه. بعد ذلك، سترمي فاطمة بنفسها على بيرم، وتقول له: «خذني، وافعل بي ما تفعله». ماذا يفعل بيرم؟ إذا رمت فاطمة المجنونة بنفسها، ترميها! هي أيضاً تشرب من ماء الحي السفلي. كل امرأة تتنفس تريد بيرم. يجب ألا يكون أولئك جيراننا. «وجه فاطمة مدور تماماً! شفتاها مكتنزتان! ثدياها وفخذاها مكورة وحلوة! إذا لم تسلب رجلي عقله في اليوم الأول، ستسلبه في

اليوم الثاني!» توقفت: «ولكن أي عذاب في مضاجعة المرأة لرجل لا تحبه، من يعرف؟ كيف تحب فاطمة هاجلي هذا؟ لا يمكن لامرأة لها عينان وقلب أن تحب هاجلي!.. والله لا تستطيع أن تحبه! آه، أنا أحترق من أجل فاطمة! لو كانت بيدي حيلة!..»

رأت هاجلي قد نهض من فراشه، وجلس. يحك نفسه بقوة وسط القرية. بعد أن أنهى حك نفسه، جلس متكئاً على كوعه.

دخلت خدوج. نهضت حماتها. واستيقظ بيرم.

سأل بيرم قائلاً: «هل نزلتِ إلى الاسطبل؟» ونظر إلى وجهها نظرة غريبة.

قالت خدوج بصوت خفيض: «نزلت..» دهشت... كيف ينظر الرجل؟ ترى هل اشتهى شيئاً؟

«هل الإبريق في الخارج؟»

يسأل برغبة شديدة...

«في الخارج. في الشرفة...»

نهض بيرم. فتح الباب، وخرج. ذهب إلى الاسطبل. ترى هل أراد أن يقول: «تعالي!»؟ هل تجد ذريعة ما، وتذهب؟ ترى هل تقول حماتها: «لحقت الولد، وذهبت خلفه؟»

ولكن، ما مدى وضوح حال الرجل!

نهضت. قالت: «نسيت إطلاق الدجاجات يا أمي، لأذهب، وأطلقها!» خرجت. مشت عبر الشرفة، ونزلت السلم.

ذهبت، وأطلقت الدجاجات من الخم الذي في زاوية الباحة. ذهبت بسرعة إلى الاسطبل. لملم زوجها نفسه مرتبكاً. بعد ذلك، نظر، وجد أن القادمة هي خدوج. ترك لملمة نفسه.

ذهبت خدوج، وجلست على أحد أجران العليق الفارغة. همست لزوجها قائلة: «بسرعة!» حين أنهى بيرم عمله، وجاء، كان مرتبكاً أيضاً. قال: «جئتِ بسرعة!..»

سأل بيرم: «هل يوجد شيء يا خدوج؟» ونظر في عيني زوجته. أم أنها ستجادله؟

خدوج لا تنبس.

كرر بيرم القول: «هل يوجد شيء يا هذه؟»

قالت خدوج: «لا يوجد شيء يا روحي! نظرت! إليّ وكأنك تقول: تعالي! لهذا جئت». مدت يدها إلى يدي زوجها. «اعتقدتُ هذا...»

ترك بيرم الإبريق. هو أصلاً لا يدري ما يفعله. قال لنفسه: «يا لحياتنا المسكينة!.. ترى هل نعيش نحن في هذا العالم؟»

أمه داخل البيت. قال لنفسه: «لندع أمي! هناك الأولاد ياهوووه! وهنا لا نرتاح أبداً!.»

- ١٨ -

خروف مبكر

وقف حسنو مختار قرة طاش على رأس عمله منذ الصباح الباكر. يجب أن يكون الرجال الذين كلفهم بأعمالٍ مساءً، راكضون خلف أعمالهم الآن. يجب أن يتفقد هو كل شيء.

نادى مصطفى، وأخذ منه الأخبار المفصلة. قال: «اشرح بالتفصيل!»

قال مصطفى: «كل الأمور على ما يرام. ولكن واحداً مع واحدٍ آخر لا يتم!»

«ما هو الواحد مع الواحد الآخر؟»

«يقول الخال تشاقر: أنا لا أفتح خلية أبداً في هذا الموسم!» وقال في داخله: «وهو واثق!»

«انظر إلى السافل! يجب إدخاله الفئة الأولى في فريضة القرية! ذكرني في آذار! جعلنا عديم الشرف هذا يكلب. الخوازيق التي ندبب رؤوسها تدخل في مؤخراتنا أساساً. العيب فينا!... المهم... ما هو الواحد الآخر؟»

«الواحد الآخر، أن الأعضاء لم يجدوا خروفاً مبكراً».

فكر المختار. طارت متعته. بعد ذلك، قال محتداً: «ناد لي هاجلي المجنون!»

خرج مصطفى ذاهباً بسرعة. وجد هاجلي مضطجعاً في فراشه وسط القرية. وصل إليه، وانتصب بجانبه، وقال: «هل نمت هنا ليلاً يا هاجلي أفندي؟»

التفت هاجلي، ونظر. قال: «أووه، هذا أنت يا حارس؟ نمتُ هنا..»

«ألم تبرد؟»

«الله يمحقهم يا هوووه! قلنا: لنخرج ليلة في متعة مع امرأة، يقولون: بزغ القمر منذ المساء! انطبق علينا هذا الحساب. قلنا لنبن بيتاً، خرجت أمامنا إراظجة المهمومة. والآن نحاول مواجهتها. اتفقت الأم والولد، وحاولا ملء أساساتنا يا مصطفى! ويدعي قرة بيرم أنه لا يتدخل في هذا الأمر! ولكن هذه حيلة أمه! إنها تُظهر هذا بشكل خاص! عليك أن تخرج، وتطلق النار على الخنزير البري! والله، انظر، يعد هذا المكان أرضي بسند تمليك. دفعتُ لصندوق القرية حرجاً من النقود. هذه النقود من لحمي. سبعمئة بالضبط. هل هذا سهل؟ وهل توجد نقود الآن؟ لماذا يتدخل هؤلاء بأرضي؟ النقود نقودي، والمزاج مزاجي! أحفر أساساً، وأبني بيتاً إن أردت، وأبيعها إن أردت! هذا الأمر يعود لإرادتي. ألا يفكر بهذا أبناء الكلاب المسعورة؟ ألا يدخل هذا في عقولهم؟ لم أعد أستطيع الصبر أكثر من ذلك!.. زاد وقوفهم أمام قدمي عن حدّه!..»

أمسك ببندقيته، ووضعها في حضنه. «إذا حاولوا أن يملؤوه مرة أخرى، سأضغط على الزناد، وأفرغ الرصاص! إذا لم أفرغه، فلن أكون رجلاً. سأمدّد جثته! بطولها! سأطفئ نارهم.. أي إنني أغضب من إراظجة

المهمومة وابنها بيرم!.. الزناد الذي سأضغط عليه، سيملأ بطنيهما بالرصاص، بطنيهما.. وسترى!..»

ضحك الحارس مصطفى دون أن يُظهر هذا لهاجلي، وقال: «أدّب الاثنين، الأم وابنها! ثم سدد على الهدف بدقة عالية! لأنه توجد رصاصة واحدة في بندقيتك. إذا ضربت، ضربت، وإذا لم تضرب، احترقت! يمكنك أن تطلق واحدة، ولا يمكنك أن تطلق الثانية. تعبئة البندقية ذات الرصاصة الواحدة تستغرق وقتاً طويلاً. إذا رميت، وأصبت واحداً، ولم تصب الآخر، هذا يعني أنك رحت في الضجة. الباقي حيٌّ يصير وحشاً مسعوراً، ويأكلك! لأنهم سيأتون إليك بالبلطات أو المجارف. إذا ضربوا يقسمون الرجل إلى نصفين. أي يصعب الوقوف في وجههم.. بالبلطة...»

صرخ هاجلي: «أممكن هذا ولاه؟ وضعت في بيت النار رصاصة خنزير! إنها رصاصة بلية ذات شظايا قلت للمختار: سأذهب وأنام عند الأساسات إذا جاؤوا مرة أخرى لملئه، فلا يوجد رصاص في بندقيتي! قال: خذ هذه، وأفرغها في بطونهم! أعطوه إياها في مديرية الزراعة!..»

أخرج صرة من تحت المخدة. فكها، وأراه الرصاصات «هل يوجد مثل مختارنا؟» هذه قطع رصاص كبيرة مقطعة بشكل عشوائي. ثلاث. رماها في الهواء، وأمسكها بيده: «إذا دخلت هذه في بطن رجل فلن يكون هناك مستقبل له. الأطباء لن يجدوا حلاً له! حتى لو اجتمع أطباء اسطنبول، وإذا نهض نجيب بك وأتى، فلن يُنقذ! لأنها رصاصة خنزير! وانظر... أي..»

«هذا يعني أنك ستضرب إراظجة وبيرم؟»

«والله لتأتِ، سأضرب تلك المرأة المهمومة! بم م م!.. وسأضرب ابنها!..»

«لم يأتيا هذه الليلة..»

«هل حزمت؟ خافوا! رأوا البندقية بيدي مساء! هذه جماعة لا يوجد عندها إقدام! لأنها فقيرة. لأنها على الحديدة. الذي يريد أن يغرد في القرية يجب أن يرّن جيبه. اشترى قرة بيرم بثلاثة آلاف من المزرعة، وها هو يكبر حديثاً».

«هل ستنام غداً، وبعد غد، ودائماً هنا؟»

«حتى أبني البيت، وأنهيه!»

الحارس مصطفى: «أصبح الصبح يا آغا! لا يمكنهم أن يأتوا الآن، ويملؤوا الأساس! انهض، واذهب إلى المختار. طلبك. القائمقام قادم، تعرف..»

نهض هاجلي، وقال: «أذهب بالتأكيد!.. لأذهب، وأرى! نحن في اللجنة! يقع على عاتقنا شغل أيضاً! لأنهض، وأذهب. في الحقيقة إن عضو اللجنة يعني... ومختارنا حسنو آغا، أعطاني هذه الأرضية ببلاش.. وأنا سأريه رجولتي».

تناول جوربه وحذاءه: «أين وصلت التحضيرات يا حارس أفندي؟ أي الإعداد للمائدة..»

«ذهب رجل إلى أورطاكوي، وأربعة أشخاص مع الرأس الحجري إلى جسد (ألويول) ليلقوا نظرة على عوارضه، ولكن الخال (تشاقر) مصرّ على عدم فتح الخلية وإعطاء العسل!»

«انظر ما فعله هذا السافل! كيف يعارض مختار قرية كبير؟ إذا قال افتح، ستفتح!..»

«يقول: النحل نحلي، والعسل عسلي، أفتح أو لا أفتح على كيفي!»

«وهل هذا الحكي معقول؟ ولكن لا تهتم! أنا أجد العذر في مختارنا. يعطي حق الرد لسافلين كهؤلاء. ما ضرورة هذا؟ ارسل رجلين، وليفتحا الخلية، وليأخذا العسل، انتهى!.. بعد ذلك، ليقل تشاقر السافل: سرقوا عسلي، عسلي! ويراجعك، وليروح ويجيء، وليطرق بابك، وليطرقه هذا السافل حتى يملّ!...»

«العضو الأول إبراهيم أيضاً لم يجد خروفاً مبكراً. حسن؟ والآن يطلبك المختار من أجل هذا!..»

ربط هاجلي حذاءه: «في قرية هذا القدّ قدها لم يجدوا خروفاً مبكراً! كفى! يجب أن يبعثروا قرة طاش هذه! وآخ من أمها، وآخ من أمها وحريمها! حسنٌ، ولكن ماذا سنفعل الآن؟ ولاه، رجل قرية قرة طاش هذه...»

وضع بندقيته على الفراش، وجمع المدّة وغطاها. رتّب الفراش بشكل ما. بعد ذلك، قال: «هيا! امش لنرَ يا حارس مصطفى! هيا لنذهب، وليأمرنا بما سيأمرنا به!..»

مشيا. وحين مرا من أمام بيت الحلاق حسن الملاك، فكر هاجلي: «إذا طال أمر الخروف المبكر، ستتأخر علاقتنا! اللحية والموسى.. امرأتنا فاطمة المجنونة.. يجب أن نستعجل بأمر الخروف..» نقل يده، وتحسسها: «ألا يوجد شغل عند معشر اللحى؟ تطول دائماً، وتطول. وطالما أن الأمر على هذا النحو فإن معشر الإنسان مشغولون! ومعشر القرويين مشغولون أكثر! في المدن يوجد أناس يحلقون مرة كل يومين

بأنفسهم! آه، يا إلهي، آه!.. » فكر بأنه يحلق كل يومين، ويقبّل فاطمة. لن تقطب وجهها بالتأكيد. ما أكثر تفكير أمّة النساء بنفسها! «وجه امرأة أملس تماماً، مدور!.. لو يخترع الكفار حلاً لأمر اللحية، سيكونون قد فعلوا أمراً جيداً جداً!.. أمراً خيراً كثيراً.. »

ولمجرد الكلام، سأل الحارس: «لم يجد الكفار حلاً لأمر اللحية، أليس كذلك يا مصطفى؟ »

فكر الحارس: «الأمر مفاجئ!.. » بعد ذلك، قال: «ملك الألمان وجده! حكى هذا الجابي يونس أفندي. وجد الملك علاجاً، إذا دهنت منه فلا تنبت اللحية أبداً. وجه الرجل كالبيضة! الناظر إليه من المقابل يظن أنه وجه امرأة. ولكن الملك نظر، فماذا وجد؟ ألا تبدأ اللحية بالنمو داخل الفم؟ قال الملك: أرجوكِ يا سيدة لحية، أنا فعلت هذا، فلا تفعليه أنت! وسحب دواءه!.. »

الحارس مصطفى هذا جرّة حديث. اسأله ما تريد. يجد الأمر ويحكي. يعرف كل شيء. فكر هاجلي قائلاً لنفسه: «لاستماعه الذاهب والقادم، وضع العالم في بطنه. ويحفظ أيضاً ما يسمعه! » كان يريد أن يمتحن مصطفى، ولكن هذا ليس وقته. حسنٌ، ماذا سيسأله لو كان وقته؟ أيسأله من أعلى القائمقام الذي في الناحية أم القاضي؟ أيهما يأخذ راتباً أكبر؟ أيهما تدخل نساء أكثر تحت ضبطه وربطه؟ قال لنفسه: «الموظف يملّ النساء! مهما يكن، لا حدود أمامه. وعندما تكون الحال هكذا، فإن وضع النساء الطبيعي وراء الباب. لن تجعلهن يقلن: أه! ستُشد عليهن التكِة.. »

زوجة المختار وابنته الكبرى تشعلان ناراً في باحة الدار. كومتا

حطباً وأعواداً عند أسفل الجدار. لم يأت الخروف، ولكنهما ستحضران الماء الساخن. ابنة المختار الكبرى نائلة تنتح ماء من البئر. رأسها ومؤخرتها تهتزان دون توقف.

مشى هاجلي نحو السلم مباشرة. قال لنفسه: «ابنة المختار الكبيرة هذه، أية فتاة ستكون والله! ستكون كالبطة! ليتباه من سيأخذها! ذات نظرة فرخ.. فرخ طير جارح.. تتقافز كالحجل حتى وهي تمشي في الطريق المستقيم.. لها شامات على صدرها ورقبتها.. وأول شيء فهي فتاة مرتبة طبعاً».

بقي مصطفى في الأسفل.

قال مصطفى: «لا تزعلي نفسك الحلوة يا أخت عطية! لعل القائمقام لا يأتي ظهراً، ويأتي مساء. معلوم ياه. جزء الرجال الكبار يصيرون محبي النوم قليلاً. لا ينهضون من الفراش حتى تصل الشمس إلى القمة. وزوجاتهم لا يحضرن لهم شايهم وقهوتهم في وقت معين. الرجال يتحركون متأخرين. بين قوله لأخرج من البيت، وخرجت، ولآتي إلى القرية، وأتيت يأتي العصر! وبيننا كل هذا العدد من القرى. خاصة أنه قائمقام ناحية كبيرة. ألا يتلهى قليلاً هناك؟ ألا يجلس ويتناول طعاماً؟ إذا لم يأكل في أية قرية، سيأكل على مائدة الحاج ولي في (درة كوي)! (عند الحاج ولي امرأة جديدة تُنزل الفارس عن فرسه..) يا أخت عطية، عند الحاج ولي...»

قالت زوجة المختار: «إن شاء الله، إن شاء الله!..» توجد شامات كثيرة على يديها ووجهها ورقبتها وأذنيها مثل ابنتها. ومازالت تحافظ على جاذبيتها كلها. لم تعان من الخدمة، ولم يسحقها الحرمان... «إن

شاء الله يتأخر قليلاً، وأنا أنهي تحضيراتي! سأري بشكل جميل القائمقام من جهة، وأعضاء اللجنة أصحاب العيون الجائعة من جهة أخرى كيف أحضّر الطعام إن شاء الله!..»

«هل يوجد من السمن الذي أخذناه من قبائل اليوروك في الخريف الماضي؟»

«يوجد، ولكن بقي قليل منه. أخبئه تحسباً لمجيء ضيف نخجل منه. إذا جعل الله طريق أولئك اليوروك يمر عندنا، سنجعلهم يحضّرون لنا جرتي جبن. لولا وجودي ستنسون كل شيء في سهل قرة طاش هذه يا مصطفى!..»

«آغاي المختار يؤمن حاجته من قبيلة يوروك أخرى إذا لم يأت أولئك! لا تقلقي لهذا يا أخت عطية. مهما يكن فإن الطريق يمرّ من مرمانا. إذا لم تسقط إحداها في فخ مختار قرة طاش ستسقط غيرها! وكما تكبسين جرتي جبن، تجعلينهم يصنعون لك ظرفي جلد مليئين بالسمن. (أنت تجعلينهم يصنعون، ونحن نفكّ تكتنا صيفاً وشتاء. هذا أمر آخر) لا تحزني أبداً يا أخت عطية. أغاي حسنو يعرف العرق الذي يؤخذ منه الدم. رجل كالثعلب!..»

قالت زوجة المختار: «والخروف! الخروف يا مصطفى. اسرعوا بهذا الخروف!.. إذا بدا أنه لن يوجد لنذبح أربعة أو خمسة فراخ ودجاج، ونبيض شرفنا. سنغدو أرذالاً!.» وفي داخلها: «رجال قرة طاش يمسكون الدفاتر والأقلام، ويسجلون النواقص دائماً!.. دائماً يحملق السفلة!..»

قال الحارس مصطفى: «جمعنا نقوداً من القرويين أيضاً. العرق،

والنبيذ، والسكر، والأرز.. كل شيء كثير، ولا يوجد خروف!.. آه من هذا الخروف المبكر، آه من الخروف المبكر!..»

* * *

خرج المختار وهاجلي إلى الشرفة متجاورين. قال المختار: «سيكون هذا العمل سريعاً، انظر!..» ووضع يده على كتف هاجلي: «ساعة على الأكثر. إذا لم يحدث هذا فساعتان، وإلا سأتضايق كثيراً! خذ معك الحارس إذا أردت!» وفي داخله: «لأنك واحد خواف!»

نزل هاجلي السلم مسرعاً، وقال: «لا يا روحي! ما ضرورة هذا؟ لا يحتاج الأمر!. إذا وجدتُ قطيع الحاج في (قياردي) فلا يستغرق هذا الأمر ساعة!.. وإذا لم يكن هناك، سأتأخر قليلاً. ولكن رغم هذا سآتي باكراً! لا تزعل!» وفي داخله: «الآن نغدو خدماً في أعمالك المحتاجة تجوالاً ياه، وأنت أيضاً ترينا عدالتك، عندما نحتاجها طبعاً..»

المختار: «هيا، لأراك يا هاجلي! حلّ هذا الأمر كما أفهمتك! إذا سألت الحاج، يريك فوراً. تلتقط ما يشير إليه، وتجلبه!..»

صرخ هاجلي من الأسفل: «أجلبه!..» وخرج من باب الحوش ذاهباً. أقدامه تلمس مؤخرته وهو ذاهب. فهو سريع إلى هذا الحدّ. قال لنفسه: «عليك أن تقول: نعم! من أجل أعمال كهذه لتتبختر قليلاً في القرية. بعد ذلك، فجأة، وإذ بك عضو أول يا هاجلي! بعد ذلك، فجأة أنت مختار!..»

نظرت زوجة المختار إلى المختار بأمل.

قال المختار: «اعتبري أن هذا الأمر قد انتهى يا عطية. تلقيت خبراً بأن قرة بيرم عنده خراف مبكرة. سيمسك هاجلي المجنون بأحدها، ويجلبه

فوراً. خلال نصف ساعة سيكون الأمر منتهياً! هكذا سنفعل. ماذا سنفعل غير هذا؟ وهل سنأكله نحن؟» بعد ذلك، التفت إلى الحارس، وأخبره بالأمر الجديد: «اذهب، وجد لنا سكين أضحية يا مصطفى! اطلبها من بيت المنجل أو غيرهم! قل لهم: سنوها، قبل أن يعطوك إياها!..»

قدم الحارس التحية، وذهب.

قال المختار: «أبصق على أساس.. وفي داخل أساس هذه القرية! أجعلهم يبحثون عن خروف مبكر منذ مساء الأمس، ولا يجدون! ما هذا العمل ولاه؟ لا يعطوننا إياه، كأننا سنحلبه! كأننا سنأخذه مجاناً. ضع تحت رأس هذه القرية ناراً، واحرقها. احرقها بكل معنى الكلمة، والله!..»

قالت عطية اليائسة زوجة المختار: «نتمنى ألا يعمل قرة بيرم إراظجة صرعة بسبب الخروف!»

قال المختار: «لا يا روحي! أهذا سهل؟ نقول له وقع خطأ، ونخرج من الأمر. إذا لم يحدث هذا نضع في يده بضعة قروش. ماذا يقول ابن الناس؟ اصرف النقود في وقتها! لا تنظر إلى ذهاب نقودك، وانظر إلى حل أمرك! وهذا الأمر هكذا..»

- ١٩ -
الطريق صاعدة قليلاً

قالت خدوج لإراظجة: «يا أمي! إذا كان لا يوجد عمل اليوم فلنملأ القدر الكبير ماء ساخناً، وندعك قعطتي ثياب. اتسخت ظهور الأولاد ورؤوسهم. الولد أحمد، هرش، هرش، يحك نفسه».

قرأت إراظجة دعاء البركة، ونهضت عن المائدة، وقالت: «حسناً ياه. املئي قدر ماء، وادعكي ظهور الأولاد ورؤوسهم جيداً. واغتسلوا أنتم أيضاً!» وفي داخلها: «كيلا يتجوّل زوجك جنباً هنا وهناك!»

نهض أحمد على قدميه، وطبطب على بطنه المنفوخة.

سألته إراظجة: «هل شبعت؟»

أحمد: «شبعت يا جدّة!»

«إذا شبعت لماذا لا تقرأ دعاء البركة؟ انظر إنك كبرت يا هذا!.. صرت بطول السقف! هيا لنرَ!»

الولد ينسى دائماً: «ليضع الله بركة إبراهيم الخليل في مائدتها! وليطل عمر أمي وأبي!. وليمنح أبي قوة سيدنا حضرة علي! وليمنح جدتي عمر أمنا فاطمة! وليمنح ثورنا وبقرتنا حيلاً كبيراً!. وليلق لعدونا هموماً لا يستطيع التغلب عليها!. وليجعل أرضنا مباركة ورحيمة!..

وليضع في موائدنا مزيداً من البركة!.. يا الله الأزلي، ويا الله الدائم!.. يا الله من قبل، ويا الله من بعد!.. آمين!..»

قالت إراظجة: «أحسنت! لتعمَ عيون أعدائنا!.. أحسنت يا سبعي!.. التفتت إلى خدوج: «كنتي! غيري ثيابه فوراً يا ابنتي! ليأخذ فولاذ باشا، ويذهب نحو الحقل ليرعاه، ولنضع ملاك القمر والفتاة النضرة مع العجل كي تتهوى! ويأتي ظهراً. واغسلي ابنك جيداً!..» التفتت إلى أحمد: «حسنٌ يا أحمد؟. ستأتي ظهراً!..»

بدأ أحمد ينفر: «دعوني آتي مساءً، وليس ظهراً! ضعوا خبزاً في كيس!..»

«ولكنك ستغتسل يا عين جدتك!.»

«لا، لن أغتسل، هه!.» لا يحب الاغتسال أبداً، يئس من الماء بالرماد. قال: «سأبحث عن الأفعى! سأرعى فولاذ باشا، وأبحث عن الأفعى! إذا وجدتها، سأقتلها..»

لم تطل إراظجة الكلام: «حسنٌ ياه، إذا كان الأمر هكذا، فانزعي عنه ثيابه يا خدوجي!. انزعي عنه ثيابه، وليذهب!..»

قال أحمد في داخله: «ربحنا!..» وضحك.

«ليرعَ الثور، ولألف له خبزاً!»

بيرم يفكر بعمق: «يجب أن يوجد الآن مسدس سليم، وسكين حادة! الأفضل مسدس! لا يستعصي! يلزم الرجل كثيراً في القرية. يجب أن يكون لك أعداء، ولكنك يجب أن تعرف كيف تتدبر أمورهم! قال الناس: يجب أن يكون عندك إما نقود أو ظهر! لم يقولوا هذا من فراغ. لا جدوى من أفكار أمي هذه! نهضت، وذهبت، وكسّرت قرميده! قلنا:

عند هاجلي طابور أخوة! قلنا إنه ضخم! ولكننا ذهبنا خلفها. إذا اتفق الأخوة الثلاثة، واعترضوك في مكان ضيق، تفضل، وافعل ما يمكنك أن تفعله!. اخرج من البلية بالطريقة التي تخرج منها. أمي تثق بالمخفر، وبالحكومة. بعد أن تُضرب ماذا تفعل لك الحكومة؟ هل ستسحب الحكومة اللكمات التي ضُربتها؟.. هل ستطرد هاجلي المجنون من تركيا؟.. كيف يمكن للحكومة أن تجد حلاً للعداوة في القرى؟ أبناء الناس يضربون الواحد دون شهود وما شهود. يمسكونه، ويربطونه من يديه ورجليه، ويلقون صخرة ضخمة على ظهره، ويقولون له: امش!. امش!... ويأخذونه إلى المخفر!. وامش إن أردت، أو متْ هناك يا هذا!.. أخوته.. إيه.. ولكن انهض بدارِ قدام البيت لنرَا.. وليغلق أمامك!.. إذا خرجت إلى الشرفة، لا ترى على بعد ثلاث خطوات! ليس شهراً، وليس سنة، بل حتى النهاية! كأنه سجن، وليس بيتاً. الرجل لا يرضى بهذا! يجب أن يفعل ما يفعل، أن يموت، أن يسقط، ولا يدعهم يبنون بيتاً قدام بيته. لا يبقى طريق لمرور حتى العربة.. بعد ذلك، من أين سأنقل التبن؟ بعد أن أنقله، وأنهيه أين سأضع العربة؟ من أي طريق سنمرر طحين وبرغل العنبر لأضعه في البيت؟.. فوق هذا، في الموضوع رائحة!. له قذر. لا يمكن مواجهة كل هذه الأمور.. فاطمة.. فاطمة سبعة، ولكن هاجلي مجنون... هناك أخوته، والمختار حسنو العاري. لو يبنون بيتهم في إحدى هذه الخرابات! بجانبنا! ولا تدخل العداوة، والتضاد بيننا! لو كان بيتانا متجاورين! تنزل فاطمة إذا غمزتها! وأنزل إذا غمزت هي! مرّة في الأسبوع على الأقل! كأكل الحلاوة! كأكل اللحم من العيد إلى العيد! إنها حارة ونضرة وسليمة! فاطمة هذه امرأة حيوية وشبقة وملتهبة، ما شاء الله!..»

هزت إراظجة قرة بيرم بقولها: «بماذا تفكر شارداً يا ابني؟»

«لا أفكّر بشيء يا أمي! تخيلت قليلاً: جعلت الثور اثنين، وعملت حوشاً للحقل، وأصلحت السلم..»

قالت إراظجة: «أما جعلت المرأة اثنتين؟»

لم يردّ بيرم. قال لنفسه: «آه يا أمي، آه!..»

«دع عنك هذا يا ابني! هل ستجد القعر إذا فكرت كثيراً؟ كان أبوك قرة شالي أيضاً يضع يده على ذقنه، ويفكر مثلك. ولكنه مات وذهب. وهو أيضاً لم يجد القعر! لم تغرق سفنك في البحر يا سبعي! لكل شيء حل. يكفي ألا تجعل الخوف يعرّج على قلبك! لا تفعل كمصارع قرة طاش الأعرج، فور اشتعاله يتعرقل من رجليه، ويسقط».

قال في داخله: «كسّري أنت القرميد.. وليسعر هاجلي وأخوته، وليهاجموك، وسترين ما يحدث! لا ينفع الهرب إن هربت، ولا المواجهة إن واجهت! إنها عصا ذات أشواك من طرفيها، ستنغرز في يدك من حيث تمسكينها..» يده على ذقنه. قال فجأة: «لا أستسلم أبداً يا أمي! ولكننا كسبنا عدواً، علينا معرفة تدبر أمره. هذا قولي. هذا قعره، وعمقه كله يا أمي. في زمن كهذا، يجب أن يكون في زنار المرء مسدس لا يستعصي! لو أطلقه في الهواء من أجل إنقاذ روحه، ففي الأمر فائدة. لم ينفع هذا، يُطلق على رِجل السافل فيسقط، وتُنقذ الروح!..»

«لا تخف! أين القلب عند هاجلي المجنون؟ دع عنك هجومه عليك، لا يستطيع أن يقول لك: بَهْ! ومن بعيد! لا يعرف أكثر من وضع بندقيته في حضنه، والنوم مع المرأة وسط القرية! لا يستطيع عمل شيء آخر، لا تخف أبداً!..»

«أف يا أمي!. ليس من خوفي. هل تظنين أن هذا من خوفي! تقولين إنه لن يستطيع عمل شيء، ولكنه إذا سمع بأن قرميده قد كُسِّر سيُجن السافل أكثر! كل هذا الجهد! وكل هذه النقود! لو كنت أنا لجننت. من لا يُجن من هذا يا أمي؟»

«اسكت أرجوك يا بيرم! ماذا أفعل؟ اسمعني أنت: وصل حتى الدرج وهو يشتم، ويعدّ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى الأعلى! الولد أحمد أمسك عصا الفأس، ووقف، وقال: إذا خطوت خطوة أخرى سأفجّر رأسك! خاف حتى منه! لم يستطع خطو خطوة!..»

«لم يستطع خطو خطوة!.. ولكنه يخطوها هذه المرة!.. هذا قرميد! أمر القرميد مختلف يا أمي.. سيسعر إذا سمع!.. أخوف الرجال يُسعر! ويهاجمك غاضباً!. حاولوا أن يبنوا بيتاً قدام بيتك فسعرت، انظري، هل أنت جريئة جداً؟ هو لا ينظر إلى الجرأة! لا يوجد ما تدعى جرأة! كل شخص يغدو جريئاً إذا دست على عرقه. من يعاند سيّداً من (بلو) يغدو (كورأوغلو)(*). دوسي على عرقه فقط. نحن الآن دسنا على عرق هاجلي. لهذا يجب أن نحتاط!..»

قالت إراظجة: «حسنٌ ياه!.. إذا كان الأمر هكذا، فاغلق على نفسك الباب، ولا تخرج يا ابني! يأتي هاجلي، ويضرب الباب، ويضربه، ثم يذهب، ويصب قرميده من جديد. وينصب الدار قدام بيتك. ماذا يحدث، يحدث لك، وليس لي!.. حتى تموت، وبعدها يحدث لأولادك!. أنا يا أمي خلصت. لدي إما أربع سنوات أو خمس، ليست ستاً! وليست ست عشرة أبداً!. أنت تعرف!..»

---

* – بطل شعبي تركي . . م .

دخلت خدوج: أكملت إراظجة كلامها: «أنتم تعرفون!..»

خدوج: «أرسلتُ أحمد!. وأطلقت ملاك القمر والفتاة الغضة، والأخريات مع الماشية!.» وبدأت بجمع المائدة التي مازالت ممدودة. وسّخ عثمان وشرفة نفسيهما كثيراً. فكرت خدوج: «كيفما كان سنغسل ألبستهما!.» مسحت لهما مسحاً سطحياً، وأجلست كلاً منهما في زاوية. أخذت قطعة خشب زيتي، وشعلة، وذهبت مجدداً. ثم قالت وهي ذاهبة: «لأشعل النار تحت! بعد ذلك، لأجلب ماءً من بئر بيت الخال آغالي. يجب أن تُنجز الأعمال، وكلها برقبتي..»

قال بيرم: «لا تغضبي يا أمي! ولا تحكي مقهورة هكذا! لا تحكي معي كلاماً كالغرباء!. لننه العمل الذي بدأناه. ستكون هنالك سكين خصر في السلة أو السلة المفلطحة. جديها لي أينما كانت، وهاتها! لأضعها هنا!. نوم الإنسان محتاطاً أفضل من النوم مع الأحلام المزعجة يا أمي!..»

* * *

قالت عطية اليائسة: «أووه!» من الأعماق عندما رأت هاجلي حاملاً في حضنه خروفاً مبكراً مربوطاً من رقبته، داخلاً من الباب الكبير: «كدتُ أنفجر من القلق! أين بقيتَ ولاه هاجلي؟ أم أنك ضعتَ في شوارع قرة طاش؟ هل يلحق الطعام على الظهر؟ لو يرسل الله معوقاً، ويأتي القائمقام مساءً. لو نضع السفرة مساءً. لو أرسل الله... أيضاً، انظر إلى هذا!.. ما الوقت الآن؟.. تفووه!..

أنزل هاجلي الخروف إلى الأرض، وأغلق الباب: «الرعاة لا ينامون في مكان نزلهم منذ أسبوع يا أخت عطية!. والذكي الحاج أخرج القطيع إلى

(ياظيوردو). انتقلت من (قايردي) إلى هناك. نشرها على السهل! ولن ينزل إلى القرية، وهو يمشي حتى الضحى!. من أين يعرف أنكِ هنا تتقلبين على نار؟ قطع بعيداً وهو يسرح به! ولكنه يلحق، لا ترتبكي! مازال الوقت باكراً. لحم الخروف غض ينضج بسرعة. وسأساعد في ذبحه وسلخه...»

نظرت زوجة المختار إلى الخروف نظرة امتعاض، وتابعت الكلام: «ما الذي أعرفه يا هذا!.. أدخلتم قدمي الاثنتين في فردة حذاء واحدة! لا تنطوا، وتلحوا حتى المساء بعد هذا!..»

قال هاجلي: «ماذا يفعل المختار. هل هو في الأعلى؟.»

«في الأعلى. عنده آغالي. يجلسان منذ فترة طويلة».

«ما مشكلة آغالي في هذا الصباح الباكر؟»

«من أين أعرف؟ رجلنا استدعاه. إنه ينهمك إذا كان سيأتي ضيف ثقيل. يستدعي هذا وذاك».

«لأنظر ماذا يفعلان؟ ولأخبره أيضاً أنني جلبتُ الخروف. أين الحارس؟ لو يذبحِ هذا فوراً!..»

«من أين أعرف؟ خرج ذاهباً. لابد أنه أرسله إلى مكان ما..»

«لأذبحه أنا إذن!. كيلا نفوّت الوقت بعد هذا!.. هل توجد سكين حادة؟..»

«توجد!. أرسل الحارس لإيجادها بعد ذهابك. إنها في الأعلى. اذهب، واسأله. اسأله، واذبحه بسرعة يا هاجلي، أرجوك!...»

«وأنا أيضاً عندي شغل مستعجل، ولكن هذا أعجل طبعاً. سأحلق ذقني. إذا كان علي ذبحه، سأذبحه يا هذه، ولكن، إن شاء الله يلحق الحارس سلخه!..»

«دخيل عينك يا هاجلي، تحلق فيما بعد» في داخلها: «يا سافل، لن تدخل عريساً ياه» ولهاجلي: «وما هو ذبح خروف بقدّ لقمة، وسلخه؟ هيا يا هاجلي السبع!»

صعد هاجلي إلى الأعلى وهو يتمايل. وصرخ من عند الباب: «هيـ.. ـه، يا مختار! وجدتُ الخروف، وجئت! انهض، وانظر إليه!. لنر إذا كان سيعجبك..»

فتح الباب، ودخل دون انتظار الصوت.

وضع المختار رأسه برأس آغالي..

سلّم هاجلي: «السلام!..»

قالا: «عليكم السلام يا هاجلي!..»

«جلبتُ الخروف، انهض، وانظر إليه!..»

قال المختار: «حسن يا روحي. ماذا سأفعل إذا رأيته؟ أما قلت لك؟ أشار إليه الراعي، وأنت أمسكت به، وجلبته..»

«ولكنني تعبتُ كثيراً! لم يكن طريقاً قصيراً ها! كان هنااااك، في (ياطيوردو)!.. بحثت، وبحثت، ووجدته بصعوبة!..»

«عرفه الحاج فور قولك له، أليس كذلك؟»

«أيمكن ألا يعرف؟ منذ كم سنة وهذه مهنة الرجل!..»

«هل هو جيد، أي هل هو سمين»

«ليس سيئاً.. سمين..»

«هل هو ثقيل؟»

«ثقيل جداً! وجذاب! خروف يؤكل!..»

قال المختار: «أحسنت يا هاجلي. قبل قليل أرسلت الحارس إلى

العضو الأول إبراهيم. لعله يتأخر. هنا توجد سكين، خذها، واذبحه! يمكنك هذا، أليس كذلك؟»

«أنا صعدت لآخذ السكين أساساً! لدي عمل، ولكن هذا العمل أهم! سأحلق..»

تابع آغالي، وتابع، وسئم من الاستماع إلى كلام المختار الذي لا ينتهي. شد حنكه جيداً، وقال: والله!.. لا تلزمني أرضية بيت كثيراً الآن! ولكن، طالما توجد ضرورة للنقود من أجل الصندوق، وخاصة لبلية التمثال هذه، أنا سأدفع لكم بقدر ما تريدون. اشيروا إلى مكان في المرعى لأزرعه وأحصده! إذا كنت تريد فعل جميلة معي، فافعل هذه!..»

قال المختار في داخله: «انظر إلى زوج القحبة هذا!» ولآغالي: «أنا فهمت رغبتك يا آغالي! أنت تريد أن تشتري مرعى منا!..»

قال آغالي: «لا، هذا ليس شراء مرعى! أنا سأدفع لكم نقوداً، وسأزرع مكاناً من المرعى، وأحصده حتى تعيدون لي نقودي. هل يوجد دين ناشف هذه الأيام؟ إذا كان موجوداً، فاعطني قليلاً! ثم انظر، من يعلم متى ستعيدونها إليّ؟..»

قال المختار: «دع هذا! دعه جانباً!.. بفرض أن صندوق القرية سيأخذ منك ديناً مقابل سند، كيف سيعيده؟ الصندوق لا يعيد ما يأخذه. وهل لدى الصندوق قافلة تجارية؟ ثم هل صندوق القرية رجل؟ من أين سيكسب النقود ليعطيك إياها؟ لا تحكي معي هكذا بشكل مطاط وملغوز يا آغالي! احك بشكل مستقيم يا صديقي! بتمام الاستقامة! قل: أنا لا أريد أن أشتري أرضية بيت داخل القرية، وأريد أن أشتري حقلاً من المرعى يا حسنو!.. وانظر، أنا سأجيبك باختصار: هذا العمل

مستحيل يا آغالي! الجيران لا يريدون بيع مرعى. هذا لا يناسب القروي. للجميع حق في المرعى. إذا بعت مكاناً بقدّ داخل الطيز، يبدؤون بالزعيق! داخل القرية ليس هكذًا. لا يهم وسط القرية إلا صاحب البيت. إذا بعتُ أرضية من هناك، فإن صاحب البيت هناك فقط يزعق. وإسكاته سهل. ها هو الآن قرة بيرم إراظجة! لأننا أعطينا العضو هاجلي أرضية بيت قدام بيته ينقّ، ولكن، لا تصغي! ليس البارحة، أول البارحة ملؤوا الأساس الذي حفره هاجلي. ناديتُه، وكلمته. يقول: أنا لم أفعل هذا، أمي فعلته! ولكنه كذاب. لتكن أمه فعلته. ماذا يختلف؟ غضبت. استدعيته. كنت سأصفعه أربعة كفوف جميلات على وجهه، تراجعت. قلت لنفسي: عنده كرامة. نصحته، وصرفته. لم أرد كسر خاطره بين الجيران...»

قال آغالي: «سمعنا، سمعنا!. ولكن يا مختار، انظر! لا أحد يرضى بهذا العمل!. وأنت تقول: من لديه بيت فقط يزعق!.. وتقول: الآخرون لا يزعقون! الأمر ليس هكذا. الجميع يهمسون! أين ستجمع المواشي يا مختار؟ وسط القرية يضيق!..»

«واخ من غير المتمدنين واخ!.. ولاه، جمع قطعان الماشية وسط القرية غير قانوني رسمياً! بعد ذلك، غير مناسب أخلاقياً، وغير مناسب دينياً. هل تُجمع المواشي تحت أُذن الجامع يا آغالي؟ فكر يا جار! أنت رجل عملتَ عضو لجنة في زمن ما. لتزبّل المواشي وتتبول، وصلٍّ بجانب تلك القذارة! ما جمال هذا الإسلام ياه؟ عيب، عيب! وعيب أمام الآخرين. ومهمتنا يا صديقي وضع نهاية لهذا! الآن اعطني جواباً صريحاً: هل تدفع ستمئة ورقة نقدية مقابل هذا المكان الذي أشرت لك إليه، أم لا تدفع؟..»

نهض آغالي على ركبتيه: «لا أشتريها، ومبروك لمن يشتريها!..»

إذا كنت لا تشتريها، فانهض يا أخي! انتهى كلامنا معك! عملت لك تخفيضاً في السعر إلى هذا الحد رغم عدم وجودك في لجنة القرية. وهذه جميلة كبيرة لمن يعرف. هيا بالتوفيق يا أخي، مع السلامة...»

نهض آغالي، وقال: «بخاطرك!»

المختار: «كن هنا عند مجيء القائمقام أيضاً. مهما يكن، وأنت أحد أشراف القرية! نُعدُّ تحضيرات كبيرة! عرق وما عرق... أنت أيضاً كن هنا.. أنت أيضاً تحكي كلمتين للقائمقام باسم القرية...»

قال آغالي: «تسلم!. أحاول أن أكون موجوداً.. وإذا لم أوجد، وإذا لزم شيء، ابعث خبراً إلى البيت. كم شخصاً سيأتي؟ هل تلزم فرش، أو ما شابه ذلك؟»

«لدينا فرش، ولكن إذا جاء عدد كبير نخبرك. أنا ممنون منك يا آغالي! أنا ممنون منك! ولكن شراءك هذه الأرضية سيكون جيداً! لم يعجبني كلامك المختلف!..»

قال آغالي: «المهم!.. لا تهتم! تبيعها لآخر! يشتريها من يقول: أبي مريض! إنها وسط القرية!..»

«لا توجد نقود عند الناس يا آغالي، أنت فكر جيداً بهذا!..»

«أنا فكرت يا مختار، وقررت!. لا أشتريه! هيا، استودعك!..»

«مع السلامة يا آغالي!» في داخله: «مع السلامة يا سافل، زوج الخراية، العاري، مع السلامة!» ولآغالي: «مع السلامة يا أخي!..»

خرج المختار مع آغالي. نزل إلى الباحة. شمر هاجلي عن ذراعيه، وهو يعمل. سلخ الخروف، وانتهى. لحم أبيض زهري طازج. قال المختار

لنفسه: «يشتهي الإنسان أكله نيئاً. انظر إلى هذا!.. حقيقة أنه خروف جيد! سيكون جيداً مع العرق! عشت يا عثمان مأمور النفوس بفضل القائمقام! هيا لنرَ يا سافل ذو قوائم ثعلب!» رفع صوته: «يعطيك العافية يا هاجلي! كيف الخروف؟ مدهن؟ أحسنت! سلخته، وانهيت الأمر، ما شاء الله!..»

أخذ هاجلي الجلد الذي سلخه عن الخروف، وعلّقه على غصن شجرة الزعرور. بدأ بتنظيف جوفه. ثرثرة زوجة المختار من جهة، وعمله من جهة، ورغبته بالحلاقة والوقوف أمام القائمقام نظيفاً في المساء، وتوقه لاحتضان فاطمة بوجه نظيف من جهة أخرى تعوّق حركته. سأل المختار: «كيف صار؟ هل اتفقت مع السافل آغالي؟»

قال المختار: «لا يا هاجلي! يوجد طنٌ من الجليد في رأس آغالي أيضاً، إذا لم يذب هذا الجليد فهل يمكنه أن يأتي، ويبني بيتاً وسط القرية؟ وهل بناء بيت وسط القرية سهل؟ سيصدأ في وادي حي الترعة، وراء بيت قرة بيرم! لا يريد أن يعيش حياة إنسانية! يقول: علينا أن نعطي القواد أرضاً من المرعى! كان ما يزرعه ويحصده لا يكفي!»

خرج الحارس قادماً، وقال: «لم أستطع إيجاد العضو الأول إبراهيم. ذهب إلى الطاحون تاركاً خبراً بأنه سيعود قبل أن يأتي القائمقام!»

صعد المختار إلى الغرفة المفروشة وهو يشتم، وقال: «ليذهب إلى جهنم هذا الدب البري! لأتخبط أنا هنا في عمل القرية، وليذهب هو إلى الطاحون! لم يعد له ضرورة يا مصطفى! أنا أصلاً لم أطلبه لضرورته، سأستشيره مجرد كلام! وبحسب الأصول!.. ألا أعرف أنا أن الخير لا يأتي منه؟ وأنه قواد لا مثيل له؟ قف أنت! ليأتِ هذا الكاتب! تاك،

لنسجّل محضراً: استقال! وينتهي الأمر! سأطرد الدب! ينهض، ويذهب إلى الطاحون يوم مجيء القائمقام! لا يُذهب إلى الطاحون اليوم! اليوم يوم مهمة! ثم اثني عشر شهراً، ولكن اظهر نفسك في يوم كهذا! انظر إلى هاجلي! ابن الناس يبني بيتاً، ويصب قرميداً، ويسحب حجراً، ولكنه لا يتراخى بمهمته! إذا استدعيته يشمر عن ذراعيه، ويركض. لماذا؟ لأنها مهمة! مهمة للوطن والأمة! ماذا يعني التحضير من أجل القائمقام؟ هام جداً! التحضير من أجل القائمقام يعني تحضيراً من أجل الوطن والأمة. لهذا فإن ما نقوم به الآن هو الإيفاء بمهمة للوطن والأمة. لا تقل قائمقاماً وتمرّ! القائمقام هام جداً: الرتبة التي تأتي بعد القائمقام هي رتبة العريف! وبعد العريف يأتي المختار!.. من أين يعرف هذا أولئك السافلون؟..»

دخل إلى الغرفة المفروشة، واستمر «بالسعي من أجل الوطن والأمة».

- ٢٠ -
مجيءُ أعمى

بعد أن أنهى هاجلي «مهمة» المختار التي في الباحة، ذهب إلى وسط القرية فوراً. وصلت الشمس إلى وقت الضحى تماماً. قطعان الماشية والعجول توزعت على السهوب منذ فترة. وذهب المشرف عليها إلى عمله. الفراش المجاور للأساس كما تركه. الدواب المجتمعة في الصباح الباكر وسط القرية بولّت على الأساس في عدة أمكنة. لا يوجد أذى للفراش ولله الشكر. قال لنفسه: «هذه المرأة حقيقة غير مرتبة. الإنسان يأتي، ويلقي نظرة إلى الفراش!» جَمَعَ الأغراض، وحملها على ظهره. «سنجلبها من جديد مساءً، ولكن بقاءها هنا حتى المساء عيب! خذيها يا ابنة البغل إلى البيت، وارميها!» مشى إلى بيته القديم في الحي السفلي، والفراش على ظهره. «ولكن امرأة واحدة ماذا يمكنها أن تفعل يا روحي؟ في البيت أعمال تقدر بالطن! لابدّ أنها جلست إلى جرن العجين فور ذهابها! كل يوم، كل يوم!. ولكن لو تسرع جحشة الحمار هذه!..»

جاءت من الطرف المقابل، من عند زاوية الرقيب حسين زينب زوجة كريم أوغلو. كانت زوجة كريم أوغلو حافية. قال هاجلي: «أمة الفقراء

دائماً حافية! إيجاد نعلين ولبسهما في هذا العالم قضية، مجرد نعلين! إذا لبس كل شخص نعلين في هذا العالم فلن يكفي جلد الحيوانات. سيبقى قسم منهم حفاة بالتأكيد!.. هوهوووه!.. »

قال هاجلي لنفسه: «واضح أنها تسخر منا لأننا نحمل على ظهرنا فراشاً. ولاه، زوجة الكلب الجربان! يا شخاخة يا رذيلة! ماذا في الأمر لتسخرين؟ انظر إلى هذه! مازالت تنظر حتى الآن! ولاه، حرست أرضي، أرضي!.. نمتُ وسط القرية! هل عندك ما تقولين؟ »

قالت المرأة: «آغاي هاجلي!.. »

توقف هاجلي: «ما هذا، هل ستقولين شيئاً؟ »

«آغاي هاجلي، سأقول شيئاً، ولكن... »

«قولي إذن! لماذا تنثني، وتنطوي؟ »

«سأقول، ولكن لا تغضب مني يا آغاي هاجلي! »

كح هاجلي بشكل خفيف، وقال لنفسه: «انظر إلى رداء الميت هذا! »

«هل كان القرميد الذي في حفرة القرميد لك يا آغاي هاجلي؟ »

اكتوى قلبه مصدراً: «جززززز». قال لنفسه: «كان لك، كان؟ »

«القرميد سحق يا آغاي هاجلي. اذهب، وانظر! انظر، ولكن لا تغضب مني لأنني أخبرتك! قبل قليل ذهبتُ إلى دار أمي، ورأيتها عند عودتي. سحق القرميد الذي في المسطاح، وصار بنعومة الطحين! »

رمى الفراش الذي على ظهره دون أن يعرف ما يفعله! تبعثر الفراش واللحاف والمدّة والبساط الملون والبندقية التي داخل اللحاف وسط الزقاق...

في أثناء ركض هاجلي بقوته كلها إلى حفرة القرميد جمعت زوجة كريم أوغلو الأغراض المتناثرة، ولفلفتها، ووضعتها على ظهرها، وأخذتها مباشرة إلى بيت هاجلي. أمسكت البندقية بيدها. في أثناء أخذها، قالت: «حسناً إنها لم تنطلق». وأدارت فوهة السبطانة نحو الأرض.

المرأة زينب: «لعبوا لعبة بقرميد هاجلي!..»

* * *

يركض هاجلي كالريح. تولّد في قلبه كل شيء. للحظة دعا قائلاً: «أرجو من الله ألا يحدث ما تولد في قلبي!». هدأ الركض قليلاً ليتأخر قليلاً بمعرفة ما حدث. للحظة دعا قائلاً: «لو أن ربع القرميد مسحوق والباقي سليم» في لحظة أخرى دعا أن يكون نصفه سليماً. بعد ذلك، قال: «لا، لا!» يجب ألا تكون واحدة مسحوقة. بذل جهداً، وصبب عرقاً، ودلق نقوداً. هل جمع تلك النقود من الوادي؟ إذا كان الأمر هكذا، فمهما فعل بقرة بيرم هذا قليل: «يجب أن يمسك البندقية، ويطلق عليه من قدامه. عليه أن يشد الزناد، ويملأ بطن ابن الكلب قبل أن يقول: اثنين، واحد! هل هذا عمل ولاه؟ هل هذا عمل تقبله الإنسانية؟ أليس هذا كفر ولاه؟ أليس هذا فساد دم؟ أليس هذا عمل موسكوي وشيوعي؟ أيقلُّ هذا الذي تفعله عن حرق بيدر ولاه؟ ولكن قف، قف يا قرة بيرم! سأجد فرصتك المناسبة! إيه لنر! هووهوووه... ولاه كافر، ألا تعرف أن الماء يخرج من بيتي؟ ألا تعرف أنني أكح ليلاً نهاراً؟ وأن ذراعي وظهري تؤلمني؟ لتنل ما تناله! لا تُنس هذه!..»

وصل إلى مسطاح القرميد: كله محموق، كله!..

ركبتاه ترتجفان. كل شيء أسوأ مما تخيله. صار مسطاح قرميد ضخم بنعومة الطحين! وبعد ذلك تم تفقده كله. «من كان في قلبه قليل من الإنسانية لا يفعل هذا حتى مقابل النقود! انظر!.. انظر... ولاه، أما كنا سنبني بهذا القرميد بيتاً على واجهته طغراء وسط القرية؟ أما كنا سندفن رأس ثور ضخم في جداره؟ أما كنا سنصنع له أبواباً بخشب الصنوبر الشبيه بالعلكة؟ أما كنا سنكتب على جبهته «ما شاء الله» بشكل جميل؟ أما كنا سنحفر في جدرانه خزائن ذات خشب جميل؟ أما كنا سنفرش شرفته ونجلس في الأمسيات مقابل الأعداء والأصدقاء؟.. ولاه ابن القحبة؟ ولاه سافل ابن الذي أخرى على قبره!.. انظر إلى هذا، صار الجهد المبذول تراباً وغباراً!.. أهينت نقودنا، وأهين عرق جباهنا!..»

تجوّل وسط مسطاح القرميد المخرّب. صرخ بصوت مرتفع: «تفووووووه!»

يشتم بصوت مرتفع..

بدأ يركض نحو وسط القرية، وكأن هذا خطر بباله فجأة. لا يرى المكان الذي يدوس فيه. منهمك وكأن لسان حاله يقول: «تحركوا، فالعدو قادم!» دخل إلى وسط القرية بتلك السرعة. بدأ يجمع حجارة في حضنه. «لا يجوز ترك بابهم ومدخنتهم ورؤوس سلالتهم سليمة! عليك أن تعمل لهم ما عملوه لك! يجب أن تفرم لحم ذلك الخنزير البري قطعاً قطعاً! عليك أن تسيّل دبس رأس فرخ الموسكوي!.. رائحة الدم تزيّغ عيني، الدم!.. الدم، الدم!.. قف ولاه هاجلي، كن ذكياً!.. اندفع إلى بيت السافلين كالبرق! واسحق نسل الكلاب واحداً واحداً!..»

عينه لا ترى الأرض ولا السماء. يرتعد من يرى وجهه أصفر، وفمه يفور منه الزبد، وعيناه داميتان، وهو يرتجف. هو لا يرى أحداً. فهموا سوء حالته، فتبعوه. لا يرى. يقولون: «حال عجيبة غير إنسانية!»

ركض إلى باحة بيت قرة بيرم مباشرة. دفع الباب الملفق، فقلعه. كانت إراظجة في الباحة. بيدها مشط، وأخرجت العجل الرضيع المقمل إلى الشمس، تمشطه، وتكسر القملات. في الزاويةِ قدرٌ يغلي.

خدوج تجلس إلى جرن الغسيل.

«سلالتكم السابعة، وجذركم، والذي صبكم وقولبكم، وماضيكم، ومستقبلكم، ودينكم وإيمانكم!.. يا هووووه!..»

اندفع إلى الداخل. رمى الحجر الأول نحو القدر. رمى الثاني!.. الحجر الثاني أصاب خدوج على ظهرها.

تكورت، وصرخت: «يا أمي!» كادت أن تروح بانقطاع النفس. انكبّت على الأرض.

رمى هاجلي واحدة أخرى، وأخرى. انتهت الحجارة من يديه. بدأ بالصفع واللكم هذه المرة.

صحت إراظجة متأخرة. لم تفهم ما تعرضت له فجأة. اعتقدت أنه زلزال. المتمرد يضرب بكل ما يستطيع! كاد يخنق كنتها أو يقتلها! صرخت بكل قوتها: «دخيلكم!.. دخيلكم، النجدة!.. النجدة يا طوماني!..»

هجم طومان من أعلى السلم بلمح البصر. قالت إراظجة: «طومان!» وهجمت بنفسها. أمسكت هاجلي من ياقته. أمسكها هاجلي من ذراعها، وقذفها. انهارت المرأة على بعد ثلاث خطوات. تصرخ:

«انظروا، واشهدوا يا جيران!.. أرجوكم يا جيران!.. إنهم يرتكبون جريمة في وضح النهار!.. ولاه بيرم، الحقنا... هل أنت حي أم ميت؟ أي خراء أنت يا بيرم! ماذا تفعل داخل البيت؟ الحـ....ق!..»

لحقَ طومان، وأخذ هاجلي من كمه.

ظهر بيرم في الأعلى حاملاً حطبة كبيرة. ترك هاجلي خدوجاً، وهو يعارك الكلب الآن. يضربه بالحجر، ويركله.. وحتى بالقبضة. يكاد الكلب يغدو جارحاً...

تحركت إراظجة، وهاجمت من جديد. مزقت ياقته، وخمشته من وجهه وعينيه: «قتل كنتي، قتل غزالتي! راحت كنتي، راحت بطتي. راحت خدوجي الجميلة!..»

اقترب بيرم من هاجلي. ولحظة قفزه عليه أسقطه أرضاً. بدأ يضربه. لا يميز بأن هنا عيناً أو حاجباً. يضربه بالحطبة التي بيده هنا وهناك، وأينما أصابه.

ذهبت إراظجة، وانكبت فوق خدوج. بدأت تبكي فوق خدوج، وتصرخ أحياناً نحو بيرم: «اضرب، اضرب! اقتل بارد المخ هذا!. اضربه، واقتله طالما أنه جاء إلى أمام بيتك. اضرب عديم الأصل هذا واسفك دمه! .. هو هووووه، هوو! راحت كنتي، راحت بطتي! هوووو، هوو!..»

ملأ الجيران المكان. ملؤوه، ولكن لا يوجد غير النساء والبنات! حاولن الإمساك ببيرم. امرأتان أو ثلاث أخذن الحطبة من يده بصعوبة. سقط هاجلي في أحوال صعبة. سحبن بيرم من فوقه بصعوبة بالغة. دفعن طومان. أمسكن الرجل، وأنهضنه عن الأرض. في تلك اللحظة تورمت عيناه ووجهه. صار أزرقَ. لم يبق عنده حيل للوقوف على قدميه.

أمسكنه. مازال الزبد يفور من فمه. يشتم، ويلقي كلاماً ثقيلاً . وحين يشتم هكذا يسعر بيرم. هاجلي يتأتى: «سأمسح جذركم.. جذركم ولاه من هذه القرية!..» الدم يسيل من ساقه. جرحه طومان.

«ولاه زوج القحبة!.. ولاه، أبو قرون!..» كان بيرم يشتم فاطمة أيضاً.. خجل.

خدوج تصرخ من عند الجرن الذي سقطت بجواره: «دخيل الله!..» تئن: «ظهري، يا أمي العزيزة ظهري!..»

إراظجة لا تهدأ: «راحت كنتي! راحت كنتي الجميلة!.. راحت في وضح النهار! جاؤوا في وضح النهار لسلب روح، روح، رووح! انظروا إلى حالنا، انظروا يا جيران، انظروا كيف هي تعبانة!..»

يقول هاجلي مستمراً: «سأمسح جذركم!..»

بصعوبة تستطيع ثلاث نساء الإمساك ببيرم.

«كيف يأتي إلى أمام هذا البيت! مازال واقفاً! اتركوني! لا تمسكوني!..» يرفع النساء الممسكات بذراعه، ويسقطهن.

خدوج تئن: «ظهري، ظهري يا أمي العزيزة. ينقصم ظهري.. اعطيني مسنداً يا أمي العزيزة! أرجوكم، أعطوني مسنداً!..»

أخذوا هاجلي، وأخرجوه من الفسحة. لم يكن في حال تمكنه من الذهاب إلى الحي السفلي. حملوه إلى بيت البقال حسين جاويش.

عدة نساء أيضاً اجتمعن عند رأس خدوج. أنهضوها، وأخذوها إلى الأعلى.

انقطع صَخب القرية برهة. استنفرت الكلاب، وهي تنبح. تنتشر أغصان المشاجرة وفروعها من فم إلى فم بصوت مرتفع.

بعد قليل، تقاطر أخوة هاجلي. جاء مولود ومحرم وعمر الأغبر راكضين، حاملين العصي الغليظة. ظهر رجال من البيوت المطلّة على وسط القرية. ركضوا. ركضوا، وأمسكوهم. أغلقوا باب حوش بيت قرة بيرم.

إراظجة التي لم تمسّ رأسها أية لكمة وسط كل هذا الشجار والضجيج تعدّ، وتتنزل بسلالة هاجلي المجنون.

طومان ينبح باتجاه الحي السفلي. وهو يلعق دم هاجلي المتبقي حول فمه، وعلى شفتيه.

- ٢١ -

ضوء طويل

ضج المكان.

المختار طلب هاجلي فوراً. طلب معلومات حول «المعركة» الأخيرة. لم يكن لسان هاجلي وفمه في حال تمكنه من تقديم المعلومات. الخشبة الغليظة زرّقت كل جزء منه. نصفه مضمّد بشكل ما. جاء متهالكاً.

يئن قائلاً: «ذهب قرميدي، قرميدي ي ي! سحقوها ليلاً ونحن نائمون عند الأساس! هل نعمل عملاً سيئاً يا مختار؟ نحن نبني لأنفسنا بيتاً. لكل طير عشه الجاف. يخرج الماء من الذي لنا. سنبني واحداً جديداً. سنتخلص من طين الحي السفلي. سحقوا قرميدي كله. والآن ماذا سأفعل يا مختار؟..»

الحارس مصطفى يشم رائحة شجار منذ زمن طويل. كان يتوقع أشدّ من هذا. كل شيء ممكن. القرية! بيرم في طرف، وهاجلي من الطرف الآخر. واضح تماماً، أليس كذلك؟ فالمختار يدعم هاجلي. بيت هاجلي في الحي السفلي وسط الماء. ولكن جداراً أسود داكناً سيُغلق أمام بيت بيرم. وهاجلي يقول صباحاً ومساءً: «سئمت من هذا البيت!». ينام وينهض، ويكح. ويستيقظ، وكأن مطرقة حديدية تدق على رأسه. وأم بيرم تنرفز

صارخة: «كافر الحي السفلي سيدخلني القبر قبل أن أموت!» هاجلي - بيرم، بيرم - هاجلي... بيرم - مختار - هاجلي... وتبقى القرية وسط النار والدخان.

سأل المختار: «ماذا جرى للخروف»

قال الحارس مصطفى: «إنه يطبخ يا سيدي!»

يجلس هاجلي على ركبتيه، وينحني إلى الأمام في الزاوية. العضو الأول إبراهيم - وقد عاد من الطاحون. واقف. المختار واقف. اتخذ مصطفى موقفه الأكثر جدية ورسمية. يقول: «نعم يا سيدي، بدأ الخروف ينضج يا سيدي!» كان مجيء القائمقام قريباً.

«ألا يأتي هذا السافل الذي ذهب لجلب العرق؟ هل غادر أورطاكوي، وذهب أبعد منها؟..»

«لم يأت بعد يا سيدي! على وشك أن يأتي!..»

قال المختار نفسه: «انظر إلى هذا الحيوان! تظنه مراسل قائد الدرك! أو حاجب سيدنا القائمقام!...» ثم قال لمصطفى: «اسمعني يا حارس مصطفى، أنا أصدر لك أمراً! مجيء الضيوف قريب! تأخر الوقت كثيراً، لدينا ساعة أو ساعتان، أو ليس لدينا هذا الوقت. ضع مراقباً في (تشيل دة دة). وليعطنا إشارة فور رؤيته الخيالة في السهل، لكي نتصرف، ونقابلهم! قبل هذا، نادِ لي محرم محمد المجنون، وقرة بيرم إراظجة. انتبه، سيأتي محرم محمد المجنون قبل خمس دقائق! وقرة بيرم بعد خمس دقائق. احذر من مناداة بيرم بداية!» وقال في داخله: «لنجعل ابن الدب هذا يتوضأ وضوءاً طويلاً! لنجعله يتوضأ وضوءاً طويلاً يمكنه من أداء صلوات كثيرة، وبشكل مريح جداً» ولمصطفى: «في الوقت نفسه يجب أن تكون

هذه الأمور سريعة يا مصطفى! وقبل كل شيء محرم محمد المجنون! رغم كل هذا يمكنك أن تذهب فوراً! ها، انظر!.. بعد ذلك، ستأتي، وتضعني بصورة كل شيء! هل استطعت أن أوضح لك؟..»

ضرب مصطفى قدميه، واستدار بأسلوب الثكنة، وقال: «على رأسي يا سيدي!..» وقال في داخله: «قواد صاحب مظاهر! سيوزع علينا كلاماً، ليجعل المظهر مناسباً للعيون! ألا أعرف قصده الحقيقي أنا؟ القائمقام قادم ياه، فهو يدربنا كثيراً!.. المهم!..» للمختار: «بداية، رجل إلى تشيل دة دة! بعد ذلك، محرم محمد المجنون، وبعد خمس دقائق قرة بيرم إراظجة!..» وفي داخله: «سيذهب قرة بيرم إراظجة تحت الكبس!.. مسكين قرة بيرم!.. إلى أي حدّ يقف هذا السافل وراء هاجلي المجنون؟ لو أن هذا المجنون حيوان أليف فهل يمكن النظر في وجهه؟»

* * *

قال بيرم: «يجب أن يوجد مخفر جيد قربك! وعلينا أن نريهم! كيف يداهم البيت، وكيف تُضرب المرأة، وكيف يستدعى المظلوم إلى غرفة المختار لتوبيخه؟ كان علينا أن نريهم! أنا لستُ جاهلاً بهذا يا أمي: بدأ ينبح هذا السافل إلى جانب هاجلي فوراً يا أمي!..»

إراظجة: «لينبح بقدر ما يريد! لينبح الكلب، وليتعب فمه! ولكن، طالما أنه طلبك، ستذهب، وترى ما يوجد! ستكون مذنباً إذا لم تذهب! إذهب، ورد على كل ما يسأله، وتعال!..»

قال بيرم: «يا روحي أمي! سيتمتم، ويتمتم! سيقول: لماذا سحقت قرميد هاجلي؟ فوق هذا لماذا ضربت هاجلي؟ وفي النهاية سيقول: أنت مذنب! إدفع للرجل قرميده!.. ألم ننبهك من قبل؟..»

«حسنٌ ياه!. اذهب، ورد عليه أنت أيضاً! قل له: لا حق له أن يبني بيتاً قدام بيتي! قل له: لينقلع، ويبنيه في أي جهنم يريد! قل له: لا أريد!..»

تركت خدوج الأنين دون جدوى. نهضت بصعوبة بالغة. نزلت إلى الأسفل، وعادت للانكباب على جرن الألبسة. مع أنها لا طاقة لديها أبداً. فالحجر الذي ضربها به هاجلي خرب المكان الذي أصابه. الحجر، والركل، والصفع دوخها. قالت لنفسها: «حصان وبغل يتبادلان الرفس. حصان وبغل.. دائماً هكذا.. ما ذنبي في هذا الشجار؟ ما ذنبي الذي رأيته يا هاجلي البغل؟ إذا كسروا قرميدنا فهل يذهب بيرم، ويضرب فاطمة هكذا؟ بيرم، بيرم ليس رجلاً يرفع يده على امرأة! حدث هذا مرة واحدة فقط. مرة واحدة، ولكنها امرأته هو! لِمَ سيضرب امرأة الناس غير المذنبة؟» كان كل جانب من جوانبها يؤلمها. خيط رفيع من خصرها إلى الأعلى ممتد نحو القلب قد انقطع. لا طعم، ولا خصوصية له. ألم في الرأس، ودوخة... الأمكنة المقطوعة تؤلمها.

قال بيرم: «يا أمي! يذهب هاجلي الآن، ويشتكي، مع أننا يجب أن نكون نحن المشتكون؟ ثم إنه يطلبنا إلى الغرفة» كان هذا يحزنه إلى حدّ كبير!.. «عالم مقلوب! إنها عبارة خالتي: تصرخ العربة عندما يجب أن يصرخ الثور. لا تتدخلي بهم يا أمي، بعد قليل يأتي القائمقام...»

قالت إراظجة: «يأتي! يشرب القائمقام العرق والنبيذ، ويأكل طعام المختار، وينام على فراشه، ويذهب! القائمقام الحقيقي لا يأكل طعام المختار، ولا يشرب عرقه، ولا ينام على فراشه!..»

قال بيرم: «يجب رؤية القائمقام قبل نزوله إلى البيت يا أمي! قبل

شرب العرق، وقبل أن يملأ بطنه، علينا أن نشرح له حالنا، وقبل كل شيء. وهو إذا كان في قلبه ذرة إنسانية يجب أن يفصل بين صاحب الحق والظالم!..»

«أنت اذهب أولاً إلى المختار، وجدد شكواك! بعد ذلك سيكون لنا وجه لمقابلة القائمقام. كيفما كان فهو سيأتي إلى عند قدمنا. وإذا لم تخرج أنت إليه، أخرج أنا. أقول له: يا سيدنا أريد أن أراك على انفراد، وأقول لك شكواي في أذنك فقط، لن يسمع شخص آخر، وأنت سترينا درجة عدالتك، والحليب الذي رضعته من أمك!.. هيا أنت، إلى الغرفة الآن! لا تتعب الحارس مرة أخرى بعد قليل!...»

نهض بيرم. لا يريد أن يذهب أبداً. في داخله صوت يقول له: «لا تذهب!». نظر إلى زوجته. زوجتُهُ تحرك خصرها وذراعيها بصعوبة وهي منكبة على الملابس. تأسَّف على وضعها. قال لنفسه: «ولاه، هاجلي المجنون، ولاه حمار! ولاه، قتلُك قليل!..»

قالت خدوج: «إلى أين؟ لعند المختار؟»

«لعند المختار! اتركِ، إذا كان ذراعاك ورأسك يؤلمك كثيراً!. لتغسل الباقي أمي..»

على وجه خدوج ألم شديد: «ظهري يؤلمني كثيراً. يوجد خيط ياه يصل إلى قلب الإنسان، أشعر بألم وكأن ذلك الخيط قد انقطع! وهناك دوخة أيضاً...»

«اصعدي أنت!» نادى أمه: «يا أمي ي ي!..»

خفق قلب إراظجة لهذا الصوت المؤلم. خرجت فوراً.

«انزلي، واغسلي أنت هذه الألبسة! حالها سيئة، لتصعد إلى الأعلى، وتتمدد قليلاً!..»

«وهل يوجد من قال لها: اغسلي الألبسة» بالقوة؟ هي ذهبت وحدها! هيا، لا تتماهل أنت، اذهب بأسرع ما يمكن! واجلب لي خبراً بسرعة! ها أنا نازلة» وفي داخلها: «يا جميل!»

جلست إراظجة منكبة على الألبسة.

* * *

وقفت خدوج مستندة إلى السلم وهي تهتز. أظلمت عيناها. شعرت بتسرّب حار بين فخذيها. يسيل نحو الأسفل! تفقدت بيدها، فتبللت. نظرت: دم! قالت فوراً: «واخ، أسقطنا الولد. كان حجر هاجلي المجنون حسنُ الحظ(!) عليّ!» بقيت ملتصقة بمسند السلم. لا حيل لها للصعود درجة واحدة. حيلها يتناقص تدريجياً.

صرخت إراظجة: «هل تسوّد عيناكِ ياكنة؟.. يا كنة خدوج؟»

عيناها تسودان. تقف على الدرجة الرابعة من السلم. توجد غيمة تتطاير في السماء. عوارض السقف تتطاول. مسند السلم ينزلق، وينزلق كأنه مغطوط بزيت الزيتون. شوبك رقّ العجين الرفيع يضرب في الهواء. قطاع الطرق يكبسون ملحاً على جلد هاجلي المجنون. رجل طويل، ولحيته متقافزة كقمل الجسم أمام راعيها هاربة من القراد. تحت شجرة صنوبر ضخمة، وعلى رأس جبل، وبقدّ غطاء رأس أبيض، يذوب ثلج شباط من بعيد. يسيل بجانبها ماء دافئ. بيرم غير موجود. بيرم مفقود! وخدوج تُفقد أيضاً. العالم يدور في رأسها. الأرض والسماء تدوران. خرجت أفاعٍ كثيرة. تدور أفاعي الحقل كأفاعي الماء. ومع دورانها تتشقق قشورها، وتسقطها...

«يا كنة! هل تسوّد عيناك؟»

قبل إكمال الجملة، انزلقت، وسقطت على الأرض كطائر فقير أطلقت عليه النار في السماء. طار غطاء رأسها. خرج شعرها المجدول على طبقتين والذي بلون العنب. صارت خدوج غير موجودة. أطبق فكها كمنغنة مرمرية...

خوفٌ جرف إراظجة. أخذها ارتباك. تعرقلت يداها وقدماها. تضرب على ركبتيها، وتخاطب الأرض والسماء: «إلى أين أذهب؟ إلى أين يا بيرم!» بيرم غير موجود: «يا كنة! يا كنتي!..» الكنة غير موجودة.

صرخت إراظجة قائلة: «فقدتها!» وكأنها فقدت صوابها، صرخت: «فقدتُ خدوجي». رمت بنفسها فوق خدوج المتمددة عند أسفل السلم.. كأن عشر أفاع لسعتها. بدأت تقبل وجهها وعينيها: «يا كنة!.. يا كنتي.. يا خدوجي الغضة.. يا كنتي ذات الشامة، يا وردتي الصفراء.. هووو، كنتي، هوووو!..»

كانت تحب خدوجاً كعينها. تعرف قيمتها، وقدرها. لم تعارض خدوجُ كلمةً لها في أي يوم. لم تدعس على طرف لها يوماً، وتقول: «أنت كذا!» لم تخرج عن طوع زوجها أو تضرب أولادها. لم تقطب وجهها. لم تتهرب من عمل. هرعت إلى أصعب الأعمال بكل قوتها. حاربت من أجل تقديس بيتها. في سنوات عسكرية بيرم الطويلة، حرثت الأرض، وأراحتها، وزرعت الزرع. جاءت من الحقول، ورضّعت ابنها دون عبوس، وعادت إلى الحقول والسهول. ألا تُحَبُّ كنة كهذه؟ كأن يداً حديدية تمسك قلبها ورأسها وتعصرهما. قلبها يبكي دماً. عيناها تلهبانها، تؤلمانها كأن فلفلاً رُشَّ عليهما. تنشقُ، وتبكي مشهشهة. انكبت على خدوج واجدة أن الحل في البكاء. بكت، وبكت. طالت

دموعها، وتصببت. قالت: «يا خدوجي الغضة، يا خدوجي، يا أمي!» ولا نبس من خدوج. تنصتت إلى تنفسها. وضعت أذنها فوق قلبها. في داخلها ضجيج جعلها لا تسمع كنتها.

قالت: «يا إلهي! أنا أيضاً سأنهار!.. امنحني قوة يا إلهي كرمى خاطر أمنا فاطمة. يا إلهي الحلو، يا إلهي الجميل!..»

أمسكت خدوج من كتفيها، وسحبتها إلى تحت السلم. وفي أثناء سحبها رأت بقع الدم على سروال خدوج. صرخت: «دم م م م!..»

سروالها غط بالدم، وأخرج.

طار عقل إراظجة من رأسها تماماً.

بدأت خدوج تئن في داخلها. كأن صوتُها ينبعث من أعماق مغارة. إنه كصوت غزالة مخنوقة. من الأعمال... صوت يثقب قلب الإنسان، ويمزقه.

«منذ متى دورتها الشهرية مقطوعة! كنتي فقدت ولدهاااا!.. يا جيران!» في داخلها: «ما الفائدة من نداء الجيران؟ لو استطعت أن أجعلها تصحوا!..» لخدوج: «يا كنة! يا كنة!..»

فجأة عاد لها صوابها. أمسكت خدوج من كتفيها، وهزتها بهدوء. حركت ذقنها. مع تحريك ذقنها، يهتز رأسها، وكأنه معلّق في الهواء. فتحت جفنيها بيدها. لم تر غير البياض الضبابي. فقدت عيناها سوادهما.

«يا كنتي السبعة! لتعم عيون أعداءك يا ابنتي! ليعموا، وتكسّر أطرافهم كلها! يا ابنتي، انهضي يا أمي! استيقظي يا ابنتي! استيقظي فوراً يا ابنتي! انهضي يا ابنتي! انهضي يا زهرتي الصفراء!..»

* * *

ضبطت القطط والكلاب باب دار المختار الكبير. رائحة اللحم النفوذ جمعت حيوانات القرية كلها. تنظر إلى الباب متأملة كبيرها وصغيرها. القطط تموء، والكلاب تنبح.

اخترق بيرم «الزحام» وعبر. فتح الباب الضخم، وأغلقه فوراً.

قال بيرم في داخله: «السافل سيستميل القائمقام إليه. من يأكل خبز الكافر سيضرب بسيفه! هذا هو الطريق في عالم غدار!..»

«هل المختار حسنو آغا في الأعلى يا أختي؟»

رفعت عطية رأسها من وسط الدخان: «ولاه بيرم، هذا أنت؟ ماذا فعلت بهاجلي؟ يقال إنك جعلته كالبرغل باللحم المطبوخ! وهل يضرب الإنسان إلى هذا الحدّ؟ أم أنك تنوي قتل هاجلي المجنون، وأخذ فاطمة؟»

قال بيرم: «لا نية كهذه لنا حالياً!.»

قالت امرأة المختار: «هم م م، هذا يعني أنها غيرموجودة حالياً، ولكنها ستكون في المستقبل؟ أحسنت ولاه! قرة فاطمة مناسبة لك أكثر من المجنون الحمار! هيا لنرَ، المختار فوق!» قالت في داخلها: «المختار فوق، ولكن الثمن غالٍ هذه المرة! محرم المجنون أيضاً فوق! محرم محمد المجنون!.. ذاب العالم بالغدر! وجمال المجنون أيضاً في الداخل!» ثم أضافت: «يتحدثون في الداخل، افتح الباب، وادخل!..»

ضغط بيرم على المزلاج. خطا برجله اليمنى. عادة اعتادها منذ الصغر. بهذه الخطوة يدخل إلى الجامع أيضاً. قال لنفسه: «كأن شيئاً موجوداً في الخطوة باليمين، اعتدنا عليها!» خطا خطوته الأولى، لم يكن يوجد أحد في الغرفة. تظاهر بأنه سيعود، ولكنه قبل أن يعود، ضغطت يدٌ كأنها كماشة حديدية على رقبته من الخلف. ركلةٌ أيضاً نزلت على مؤخرته.

ترنح بيرم. يداه مازالتا حرتان. فكر بالسكين التي في خصره. لم يستطع أن يمد يده إليها. وقبل أن يمد يده، جمعت يد أخرى يديه.

مازال لا يعرف بأيدي من وقع.

اليد التي على رقبته تضغط، وتعصر. ضغطت، وضغطت حتى أوصلت رأسه إلى البساط الذي على الأرض. بعد ذلك، بدأت تضربه بالأرض. أنفه وذقنه سحقتا على الأرض. أحنى رأسه نحو جذعه كي يحمي أنفه وذقنه.

الآن، جبينه يضرب على الأرض.

يلوون ذراعه. يرى في الأقدام الواقفة على الأرض نعال قروية مصنوعة من مطاط عجلات الشاحنات يقول بيرم في داخله: «دستَ على الشرك يا سبعي!» الآن، انبطح على الأرض تماماً. هذان شخصان. الآن أحدهما يلوي ذراعه، والآخر صعد إلى ظهره، وأسند ركبتيه على وسطه. سحبت اليد التي تضغط على رقبته من الخلف. حاول أن يدير رأسه ليرى الشخص الواقف فوقه. غير ممكن. الركبتان تضغطان بشكل سيّء.

عصبا عينيه بقطعة قماش سوداء. ربطا يديه إلى الوراء. لم يسقط بفخ كهذا في حياته. هل يسقط مرة أخرى؟ ربطا يديه بقوة...

الآن يكمان فمه. قال لنفسه: «إيه، دعونا نر!.. ليعملوا ما سيعملونه! ليضربوا بقدر ما يضربون! لن يستطيعوا جعلي أصرخ أولاد القحبة! من يصرخ أساساً فهو غير شهم! هل الحارس مصطفى؟ لا يا عزيزي! المختار؟ ممكن! إذا لم أحرق بيت هذا السافل!.. وهو في داخله أيضاً!.. احرقهم جميعاً، جميعاً، ونظفهم ولاه! بعد ذلك، اذهب، وسلّمَ

نفسك! أو اصعد إلى الجبال! لا تدين المتحولين إلى قطاع طرق! وهل يغدو الرجل قاطع طريق بمزاجه؟ سألوث يدي بالدم! ولاه هاجلي المجنون! كل هذا بسببك! وهل هذا لأننا عملنا كذا مذا لامرأتك في الحفرة؟ ألأننا لم نكبس زيادة ولاه؟ لا تقلق، في المرة القادمة نكبس أكثر. كما نكبس على البرغل باللحم! مهمتنا أن نملأ كل أنواع الحفر ولاه! طالما أننا خربنا النظام مرة، فعليك أن تعرف نفسك جيداً بعد الآن!...»

قلباه على ظهره. تركاه. بقيت يداه تحت ظهره، ولكن لا توجد مشكلة إذا رفع رأسه قليلاً. قال لنفسه: «قف لنرَ، ما هذا؟»

الآن يفكان حزام سرواله! قال لنفسه: «هل سيعصرون خصيتي؟ ما هذا؟» أراد أن يصرخ، غير ممكن! استجمع حيويته وقوته كلها، وهوى برجليه على اللذين يعبثان بحزام سرواله. صدر صوت «طب» غريب ناجم عن سقوط على الأرض. استطاع أن يضرب، لم تهو رجله في الفراغ. رفع رجليه، وبدأ يركل عشوائياً في الهواء. أمسكوا به بسرعة.

ربطا رجليه أيضاً هذه المرة.

قال لنفسه: «لا يستطيع مربوط اليدين الصعود إلى شجرة الصنوبر! ويمكنهم أن يعملوا كل شيء برجل مربوط اليدين والرجلين! ولكنني لن أترك لهم هذا!..»

فكا حزامه، وحلا سرواله الصوفي الخارجي والداخلي. وقلباه على وجهه من جديد.

كانا قد وجدا السكين التي في زناره. أخذاها.

قال لنفسه: «يمكنهما أن يفعلا كل شيء! سهل! رجل مربوط اليدين ورجلاه أيضاً مربوطتان. عيناه معصوبتان، وفمه مكموم! يمكنهما أن

يفعلا كل شيء برجل كهذا! ولكن، هيـ....ـه يا هاجلي الذي أفعل بأمه وامرأته الجميلة! يا سافل مشروخ الدين! يا دب الجبال المغطاة بالثلج!.. لن أدع لك هذا...»

الآن جنباه مكشوفان. فمه مكمم. يكاد أن يختنق. سيختنق. يتنفس من أنفه. نَفَسُهُ لا يكفيه.

بدأ ينزل على جنبيه شيءٌ كالحبل أو الحزام الجلدي أو شيءٌ آخرَ باردٌ قاسٍ مصدراً صوتاً: «شاك، شاك..» ينزل، وينزل دون توقف! لا يوجد توقف! كل ضربة تلسعه كالفلفل.. يقول بيرم لنفسه: «سأموت!»

شاك، شاك، شاك!! عشرة؟ هل هي عشرون؟ أم ثلاثون؟ أم كم؟ أربعون أم خمسون؟ شاك، شاك!.. لم يعدها من البداية!.. استمر هذا زمناً.. أعطوه استراحة قصيرة، بعد ذلك، بدؤوا من جديد: شاك، شاك، شاك، شاك!..

صوت الحبل المبلل الموتر للأعصاب يملأ الغرفة: شاك!.. شاك!.. شاك!.. يضربونه كثيراً..

* * *

يتمدد بيرم منكباً على الأرض. يداه مربوطتان، وعيناه معصوبتان. ربطا حزامه من جديد. فكا رجليه. فكا كمامة فمه. ولكنه لا حيل له للكلام ولا لتحريك رجليه.

الأيدي التي لم يعرفها أنهت كل شيء. بعد ذلك، انسحبت ذاهلةً ومغلقةً الباب وراءها.

وضعا السكين التي كانت على خصره مكانها.

قال لنفسه: من هذان؟ أيمكن أن يكون المختار؟ ممكن! هل يمكن أن

يكون هاجلي؟ ممكن... المختار وهاجلي.. المختار وهاجلي.. ولكن، لماذا وضعا السكين في خصري؟..

تمدد هكذا فترة.

يتناهى إلى أذنيه صوت حديث امرأة المختار والحارس في الأسفل. غير واضح تماماً. كأنه يستيقظ من الإغماء. كأنه يستيقظ للتو تدريجياً. لا يسمع صوتاً آخر. لا توجد حركة ذو روح قريب. لا يوجد حتى ملاك يطير قريباً..

فجأة، فُتح باب الغرفة الجانبية المؤدي إلى هذه الغرفة. سمع. وقع أقدام.. حركاتٌ سافلة وغدارة..

«ما هذا؟ من هذا؟» السائل صوت المختار.

العضو إبراهيم: «واحد يتمدد على الأرض!»

هاجلي: «مددوه!.. هوهووووه!..»

يمكنه تمييزهم جميعاً.

الآن يقترب المختار: «أسأل من هذا ولاه؟ لا يسمع!..»

قال لنفسه: «هذا عهرك!.. هذا فساد دمك.. هذا سروال امرأتك القحبة!.. هذا بيرم المربوط اليدين!. أي قرة بيرم!..

المختار يكذب: «بيرم! أهذا أنت يا سبعي؟» وفي داخله: «طبعاً أنت يا مخبول» بيرم: «ما هذه الحال يا بيرم؟ من مددك هكذا؟» في داخله: «فهمت الآن حرمة البيت وما بيت؟ لا تنفخ نفسك، وتظهر هنا وهناك بعد الآن؟ سافل، هل وجدت قرية دون كلب حراسة؟ وجدت القرية لا كلب لها، فهل تتجول فيها دون عكاز؟ هذا المكان ليس رأس جبل، اعرف هذا جيداً!..» لبيرم: «متى جئت إلى هنا يا بيرم؟ واخ، واخ!.. انهض لنرَ، انهض يا سبعي!..»

قال بيرم في داخله: «لن أترك لك هذا يا مختار! هل تظن أنني أعمى؟ ألا أحرق بيتك ومخزن تبنك؟ ألا أجعل مأواك يغور؟ من مددني هنا؟ مددتني هنا امرأتك القحبة! قالت: كذا وكذا، وتعال لنتشمشم! أوقعتني في شرك صيد الحجل. أتعرف صيد الحجل ياه؟ هكذا اصطادتني امرأتك القحبة! يضعون أنثى الحجل في الدغل، ويخفونها! الذكر الجائع يركض، ويدور حول الدغل! يطلق صوته، ويدور. وعندما يكون بينه وبين الوصول طول حبة شعير يأكل الرصاصة من خلفه. لا يعرف من أين أتته الرصاصة. أنا صرت هكذا تماماً يا مشروخ العرض، يا مختار! دستُ على الشرك في بيتك الجميل!..»

«انهض يا سبعي، انهض!» في داخله: «انهض ولاه جحش ابن الحمار!» لبيرم: كيف وقع هذا على رأسك، لابد أننا سنجد حلاً! انهض الآن! انظر إلى هذا! ربطوا أطرافه كلها! ولاه، أنت رجل شهم، كيف تتركهم يربطونك؟..»

المختار عصابة عينيه أولاً: «انظر! في خصرك سكين! كيف تركتهم يربطونك؟»

أخذ سكينه بهدوء، بعد ذلك، فك ذراعيه.

انهض لنرَ! ما هذا؟.. ألا تستطيع النهوض؟» في داخله: «أترمي كلب السلطان بحجر مرة أخرى؟.. أتشخ في عين الشمس؟ يا حيوان ابن الحيوان!.. آخذ روحك أيضاً، روحك!..» لبيرم «هيا انهض! ألا تستطيع النهوض؟»

بيرم، في داخله: «لا أستطيع النهوض يا قواداً كبيراً! لا أستطيع النهوض يا مختاراً عارياً! لا أستطيع النهوض يا حسنو السافل!..»

أمسكه المختار، وساعده بالنهوض.

استند بيرم إلى أسفل الجدار. رأسه يسقط أمامه. لا يستطيع الإمساك برأسه.

المختار يضحك مظهراً سنّه الأصفر. هاجلي.. يبتسمُ وجهه المحلوق تواً.. رغوة الصابون جفت على أذنيه.. وعلى رقبته وياقته قصاصة شعر.

وقف هاجلي في الباب المتوسط الغرفتين.

العضو إبراهيم يتلفت فيما حوله بنظرات شاردة. يهرب بعينيه عن بيرم بصعوبة.

«بيرم! انظر يا سبعي!»

بينه وبين نفسه: «نظرنا يا ذا قرني الغزال!»

«اسمعني جيداً!..»

في داخله: «نسمع يا ملك ملوك السفلة!»

«بداية ملأت حفرة هاجلي...»

في داخله: «نعم، نعترف.. ملأناها..»

«وجهنا لك خطاباً حاداً..»

في داخله: «فعلت!.. تكلمت!..»

«ذهبت هذه المرة، وكسرت قرميده!..»

في داخله: «إذا كان الأمر أمر كسر قرميده، فقد كسرته، ولكنني لم أستطع كسر قرنيه.. أمسكوا يدي وذراعي.. كنت سأكسرهما لولا أنهم أمسكوني!..»

«واليوم جررته إلى أمام بيتك، وضربته!..»

في داخله: «إذا فعلناها نحن عيب، وإذا فعلتموها أنتم ليست عيباً!..»

«الآن هاجلي هذا يدعي عليك!..»

«ياه، هكذا إذن؟ واخ، واخ، واخ!..»

«فوق هذا، فإن هذا الرجل عضو ثان في اللجنة: له شخصية اعتبارية!.. وهي معنوية رسمية!.. رفع اليد على هذا الرجل جريمة كبيرة بنظر الدولة! حين يأتي سيدنا القائمقام سأناقش معه الموضوع بشكل خاص. ولكننا نناقشه الآن: هاجلي هذا يدعي عليك يا أخي!..»

قال بيرم: «ألا توجد شكوى أخرى؟ أهذا كل شيء؟»

«نحن لا نرى جرائمك الأخرى يا هذا! هذا كل شيء!»

«واخ، واخ.. ما هي عقوبتنا الآن؟»

«عقوبتك يبينها القانون! ولكنك إذا عوّضت قرميده، فلن نحتاج للقانون! نغطي الأمر، وينتهي!»

«ماذا يعني تعويض؟ إذا عوضت؟»

«نعم، إذا عوضت، وإذا دفعت أجرة العمال الذين أعادوا حفر الأساس!.. وإذا توسلت إليه ليتنازل عن دعواه! سأصالحكما هنا!.. أمااا إذا أردت أن تعوج عقلك بالقوة، وتقول: مستحيل! سأجرجرك!.. لأنك تبدو مذنباً!.. هكذا يقول القانون...»

«متى يقول هذا القانون؟..»

«دائماً يقول! من أين تعرف أنت يا بيرم؟ القانون كتاب مكتوب فيه! الحكومة تفتحه، وتقرأ... وتفعل ما يقوله.. هذا قانون الحكومة..» في داخله: «وقانوني رأيته قبل قليل!..» لبيرم: «نحن مضطرون للالتزام بقانون الحكومة!..»

«حسنٌ، إسأل قانون الحكومة هذا لنرى: ألا يوجد فيه مادة من أجلنا؟ ألا يوجد فيه جواب من أجلنا؟ ألا يقول القانون شيئاً من أجل بناء بيت قدام بيتنا؟.. وجعلنا بالدرجة الأولى في فريضة عرق القائمقام رغم كوننا من الثالثة؟»

قال المختار في داخله: «وسرقتنا الخاروف المبكر؟»

«والهجوم على بيتنا في وضح النهار، واستغفال امرأتنا، وضربها بحجر كبير، وضربها، وصفعها، وركلها؟..»

المختار في داخله: «وسحبك إلى الغرفة بخطة شيطانية، وربط الرجلين اللذين خبأتهما وراء الباب لك فوراً، وفك سروالك الداخلي، وعملهما حركات لا تعمل؟..»

«محروق النفس هذا القانون لا يجيب على أي من الإهانات هذه كلها التي نتعرض لها؟..»

- ٢٢ -

هذا الولد، واخ من هذا الولد

بعد أن صحّت إراظجة خدوجاً عند أسفل السلم، سحبتها إلى الأعلى، وجلبت لها طاسة ماء. شرّبتها. نسيت الخوف فجأة وهي تنزل السلم الخرب، وتصعده..

فور صحو خدوج، رأت الدم الذي يلوثها فارتعدت. ارتاح قلبها بمتعة. بداية حاولت إخفاءه. ولكنه لم يكن في وضع يمكن إخفاؤه. غُطت فيه، وخرجت. خجلت، وغارت في قعر الأرض، لأن حالاً كهذه لم تمر بها من قبل.

قالت: «لا تهتمي يا خدوجتي الجميلة! لا تهتمي يا فرخة بطي! لا تهتمي يا غزالتي! أنا أمك! وقعت لك حادثة عرضية. هل أردت هذا لنفسك يا ابنتي؟ فعلها الأعداء! لتعم عيون الأعداء!..»

خدوج تصمت. إذا لم تصمت، فماذا تقول؟

جلست إراظجة بجانبها: «يا كنتي، يا عين أمك، كم شهر كان الولد؟»

أطرقت خدوج برأسها ولم تتكلم.

«ثلاثة أشهر تقريباً، صحيح؟..»

هزت رأسها خدوج، وقالت لنفسها: «حتى أكثر من هذا!.»

«أنت اجلسي الآن هنا، ولأذهب، وأجلب (هواليجة)! لتأتِ زوجة آغالي، وترعاك!..» قالت إراظجة هذا، ونهضت.

كان رأسها يدور كالمرجل، وقلبها يغلي وهي ذاهبة.

كانت هواليجة داية القرية في الفقر. حين رأتها كانت ترقّع رقعاً، قالت: «أختي إراظجة ادخلي! ادخلي، فإن البلاء الذي وقع على رأسي أكبر من بلائك!..»

وقفت إراظجة عند الباب. واستندت بيديها على الطرفين: «وقعت أمور على رأس خدوجتي الحلوة يا هواليجة! لا تسألي يا هواليجة!..» وبدأت تبكي من جديد. ولأنها لم تجد مكاناً للبكاء فلم تدمع عيناها. وهل هواليجة غريبة عنها؟ «وضع خدوجي ليس جيداً يا هواليجة. انهضي يا أختي! الأحجار التي قذفنا بها هاجلي المجنون قبل قليل أسقطت طفل كنتي! لم يقع لنا أمر كهذا من قبل! كنتي رقيقة جداً!.. سقطت، وغابت عن الوعي قبل قليل. ظننت أنها ماتت. خفت كثيراً. دمها يدفق دفقاً! هيا لنذهب. القي نظرة إليها! انهضي يا أختي في الآخرة، يا أختي!..»

تركت هواليجة الترقيع: «الدم يأتيها؟»

إراظجة: «يأتي!»

«أيأتي قوياً؟»

«دفقاً، دفقاً!..»

قالت هواليجة: «يا أختي إراظجة. كنتك ستكون في شهرها الثالث! في ذلك اليوم كانت النساء تحكي في مكان الاستحمام: فلانة

في الثالث، وعلانة في الرابع!. وذُكر حمل كنتك. كان واضحاً من وضعها ياه!. إيه، ماذا سنفعل؟ قالوا إن الدم الذي يسيل لا يتوقف في العروق! نذهب، ونرى. إن شاء الله لا يحدث لها شيء! رقيقة ما رقيقة، ولكن خدوجنا جريئة، تحتمل!..»

نهضت هواليجة. هي ماهرة. و«تعرف» بهذه الأمور.

مازالت إراظجة تبكي مصببة دموعها.

تمسح دموعها بطرف صدارتها الصوفية.

اصطحبت هواليجة إلى البيت، وأدخلتها إلى الباحة: «أنت ادخلي يا هواليجتي! سأذهب لألقي نظرة: ذهب بيرم ولم يعد، وعيني ترف دون توقف. أشعر بألم في قلبي!.. لا تزعلي يا أختي!..»

ركضت إلى الحي العلوي دون أن تنتظر جواب هواليجة. بدأت تقذف هاجلي المجنون بصوت عالٍ عند اقترابها من بيت المختار: «يا أبا مخ بارد! هل خرجت لتقطع الطرق في وضح النهار؟ محقتنا محقاً!.. راحت من يدنا كنتنا الجميلة محقاً!.. راحت خدوجتي الشابة! محقنا!.. لتغور يا سافل! ماذا يعني الهجوم على بنت الناس البريئة، وإسقاط ولدها؟ وماذا يعني قطع الطرق هذا؟ سأريك هذا، انتظر! لن أكون إراظجة في قرة طاش إذا لم أجعلك تندم على مجيئك إلى الدنيا! انتظر! خاصة إذا جرى لكنتي شيء!.. انتظر!..»

القطط والكلاب تدور هناك دون توقف.

فتحت الباب، ودخلت، صرخت قائلة: «أين هذا المجنون الذي سأخرى في فمه؟ أين هاجلي؟ أين حسنو العاري عزيز المشايخ؟»

نط قلب عطية، وقالت: «خير إراظجة؟ ما هي مشكلتكم التي

أدخلتكم ببعضكم بعضاً؟ إذا اتفق أبناء محمد المجنون، وهجموا عليكم، يشتتونكم كفراخ الحجل! ضعوا عقولكم في رؤوسكم، عقولكم!..»

«سأخرى في شروشهم! زوجك السافل هذا أيضاً معهم! لا يستطيعون أن ينبسوا لولا أن زوجك السافل معهم! لا يجرؤون على بناء بيت قدام بيتنا!..»

قالت عطية: «لمي فمك يا إراظجة!.. لماذا زوجي سافل؟ ما هذا الكلام؟ أنتِ امرأة عجوز! شعرك أبيض! أنا أحترم عمرك».

تعلقتْ عينا إراظجة بجلد الخروف المعلّق على شجرة الزعرور!. التقطتْ عيناها البقعة البنية التي على الجلد، ولا تدعانها.

ذهبت باتجاه الزعرورة!. أمسكت الفراء، وأنزلته على الأرض!. سقط رأس الخروف، وقوائمه. نظرت إلى عيني الرأس السوداوين الذاويتين. تفقدتْ العلامة في أذنه: تمام!. رأتها جيداً. ألا تعرف إراظجة هذه العلامة؟ شقّان من الأمام في الأذن اليسرى. هذه «العلامة» علامة قرة إراظجة في القرية!. تُعلّم هذه العلامة على غنماتها الثلاث وخروفها وعجلها وباكورتها.

صرخت قائلة: «ما هذا يا هذه؟ ما هذا يا كلاب الحرامية؟ هذا الخروف خروفنا المبكر يا قحبة! كنا نظنُّ أن زوجك مختار، ولم نعرف أنه حرامي. أين زوجك السافل؟ هل فهمت الآن لماذا هو سافل؟»

تجمدت زوجة المختار، وارتبط لسانها. لم تستطع فترة جمع كلمتين، وقولهما.

عينا إراظجة لا تريان السماء والأرض. هرعت إلى الأعلى. رفست

الباب ودخلت. صرخت: «أين فاسد الحليب هذا؟ أروني إياه.. وأين فاسد الحليب الآخر؟..»

المختار يتجول. ومازال هاجلي يقف مستنداً إلى الباب. قرة بيرم مكوّم عند أسفل الجدار. العضو إبراهيم يتلفتُ مندهشاً في الوسط. هجمت إراظجة على المختار. أمسكته من ياقته، وهزّته. استجمع نفسه المختار. دفع عنه المرأة. بعد ذلك، ذهبت إراظجة، وأمسكت بياقة هاجلي. أمسكته من ياقته بيديها الاثنتين. هزته، وهزته، ودفعته. تمدد هاجلي على أرض الغرفة الجانبية.

تحرك المختار، وأمسك إراظجة من ذراعها: «ما هذه الإهانة في غرفة المختار الرسمية؟ هل جُنّت سلالتكم؟..»

صرخت إراظجة: «نحن لم نجن! عقولنا في رؤوسنا يا كلاب، يا حرامية. أخرى في أفواهكم! من سرق هذا الخروف؟ من أكل هذا الخراء؟ أنا الآن ذاهبة إلى القائمقام! سقط ابن كنتي في شهره الثالث!... ظننتَ أن هذا الحمار رجلاً، فدللته. وهو فعل بنا هذا!.. سأدخلكم السجن جميعاً!.. سترون!..»

المختار يُمسك إراظجة بقوة.

نهض بيرم بصعوبة، ووقف. لا حيل له للوقوف. سينهار. جعله المختار يأخذ وضوءاً طويلاً، طويلاً جداً.. » سيصلي كثيراً بهذا الوضوء (هكذا يقول ذو القرنين الطويلين!). لا يريد إظهار حالته لأمه، ولكنه من الصعب جداً أن يمشي وحده.

تمتم قائلاً: «امسكيني يا أمي العزيزة! محقني فاسدو الدم هؤلاء يا أمي العزيزة!..»

انتفضت إراظجة، وتملصت من بين يدي المختار، واحتضنت بيرم: «يا بيرمي، يا ذا العينين الفاحمتين! أنا حرقتك يا أمي!.. أنا أرسلتك!.. بيرمي، ماذا فعلوا بك يا أمي؟..»

حال بيرم ليست حالاً. لم يبق فيه مكان يمكن أن يُمسك أو يُلمس. أنَّ قائلاً: «محقوني!»

المختار ينظر شارداً.

بياض عيني هاجلي يتسع.

أطلقت إراظجة صوتها: «يا ظالمين الله!.. أكلتم شهمي يا ظالمين الله!.. غدرتم بسبعي في مكان قفر!.. تفوووووه في وجوهكم يا من لا تليق الرجولة بكم!.. تتجولون بين الناس على أنكم رجال يا من لا آذان لكم!... يا ظالمين! لتعم عيونكم. لتغر أسماؤكم!. اذهبوا، وامَّحوا عن وجه الأرض يا عديمي الشرف!..»

أخذت بيرم، وأخرجته ممسكة به. نزلا الدرج. لفّت فراء الخروف الذي تحت شجرة الزعرور مع رأسه، ووضعته تحت ابطها. وبذراعها الأخرى أمسكت بيرم. مشيا.

ينظر بيرم إلى فراء الخروف، ويتأجج غضباً: «سبع مصاعب من سبعة أمكنة! هاجمونا كالأفاعي يا أمي! كل مكان صار فيه أفعى! اختلطت الدنيا بالأفاعي يا أمي!..»

* * *

جاء العضو إبراهيم إلى أمام المختار، وقال: «إذا كان إسقاطُ الكنةِ الولدَ صحيحاً فالوضع سيّء يا مختار! سيلقون بهاجلي في السجن! لوقدر الله عدم وجود شاهد وما شاهد!..»

قال المختار: «هه!. ألا يمكن أن يوجد شاهد ولاه؟ بيت إراظجة وسط القرية!. ألا تعرف رجال قرة طاش؟ يجتمعون للفرجة عند أقل ضجيج!..»

«إذن، الأمر سيء يا مختار! انظر، أنا أخبرك. لا تقل إنني لم أقل هذا: الوضع سيء جداااااً!..»

بياض عيني هاجلي اتسع إلى أقصى حدّ.

المختار يقول دون توقف: سيء!..»

* * *

بيرم وإراظجة يذهبان - أم وابنها - وسط القرية نحو الأسفل. إراظجة تصرخ بقدر ما تستطيع. تذهب معلنة دعواها على «الرأي العام». تقول عن المختار علناً: «حرامي خراف» و«رئيس عصابة قطاع طرق». تقول: «سحبوا ابني بحيلة سافلة إلى الغرفة، وضربوه وهو مربوط اليدين. وتمر بكلامها على هاجلي المجنون وفمه. بهذه الطريقة يعلم الناس في الأزقة وأمام الأبواب بما حدث من المصدر الأول نفسه. الأخبار تنتشر بسرعة. الناس يقفون، وينظرون. ينظر عبد الله المفتوق، وكاظم المراسل، وكريم أوغلو، وحسن الملاك، وإبراهيم الحطاب، وعزيز التماس الكهربائي، وبهلوان الأعرج.

كان آغالي يجلس مع عدة أشخاص على حافة الجرن. أصغى لصراخ إراظجة.

«كلب حرامي! صرت مختاراً، ولكن ما الفائدة؟ لم تصر إنساناً! تنزل إلى مستوى خروف! تنزل إلى مستوى خروف فقير..»

نهض آغالي. قال: «لأر هذين!» وذهب إلى أمامهما.

قالت إراظجة: «انظروا إلى حالنا. شاهدوا، واعرفوا بقيادة من نعيش! يقود القرية حرامي خراف يا جيران.. افهموا في أي حال نعيش».

قال آغالي: «خير يا بيرم؟ ما هذه الحال؟»

قال بيرم: «الأحوال سيئة جداً يا عمي آغالي!..» يتكلم، وكأنه يئن: «دسنا على شرك المختار!.. استدعانا إلى الغرفة قائلاً: توجد شكوى بحقك. وضع رجالاً خلف الباب يا عمي! ربطوا يدي ورجلي، وكمموا فمي. ضربوني، ومحقوني! وأرسل أحدهم ليسرق خروفنا المبكر! ذبحه للقائمقام..»

«نحن دفعنا له نقود التحضيرات يا هوووه؟..»

قال بيرم: «نحن أيضاً دفعنا، ولكن...»

قالت إراظجة: «ودفعنا من الدرجة الأولى أيضاً..»

هزّ آغالي رأسه إلى الأمام والخلف، وقال: «مفهوم، مفهوم!...»

قالت إراظجة: «وهاجلي المجنون هجم على بيتنا صباحاً. ضرب حجراً على ظهر الكنة، وأسقط ولدها! أوف، أوف، امسك هذا الولد من ذراعه يا آغالي.. امسكه لنأخذه إلى البيت. ألا يوجد عدل؟»

ذهب عقل بيرم إلى الأغنية الشعبية. قال في داخله: «لا عدل عند سادة (نيدة) يا أمي! لا يأتي مشروخو الشرف!» جنباه تحرقانه كالفلفل. يكاد ينهار. التصق بآغالي.

* * *

أصعدت هواليجة خدوجاً بصعوبة إلى الأعلى. مدّدتها، وهي الآن «تعاين» بطنها. ظهر خدوج يؤلمها وكأنه سينقطع. أحشاؤها تتقطع!

دمها يسيل. في بطنها ما يشبه أعواداً يابسة متشعبة وشوكية تريد إخراجها. كل طرف من أطرافها يتقطع. كانت تقول بداخلها: «أما عندكن عقل يا من تتحرقن على إسقاط أولادكن؟ هل يمكن للإنسان تحمّل هذه الآلام طوعاً؟..» أسنانها تؤلمها. ونتيجة الضغط عليها، والصبر تؤلمها ذقنها.

هواليجة أخبرت إراظجة باكتشافها: «عمر الولد ثلاثة أشهر ونصف يا إراظجة!... إذا كان على سقوطه، فسيسقط! ولكن الأسوأ أن الدم يتدفق بقوة. ولو نستطيع إيقاف الدم!. نظرتُ إلى ظهرها، أزرق! الدم محتقن أيضاً. حال كنتك صعبة جداً». خفضت صوتها: «إنقاذها صعب! الإسقاط أصعب من الولادة! ظهرها أزرق داكن!. مكان الحجر أزرق داكن!..»

يشعر بيرم بدوار. انهار. أنَّ قائلاً: «خدوجي» وانكبَّ على مدّة الأرض، وبقي هكذا.

«خدوجي، كنتي، زهرتي الصفراء!»

قالت هواليجة: «ولكنها ستُنقذ إن شاء الله! علينا ألا نقطع أملنا. خدوجنا امرأة جريئة! باذلة جهد!.. وأنا سأفعل ما أستطيع. الله يساعدنا! الله يحمي خدوجاً وسط هذه الجبال!..»

تطلق إراظجة الصيحة وراء الصيحة! في أعماق قلبها غضب ظالم. حقد، حقد.. تصرخ: «انظروا، وشاهدوا، واشهدوا! أنت أيضاً اشهد يا آغالي!.. ضع يدك على قلبك، واشهد لنا!.. كل هؤلاء الناس رأوا. القرة طاشيون جميعهم رأوا. هاجمنا هاجلي محمد المجنون كخنزير مسعور. ضرب إنسانة بحجر كبير على رأسها. رآه الشهود. رآه المسلمون! فعل هاجلي هذه الأمور على مرأى من أمة المسلمين..»

قالت هواليجة: «اتركي البكاء والبرودة يا إراظجة. إذا لم يشهد أحد فأنا أشهد. لهذا، لا تحزني! أنت الآن اجلبي لي قدراً، وغربال تبن!..»

تمدد بيرم قرب الموقد، وقال: «لم تبق عندي قوة يا أمي!..»

قرفص آغالي بجانب رأسه.

قالت هواليجة: «هيييه، يا آغالي. هيا اذهب أنت من هنا! لا يمكن لخدوج أن ترتاح، وأنت هنا!.. إنك ترى حالها، أليس كذلك؟ حالها خراب، انظر!..»

خجل آغالي، وقال: «صحيح يا هوووه!..» احمر الرجل الكبير حتى شحمتي أذنيه: «لم أفكر بهذا أبداً! لأذهب يا بيرم! صار الأمر معيباً جداً! ابعث لي خبراً إن احتجتني بشيء!.. إذا لزمت نقود، قولوا لي!..»

نهض، وذهب. وخجل حقيقة. قال لنفسه: «آه يا قرة بيرم! يجب أن تُشعل النار في إنسان هذه القرية». عينا آغالي تدمعان، ويقول لنفسه: «أي غدر لهذه الدنيا ولاه؟..»

جلبت إراظجة القدر والتبن، وألقتهما، وقالت: «سلمتك الكنة خدوج يا أختي هواليجة. لأذهب، وأنظر إلى الألبسة! كل طرف فوضى. كانت على زعمها ستغسل الألبسة. وهل تركها الأعداء الظالمون يا أختي؟..»

نزلت إلى الباحة. بقيت الألبسة مبللة. رفعت الجرن والمدق. قالت: «لتبق كلها!.. في هذا الاضطراب.. يجب لف دفتر هاجلي هذا! يجب أن يُخرى في فم هذا المختار!.. إيه سنرى!..»

جاءت سلطانجة وهي تلطم: «يا أختي، يا أختي!.. واخ يا أختي سيئة القدر! ما هذا الذي وقع على رأسكم؟ سقط ولد كنتنا، صحيح يا أختي؟ اتفق الأعداء كلهم، صحيح؟ ضربوا بيرمنا العزيز، صحيح؟ ما هذه الأمور يا أختي؟ هؤلاء من طرف، والأفاعي من طرف، واخ يا أختي!..» وجهها شاحب كما كان عندما رأت أفعى في بيتها: «هل وجدنا هؤلاء واطئين كثيراً يا أختي؟ وثقوا بقوتهم كثيراً، فطبوا فوقنا! وأيدت هذه القرية هاجلي محمد المجنون، وانتخبته عضو لجنة! وآخ منه، وآخ!...»

قالت إراظجة: «سأحيك له أمراً، وأريه! سيكون أمراً غير مشهود في الدنيا! حيف عليّ إذا ما جعلت جذورهم، وأصولهم كالساقطين عن الحمير!. وذاك المختار!.. ذاك!..»

«كيف وضع الكنة يا أختي؟»

«وضع الكنة صعب! دمها لا ينقطع. هواليجة عندها. كانت حامل ثلاثة أشهر ونصف. أنا كنت أعرف من مدّة. لا ذنب لخدوج.. جلب حجراً كبيراً، وأنزله على ظهرها! زاغت عينا عديم الأصل! ارتجفت أطراف من رآه قادماً! هكذا أتى!..»

قالت سلطانجة: «سأصعد، وأرى!..»

قالت إراظجة: «اصعدي، وانظري!» لنفسها: «أنت انظري، ولأنزل أنا إلى الحقول. لأنزل إلى الطرق كالعباد الذين فقدوا عقولهم. لألطم رأسي بالصخور! لأرمي نفسي في الترع! لأجعل نفسي طعاماً للصقور والطيور!..»

سحبت باب الحوش بهدوء، وخرجت. لحقها طومان. مرا وسط القرية.

توقف الناس المجتمعون هنا وهناك، ونظروا إلى إراظجة، وقالوا: «إنها ذاهبة نحو الأسفل كالمجنونة! إنها ذاهبة إلى المخفر بالتأكيد». وإذا كانوا قد قالوا في دواخلهم: «لم يُر هذا الغدر الذي فعله المختار في أي مكان». فإنهم لم يقولوا شيئاً بظاهرهم. كأن الأقفال ضُربت على أفواه الجميع. ينظرون...

انسلت إراظجة، وذهبت من داخل القرية. طومان أيضاً وراءها.

* * *

رأى أحمد جدته قادمة من الطرف المقابل. عرفها فور رؤيتها. كان في دغل القصب المجاور للحقل. جرّ الأفعى، ومددها فوق الجسر لتراها جدته. بعد ذلك، عاد إلى جانب الثور. كانت أفعى ذات بقع صغيرة. رفيعة وطويلة. سحق رأسها. وبُعج بطنها. أفعى نمت في الوحل والطين. ستراها جدته، وتدهش. بدأ يتجول وكأنه لا يدري بشيء. يتجوّل. يضرب القصب الشوكي بالعصاة التي بيده، ويُسقط بذوره، ويَكْسِرَ شوكه. وبطرف عينيه يراقب اقتراب جدته من الجسر خطوة خطوة. يقول لنفسه: «لتَخَفْ فور رؤيتها الأفعى! ولتصرخ أيضاً.. لم تر أفعى كبيرة إلى هذا الحدّ - كانت خمسة أشبار تقريباً - في حياتها!. سأقتل أكبر من هذه عندما أذهب إلى (غورأولوق)! سأسدد الحجر على رأسها تماماً!...»

اقتربت جدته من الجسر. داست على ذيل الأفعى الممددة على الأرض. قالت في داخلها: «قتلها أحمد! جلبها، ومددها قبل قليل».

لم يعجب أحمد هذا المجيء، وهذا الاهتمام. كان يجب أن تخاف. كان عليها أن تطلق صرخة فور رؤيتها لها. يجب أن تصرخ من هناك:

«ارفعها من طريقي، أنا خائفة!» عبرت، وهي الآن ذاهبة دون أن تقول شيئاً. في داخلها: «ولاه!..» لأحمد: «أحمـ.......... ـد!..»

تظاهر بعدم السماع.

«إذا جئت لعندك، سآخذ روحك! الله لا يبعث لك العمى!..»

التفت دون إرادة، ونظر: «ما كل هذا؟»

صرخت إراظجة قائلة: «تعال إلى هنا. اسحب فولاذ باشا، وتعال بسرعة إلى عندي!..»

قاد الثور، وجلبه إلى عند جدته.

«هيا، فوراً إلى البيت! لا تقف هنا! ضع الثور في الاسطبل، واغلق عليه! إذا لزم أمر، فأنا هنا، تعال واخبرني!...»

«ماذا ستفعلين أنت هنا؟»

«سيأتي زوجي من الأسفل، سأستقبله!.»

سكت. قال لنفسه: «لتطلع روح جدتي هذه اليوم!.. إلى أي حدّ تتكلم بنزق!.. زوجها سيأتي!.. نزقة!...»

«سيركب زوجي على حصان أحمر، ويأتي! سأقفز هنا، وأقابله!..»

«أما رأيتِ الأفعى التي قتلتها تواً؟..»

«رأيتها!..»

«أما خفتِ؟»

«لا، ما خفت!»

«كيف ما خفتِ؟»

«ما خفت بمعنى الكلمة! امش بسرعة!...»

«أنا ذاهب يا هذه!.. هذه الأفعى، أنا قتلتها!..»

«................»

«أنا قتلتها يا جدتي!»

«الله يبعث لجدتك البلاء! أقول لك: امش إلى القرية يا فرخ الحمار! أقول لك: امش بسرعة!..»

أخمد أحمد. لفترة لم يدرك ما تعرض له. بعد ذلك، عندما زادت جدته الصراخ والصياح، قاد فولاذ باشا، ومشى. كاد يبكي. نادى طومان. قال: «تعال ولاه، تعال أنت على الأقل معي!». مشى طومان بهدوء بجانب الولد. لفّ أحمد الأفعى على العصا عندما مرّ على الجسر. أخذها، وذهب.

يذهب خطوتين، وينظر نظرة إلى خلفه. يرى جدته وقد ركزت عينيها على من سيأتي من الأسفل حيث (ألويول)، ولا يستطيع إيجاد معنى لنزق جدته هذا.

قال لنفسه: «سيأتي زوجها. يجعله لا يأتي زوجك هذا! أنا أُري الأفعى التي قتلتها لأمي... أُريها لأمي وأبي!..» إذا لم يهتم أحد أبداً.

إذا لم يهتم أحد أبداً، فإنه أمه تهتم. كان يثق كثيراً بأمه.

لفّ الأفعى الميتة على العصا، ومشى. سيحرقها في زاوية باحة البيت بعد أن يريها لأمه.

- ٢٣ -
عرضحال

«وقعت إبرتي من ياقتي
من خلفي، تعال من خلفي
أنا لا أخاف من قائمقام
إذا جئت أنت من خلفي».

«قف يا أمي القائمقام! شد رأس الحصان قليلاً. أنا أراقب طريق (أولو) من ساعتين. أنا أنتظر هنا قائلة، هه، على وشك أن يأتي! لا ترفسنا، وتمشي. نحن من فقراء هذه القرية.. القرية الفقيرة التي يسمونها قرة طاش ذات الثمانين بيتاً هي هذه القرية. كانت قديماً أرضَ آغا، وأهلها شركاء السيد نجيب، ونساؤها خادماته.

مضت سبع سنوات على بيع نجيب بيك القرية للقرويين، ووضعَ النقود في جيبه، والطيران من هنا. دفعت قرية قرة طاش أربعمئة ألف ليرة! دفعت، ولكن كيف دفعت؟ تعال واسأل قرة طاش عن هذا! باعت كل ما يساوي نقوداً في السوق من ثيران وبقر وعجول وطحين وبرغل وعجين ناعم جاف!.. ومازالت تبيع! لا تأخذ كلمتي: دفعت! بعين

الاعتبار. لم ينته الدين بعد. أخذ نجيب بيك نقوده من البنك. من بنك الحكومة. والبنك يأخذ منا. ويأخذ فائدة بقدّ الدنيا. إذا دفعنا حرجاً من النقود مثلاً، ندفع حرجاً فائدة. ولكن الأرض التي نزرعها لنا في النهاية ياه، هذا يكفي! ذهب البيك، وعمل بيتاً في بوسفور اسطنبول بقدّ الجبل. ويقال سيعمل فندقاً فيما بعد. بعد ذلك، سيشتري اسطنبول وحده. البيك بيك! البيك غني! ونحن فقراء ولله الحمد. لا ضرورة أن يكون كل شخص بيكاً! غير ممكن.. أصابع يدك ليست واحدة. عندما بيعت الأرض وجد من أخذ بألفي ليرة، ووجد من اشترى بثلاثة آلاف، وخمسة آلاف، وستة، وسبعة وثمانية وعشرة آلاف ليرة. المختار حسنو اشترى باثني عشر ألفاً. والآن أصابع اليد ليست واحدة. اشترينا نحن أيضاً بثلاثة آلاف بمعيتكم! هذه السنة أنهينا ديننا. عندما ينزل الدين عن ظهر الإنسان، يصبح كأنه خلع عن نفسه ألبسة قذرة لبسها طوال سنة. لينزل دين الجميع، آمين!.. وإذا كان عليك دين، لينزل!...

لأننا فقراء يركبون فوقنا يا أمي! الآن أنت تأتي إلى قرية قرة طاش هذه ياه، سيستقبلونك بشكل لائق وعلني. بالطبل والزمر. سيأخذونك، وينزلونك في بيت مفروش. سيضعون لك العرق مساء، والخروف المحنى. سيفرشون تحتك فرشات الصوف. وستُغطى بلحف برائحة الورد. ستقول: أحسنتم يا أهل قرة طاش! وستظن أن قرية قرة طاش هي قرطاش هذه. كذب! ستقول: ما أجمل هذه القرية؟ ألف مرة كذب.

أنا أتذكر ما جرى، ومن جاء وراح، وكل شيء في هذه القرية منذ كنتُ في السادسة من عمري. عمري ستون. ما أكثر القضاة الذين جاؤوا وراحوا، وما أكثر القائمقامات الذين جاؤوا ومروا. وأنت أيضاً ستمر.

لأن قريتنا سهلية، وليست جبلية، جاء إليها كل من تحته حصان. الذين أعرفهم، ورأيتهم جميعاً ينزلون في البيوت المفروشة المتينة. أكلوا، وشربوا. وامتنوا بلا حدود، وسكروا بلا حدود، وانسحبوا ذاهبين في النهاية. كلهم عرفوا قرة طاش هكذا، أو اعتقدوا أنها هكذا. لم يأتِ أحدُهم إلى هنا على حمار أحلس، أو ماشياً. لم ير أحد منهم الجروح تحت جلودنا. من قال: من أين يعرف راكب الحصان حال راكب الحمار؟ لم يُقل هذا من لا شيء. ولكن لاا، لا، من وجد حصاناً ليركب الحصان. ماذا كنت أقول، هاا، لم ينزل أحدهم في بيت لا على التعيين. ولم يشرب حساء الفقير. كأن إبراً توجد في فرشة الفقير، وسماً في حسائه!.. بينما يُطبخ على كل موقد شيء ما، حسنٌ أو سيء، يومياً، لا أدري ما الحكمة من هذا، فقد طُبخ لهم طبخٌ مختلف! والآن يطبخون لك طبخاً مختلفاً. لو كنت أنا لما أكلت منه! الشهم لا يأكل مما لا يأكله الجميع!..

انظر يا أمي، سأشرح لك بشكل جميل. إنه سرّ القرية، فكن شريكنا بالسرّ. ثلاثة بيوت جيدة موجودة بين بيوت قرة طاش الثمانين كلها. وإذا جاء القاضي كل يوم عليها كلها يمكنها أن تستضيفه. فيها سمنها وملحها وحليبها.. وسبعة بيوتها نصف على نصف. وهذه تُعد جيدة... يوجد خمسون بيتاً تحت هذه السبعة يلبس فيها الحذاء أربعة أشخاص. تتحمل حتى حدود الموت، وتأكل كيلا تموت. نحن منها. إذا قلت: إراظجة، أو قلت: قرة بيرم! فنحن، ونحن هم. العشرون التي تحتنا يشعل فيها موقد، ولكنك يجب أن ترى أي موقد! لا يطاوعك لسانك على قول: موقد! لا يجوز أن نسميها مواقد. العارفون فقط يعرفون ما تدخنه تلك المواقد! تفوح رائحة كريهة مع أنفاسهم لجوعهم. ولكنها أية

رائحة؟ لا يعرفها إلا العارفون!.. سبب قولي هذا لك يا سبعي، لتفهمنا! لا ترى أحد البيوت الثلاثة من القمة، وتعتقد أن قرة طاش كلها هكذا.. الذي تسميه إنساناً هو أنواع. يقولون: الأرض عروق، عروق، والناس أقوام أقوام! وهكذا، فالقرويون درجات درجات! يوجد منهم أنواع...

اغمض عينيك، وادخل إلى قرة طاش! وادخل هكذا إلى أحد البيوت. وكن ضيفاً. كن بالقرة... سيدخلونك بشكل ما... كلهم يدخلونك... احتمل مجرّد يومين... بعد ذلك، قل لهم إنك القائمقام الذي يسمونه قائمقام. عرفهم بنفسك. سيثقون بك، ويفتحون لك أسرارهم كلها. عندما يفهمون أنك رجل ابن رجل، سيحكون لك عن أحوالهم كلها. وإذا لم يحكوا لك، سترى كل شيء. سيكفيك ما تراه آخر الحياة...

يا ابني، أنت الآن أتيت إلى قرة طاش. أهلاً بك! ها هو المختار قد صفّ الناس وراءه، والحارس أمسك طبلاً، وحسين المجنون مزماراً. ولكن لدي مشكلة سأعرضها عليك. أنت ستلحق المختار، وتذهب، وأنا لا أستطيع أن أفضي لك بهمومي! لا أستطيع أن أفضي بها أمام الناس الكثيرين. لا أستطيع أن أفضي أمام المختار! نحن ننوي أن نعيش في هذه القرية حتى نموت. ولا نضع أعيننا على العيش في المدن والبلدات. غداً تذهب أنت، وسنبقى مع فاسدي الحليب أولئك. وسنحتمل قهرهم بالقوة أو بطيب الخاطر. كدملة أوجدها الله! هم الآن يعادوننا، ولأننا أعلمناك بهمنا سيواجهوننا، ويغدون أكثر عداوة! الله لا يجعل المختار عدواً لأحد في قرة طاش! كل من يعاديه المختار يسقط في حالنا. لعله لا يسقط إذا كان غنياً! إيه، ونحن فقراء كما قلنا لك! كارثة أن تكون فقيراً وعدواً للمختار! ونحن في هذه الكارثة. أنا أوجّع لك رأسك يا

أمي، هيا امش وأنا أحكي لك. قد حصانك بهدوء. لنذهب، ونفضي بهمومنا. أنت أيضاً والدتك أم. وأنت أيضاً لك أم. الأمهات يحببن أولادهن بالتأكيد. المختار استدعى قرة بيرمي بملعوب غدر، وجعلهم يضربونه هذا الصباح. ابني لم يعد يستطيع المشي. إذا نهض يسقط. أنا أحب ابني، وأتحرّق من أجله. أهذا عيب؟ كيف تحتمل الأمهات اللواتي ليس بأيديهن حيلة هذا الألم، وهذا الظلم، وهذا الذل؟ آه، أنا لا أحتمل أبداً! عروقي التي هنا تتقطع. أريد أن أبكي صراخاً...

عضو اللجنة الثاني هاجلي داهم بيتنا هذا الصباح، وأسقط كنتي الوحيدة على الأرض بحجر. أسقط حمل كنتي وعمره ثلاثة أشهر ونصف. دمها لا ينقطع. تكاد تموت. الآن تتمدد، ولا يد أو رجل لها تتحرك. القانون؟ أي قانون؟ تحب الله يا قائمقامي، أي قانون يوجد في القرية؟ هل أقف أمامك وأوجّع رأسك هكذا لو وجد قانون في القرية؟ وهل يستمع أولئك الناس لقانون؟ قانون في القرية!.. لو وجد قانون في القرية فهل يُداهم بيت في وضح النهار هكذا، وتُضرب امرأة؟...

انظر يا أمي! ما أريده منك ليس (دعماً)، ولا أقول: تكلم لصالحنا!.. لا تنحز إلى طرف! لا تسندنا، ولكن لا تسند المختار! ليكن كل شخص وحده. عندئذ ليعرف العالم من هو الأكثر شهامة! نحن نميز المحق عن الظالم، ماذا نفعل؟ يكفي ألا تعطي وجهاً للمختار، وتدلله. نزولك الآن في بيته سند كبير له. سيقول الشهود: نزل في بيته قائمقام! ويقولون: غداً تصيبنا سيئة من سيئاته! سيذهب ضربُنا دون مقابل. وسيذهب ابن كنتنا الذي أسقطته دون مقابل. ولا يعرف إن كانت ستموت أم لا؟ وإذا ماتت فسيذهب موتها دون مقابل. لا يمكن رد الظالم إذا لم يلق عقوبة ظلمه! أرهم الآن عقابهم مهما يكن. ليفهموا حدود

العالم ليفهموا ولا يغدون ديوكاً فوق رؤوس الفقراء على الفارغ والملآن! ولتأت الناسَ جرأةٌ فوراً. ليتجرؤوا...

آهَ يا أمي، فعلوا معنا الكثير. وثقوا بقوتهم دائماً. ضغطوا علينا كثيراً. أنا أيضاً لا أعرف ما يريدونه منّا. يريدون بناء بيت قدام بيتنا! يوجد عشرون بيتاً كبيتنا وسط القرية. والآن مختارك هذا يبيع أرضية بيتٍ وسط القرية، قائلاً: صندوق القرية في ضائقة! وقائلاً: سيُعمل تمثال! ولمن؟ للعضو الثاني في اللجنة هاجلي. ابن محمد المجنون. نحن نناديه هاجلي المجنون. لا أحد يريد أن يُبنى بيتٌ قدام بيته. الجيران الضعفاء الخوافون الهزيلون يُطأطئون رؤوسهم. جاء المختار وهاجلي هذا، واختارونا. حفروا أساساً أمام بيتنا الآن. سيغلقون قدام البيت والطريق كله. في القرية يرمون الزبل إلى الخلف. وهاجلي سيرميه إلى الخلف. إلى قدام بينا. زوجته وسخة. لا يوجد بيت خلاء في القرية، وإذا وجد فهو فوق المزبلة. لا يوجد خشب، ولا صفيح، ولا كلس. طالما الوضع هكذا، قلنا لهاجلي هذا: بدل أن تضيّق ساحة القرية هكذا، توجد خرابات بين البيوت، اشتر واحدة منها، ونظفها، وابنه فيها! لا، لن يكون إلا قدام بيتكم! ذهبنا إلى المختار. هو أيضاً قال هذا. ونحن ماذا فعلنا؟ حفر أساساً، ملأناه! صبَّ قرميداً كسرناه! لم ندعه يبنيه! لو كنت أنت، فهل تدعه يبنيه؟ وإذا بناه غداً، فلن ندعه يدخله! نحرقه! سيضيق قدام بيتنا كقبر. لدي أولاد.. أحفاد. أما مؤسف هذا من أجلهم؟ هل يدخل الإنسان إلى القبر حياً؟ الآن يريدون إدخالنا إلى القبر أحياء.

أنا لا أستطيع التدخل بشغلك! أنت قائمقام! لا ظَهْرَ لأصحاب الشحاطات. لا صديق لأصحاب الشحاطات. لا يوجد يا ابني، لا يوجد! استمع للمختار أيضاً، كيف يشرح، وكيف يُفتي الأمر؟ اسمع! كلامي

هو أنني مدعية على هذا الرجل! وقد سرق خروفي المبكر أيضاً. كانت لدينا غنمتان ستحلبان في الحصاد. اعلم أن إحداهما غير موجودة الآن! هل رأيتَ في قرية غنمة تحلب وقد سرق خروفها؟ لدينا بقرة، ولكننا نكدنها إلى المحراث. النير على رقبتها، ويدنا على ثديها. إنها لا تشبع حتى عجلها!.. سرق المختار خروفي، وماذا فعل به؟ ذبحه. وسيضعه لحضرتك هذا المساء. فلتعم عيناي اللتان أرى بهما إذا كنت أكذب!.. مستحيل، وأنا أيضاً أعرف أن عملاً كهذا لن يحدث! ولكنهم يجعلونه يحدث! وُضعت فريضة على كل بيت. قالوا نقود عرق القائمقام. دَفعت بيوت الدرجة الأولى ليرتين. ومنذ نشوب صراع الأساس هذا، صرنا فجأة من الدرجة الأولى! فجأة! لا أدري!... اذهب، وانزل أينما شئت. إذا كنت قد وضعت حليباً جيداً، فخذ الفقراء من حولك، واستمع لهمومهم.. كيف ستعرف من هم؟ وما يوجد في دواخلهم من بعيد؟ أنا نفسي لا أعرف حال كل شخص في القرية! لكل شخص بابه المغلق. إذا وُجد من يعلم ما وراء بابه، فهو الله وحده.. أنت قائمقام، ولا تخاف من أحد، حتى إنك تُخرج المختار والأعضاء من الغرفة، وتجعل جماعة المساكين يحكون كل ما يريدون!.. كل ما يريدون!.. بحرية!.. كيف؟ اسأل عقلك، ومفهوميتك؟ ماذا أفعل أنا إذا لم يعلموك هذا في المدارس التي درست فيها؟ هيا مع السلامة... إذا كنت ابن رجل طيب سأقف أمامك في طريق عودتك، وأقول أنت ابن رجل طيب. إذا كنتَ ملعّباً لكل لحية عندك مشط، فلن أقف أمامك، ولن أنظر إلى وجهك.. أنت اذهب!.. أنا سآتي ببطء. قد حصانك أنت.. استمعت جيداً!. استمعت بشكل جميل! لا يا أمي، لا تزعل نفسك!.. احذر هاه!.. نحن اعتدينا يا ابني. نحن صبرنا كثيراً. وسنصبر حتى تنتهي!...»

- ٢٤ -
استقبال

حين أخبر المراقب الذي وضعه المختار في (تشيل دة دة) بأن ثلاثة خيالة قادمون من السهل «كالريح»، اجتمع القرويون بإشارة واحدة. تقدم الطبل والزمر. المختار في المقدمة. أعضاء اللجنة على يمينه ويساره، والقرويون خلفه. مشوا حتى دغلات القصب.

وُجد من فكر بالنزول إلى أسفل أكثر. ولكن المختار لم يقترب. رفع ذراعه، وأوقف القرويين. قال: «مدير الناحية في (إيدة)، العريف في (إيرك)، والقائمقام هنا! إذا جاء رئيس الحزب ننزل إلى أسفل قليلاً! هنا مناسب من أجل سيدنا القائمقام!..»

وافق هاجلي على هذا مباشرة: «مناسب!»

لم تُشفَ رضوضه بعد. تحرك بصعوبة، فنادى حسن الملاك إلى عند المختار، وحلق ذقنه. وجعلهم يلفون رجله التي تؤلمه.

لم يكن هنالك زحام كبير. كان مستقبلوه سبعة عشر أو ثمانية عشر شخصاً. يُعد المختار قد أنجز مهمته بإرسال الرجال يميناً ويساراً من أجل جمع المستقبلين. الناس لا يأتون. غالبيتهم في أعمالهم وأشغالهم أصلاً. إيه، ولا توجد مدرسة ليخيف المعلم فيُخرج الأولاد! هذا هو الممكن. عندما يذهب المختار إلى الناحية، فكم شخصاً يستقبله؟

يهمس المختار بأذن الزمار قائلاً: «عندما يظهر بين الحقول، تبدأ معزوفة الجزائر!»

ردَّ عليه حسين المجنون: «نعزف معزوفة الجزائر عند وداعه. معزوفة (تشاودر) للاستقبال مناسبة أكثر!»

قال المختار: «حسناً ياه!.. اعزف (تشاودر) للاستقبال. اعزف ما تعزفه، ولكن بانتباه!.. وليتغلغل العزف إلى رئتيه! ليؤثر عليه جيداً! لتؤثر عليه فينبسط منا!.. سيدنا القائمقام جيد.. وبفضله قريتنا جيدة!.. ولكن، أرجوك يا أخي حسين المجنون، انتبه، وضع عقلك في رأسك، هذا ليس وقت جنونك! انتبه يا حسين أفندي، أبوس عينك!..»

قال حسين المجنون في داخله: «عندما تصل البيضة إلى الباب تصرخ: قاق، قاق، قاق!.. الآن تجاملنا كما نرى!.. هل نبتلع هذا؟ تفووووه!...»

«انتبه يا أخي حسين أفندي!»

قال حسين المجنون: «لا تضايق نفسك يا مختار!. سأبسطك، أنت وسيدنا القائمقام!..»

«يا مصطفى! وأنت أيضاً انتبه، أرجوك!..»

«منتبه يا سيدي!..»

«انظروا الآن! سيظهر من الطرف المقابل! من بين الحقول! أرجوكم، انتبهوا جميعاً! إذا اقترب خمس عشرة خطوة، ستُرفع القبعات. تُقرّب القدمان إحداهما من الأخرى، وتنتظرون. طبعاً هو سيأتي، ويقول: مرحباً.. ونحن حينئذ سنطلق جميعاً: تسلم! سنصرخ من قلبنا! من داخل القلب! لنصرخ بشكل حقيقي! لنبسطه، وطبعاً إذا قلنا نحن: تسلم!

بشكل جيد، سينبسط، ويقول لنا: كيف حالكم؟ إن شاء الله يسألنا! احذروا، لا يقال جيدون! يقال. تسلم! مرة أخرى. كما في العسكرية بالضبط! عندما يَسأل العميد، ماذا يقال: هل نسيتم؟ يقال: تسلم! مثلها تماماً!.. طبعاً هو يعرف أننا جيدون. وهل يمكن ألا يعرف؟ قضى سنوات طويلة وهو يدرس في المدارس ويتعلم! هذا قائمقام!... ثم إننا جيدون أصلاً. ألغوا الحروب!. والضرائب ليست سيئة. ونرى القائمقام مرة أو مرتين في السنة على الأقل. وسينصب تمثال في بطن المحافظة. قلت لكم هذا أمس. إيه، أين سنجد حكومة كهذه؟ لا يمكن إيجاد حكومة كهذه!.. انظروا نحن نعيش أحراراً. لا يوجد من يقول: اذهب إلى هناك! هل الدول الأخرى هكذا؟ في جيب الرجل نقود، ولكنه لا يستطيع شراء الحلاوة وأكلها! نحن أيضاً لا نستطيع شراءها، وأكلها، ولكننا لا نأكلها لأنه لا يوجد معنا نقود! لو وجدت، نأكلها! هم لديهم، ولا يأكلونها. عدم الأكل مع وجودها أصعب من عدم أكلها مع عدم وجودها يا جيران!.. في الدول الأخرى إذا كانوا سيعملون طريقاً، يمسكونك، ويشغلونك كالحمار! وحتى زوجتك وابنتك! نحن ليس لدينا هذا. الطرق ليست جيدة في القرى! إذا صارت الطرق، فالقائمقام هنا كل أسبوع! المحافظ هنا كل شهر! هل يمكن تحمّل كل هذا؟ انظروا إنه يأتي مرة في السنة، ويا لما نعانيه! لأن وضعنا اليوم مريح بالدرجة الأولى! لا يوجد فأس أو مجرفة! نحن أحرار إلى أبعد حد! اشتر صفيحة حلاة من السوق إذا أردت! ولا تشتغل أبداً إذا أردت! اضطجع عشرة أيام أو مت من ألملك إذا أردت!.. أنت حرّ! ولكن الدول الأخرى ليست هكذا! فهي تعطي أمتها يوم تعطيل واحد، ولا تعطيهم يومين! ثم إنها تشغلهم! بعد ذلك،

انظروا!.. تُزَرِّعهم غابات في الجبال، وعلى القمم. أشجار! للجبال والتلال والقرى!.. لماذا تتدخل الحكومة بجبل القروي! بغابة كان أم من دون غابة! هذا جبل. هل سموه جبلاً لمجرد التسمية؟ لو كانت الحكومة التي على رؤوسنا حكومة سيئة - الله لا يرينا - وحاولت أن تعمل ما تراه في الدول الأخرى، وإذا قالت لنا: ستُزرع أشجار على الجبال والتلال! حينئذ سنكون قد أكلناها! تلال، وجبال هائلة! هل يمكن مواجهتها بزرع الأشجار؟ وإذا كانت المحافظة على الشجرة التي تزرعها إجبارية؟ حينئذ ستسقي ما زرعته لتحافظ عليه! ولكن شغل الأشجار هذا صعب، لأنها لا تبقى بمجرد السقاية! وفي السنة القادمة ستزرع مرة أخرى. ستزرع، وتسقي. كل سنة من جديد! حتى تتغير الحكومة التي على الرؤوس! الحكومة لا تتغير بسهولة! إذا تغيرت، تتغير بعد خمسين سنة! وإذا عاندت الشجرة، فالحكومة تعاند! والشجر لا يتراجع عن عناده. أمة الأشجار كأمة النساء تماماً. تنمو إذا أردت، ولا تنمو إذا أرادت. ليس بالقوة. إذا رغبت أمة النساء تنام معك جيداً، وإذا لم ترغب فلا تنام. تنام، ولكن تمشية حال! كالأشجار. هكذا يا جيران. لأن حكومتنا تركتنا أحراراً، ولأن القائمقام موظف حكومة كبير، ولأنه جاء حتى أقدامنا، سنصرخ من داخل قلوبنا: تسلم يا سيدي، تسلم! وسيستدرجنا بالحكي مساء وصباحاً هاه! حينئذ لا تتركوا من أيديكم النباهة. لأن هؤلاء يصيرون ماكرين. يسأل قائلاً: كيفكم، هل أنتم مبسوطون من حكومتنا؟ ستقولون بسرعة: مبسوطون! إذا قلتم: غير مبسوطين! فمعنى هذا مختلف! سيكتب اسمك في عقله فوراً. بعد ذلك، إذا غمز للجندرمة، ينتهي الأمر!.. ستة أشهر عقوبة. حينئذ من يتضرر؟

أنت تتضرر! يبقى الحصاد والبيدر. ويبقى المحراث. وتغدو حالة الأولاد صعبة! لهذا السبب ستبقى أنت على ما أنت، ولا تتوان عن قول: جيدون! ستقولون: مبسوطون! هل سينقطع لسانك من قول هذا ؟ أم أن قول هذا صعب جداً؟ هاه، انظروا، لأنه ماكر جداً، فلا يسأل دائماً: كيف الحكومة؟ يسأل: كيف المختار؟ لأن المختار يعني حكومة في القرية! المختار ينفذ القوانين التي تعطيه إياها الحكومة. فالأعمال التي يعملها ليست من عقله! نقود، وإذا قالت نقوداً! فريضة، إذا قالت فريضة! كلها تأمر بها الحكومة، والمختار يفرضها على القروي. لهذا السبب، نحن جيدون يا سيدنا! وانتهى! لا يوجد كلام آخر! ونحن جيدون حقيقة! الآن توجد ديمقراطية! أول أمس، شرحت لكم كلكم ما تعنيه الديمقراطية! الديمقراطية ليست انفصالية، الديمقراطية تعني أن تكون حيث الجميع! الأمة تقول بالجملة: نحن جيدون! وهذا يعني أنك جيد! لأن الرجل الذي هناك، هل يقول: جيد! إذا لم يكن جيداً؟ لا يقول حتى إذا مات! وهل هو غبي ليقول مثلنا: أنا جيد! إيه، طالما أنه جيد، فأنت أيضاً جيد! لأن هذه هي الديمقراطية كما قلنا! انظروا ما أوضحها! كيف نكون ديمقراطيين إذا لم نكن جيدين؟ بما أن القائمقام يأتي حتى أقدامنا، فهذه تعني ديمقراطية! وطالما أننا جيدون، فنحن جيدون! أمر في غاية الوضوح! الآن يا جيران، إذا نادى القائمقام أحدكم، وسأله: فالجواب: جيدون! إلا، إذا سألكم جميعاً بالجملة، فالجواب: تسلم! كما في العسكرية تماماً. إذا شتم أمهاتكم بالجملة، تقولون: تسلم! حسن؟ هل فهمتم الوضع جيداً؟ نشف فمي ولساني والله! انظروا! والله إذا أعلنتم في الإذاعة لتجدوا مختاراً مثلي، لما وجدتم. يا لكثرة ما شرحته لكم في هذه العجالة!.. هذه

دروس، دروس في حسن التصرف! إذا جاء رجلان، فكيف يُحكى، وكيف يُجلس، وكيف يُنهض؟ أسلوب وطريقة!.. وقد علمتكم إياها هكذا وقوفاً! في هذه الحال يدربونكم اثني عشر أسبوعاً لتعليمكم الشيء نفسه! الجندي الغر، لا يمكن أن يقف بالصف للتفتيش جيداً إلا بعد اثني عشر أسبوعاً! أنتم فهمتم كل شيء بأقل من اثنتي عشرة دقيقة بإذن الله، وما شاء الله! بعد دقيقتين، ستقفون بالصف للتفتيش. لأن مختاركم جيد! لأن مختاركم ذكي! نشيط، وكذا، وكذا.. علينا ألا نطيل. الوضع في هذا المحور.. إيه، أين مراقبنا؟ أما قال لنا هذا السافل: يأتون كالريح؟ ولاه مراقب، ابن آوى سافل، أين أنت؟.. أين سيدنا القائمقام؟..»

«إنه قادم، قادم!.. ها هو قادم!...»

صرخ المختار بحسين المجنون: «اعزف لنر معزوفة الاستقبال! أرنا مهارتك!» وفي داخله: «أرنا يا رجل كالإوز! لا تقولُ لنفسك: لأعزف بإتقان!..»

ظهرت الخيول من قبل الجسر.

صرخ المختار: «قفوا بالصف!» وبدأ بإعادة تنظيم المكان: «قفوا جيداً! ليتقدم الذين ألبستهم أجدّ قليلاً. ذووا الخروق والرقع إلى الخلف! انتبهوا! ارفعوا القبعات! حسنٌ، انتبـ........ـه!..»

يقترب ثلاثة خيالة. إثنان مدنيان، وواحد ببزة رسمية. هذا من الجندرمة، وبرتبة ملازم أول. أطلق شارباً جديداً. ارتدى جزمته الصفراء من جلد (السختيان). يخطف النظر فجأة بين المدنيين. ركب حصاناً أسود، وقدماه في الركابين. وينزلق إلى هذا الطرف وذاك. أحد المدنييّن

بائس. مهدل الرأس والأذنين. ربطة عنقه مغطوطة بالقذر كربطة الجابي، وهي مزيتة. ألبسته مجعلكة. هذا مأمور النفوس عثمان. عرفه القرويون من أول نظرة. تقع على عاتقه أعمال كثيرة. من يولد ويموت!.. من يتزوج ويطلّق!.. يبدي وجهاً ضاحكاً عندما يصول إلى دائرته. يسأل عن الحال والأوضاع. المدني الآخر هو القائمقام أورهان. بدين، ونظيف ومعتنٍ بنفسه! قال في داخله: «لم يُتعب نفسه أبداً ابن الناس! لم يُنهك!» وجهه أبيض من جهة، وبشرته لماعة من جهة أخرى. حيوي، شاب. عيناه براقتان، وزرقاوان. عيناهُ ثاقبتان، عندما تنظران يعتقد الواحد أنهما لا تريان الوجه فقط، بل ما وراءه..

نظر القائمقام من فوق حصانه إلى قرويي قرة طاش باستصغار. نظر: رفعوا قبعاتهم، ينتظرون. المزمار يزمر كبقرة مخنوقة. والطبل يُقرع بجنون. نظر إلى المختار من بعيد. قال لنفسه: «انظر لما فعله هذا الرجل المبالغ لإظهار نفسه يا أورهان!.. انظر إلى هذا الطبل والزمر!.. انظر إلى هؤلاء القرويين الفقراء الذين خرجت أيديهم من كونها أياديَ، ووجوههم من كونها وجوهاً!.. انظر إلى هذا التجمع!..»

شدّ ملازم أول الدرك ومأمور النفوس رأسيّ حصانيهما، وبقيا إلى الخلف بثلاث خطوات. قاد القائمقام حصانه ببطء. نظر بعمق إلى القرويين. اصطفوا كخراف بشرية. يذهبون إلى حيث يُنادون. يركضون عندما تقول لهم اركضوا. يموتون عندما تقول لهم موتوا. لا يستطيعون التعبير عن وضعهم باللغة.. منهكون وسط ألبسة قديمة بالية.. التفوا بخرق. ذهبوا في عذاب عمره قرون!.. عيون دون بريق تحولت إلى آبار سحيقة لا قرار لها. عيون شاردة لا تعبر عن شيء، ولا تقول شيئاً، ولا

تفهم شيئاً، فقدت معناها، وحتى إنها دون معنى أصلاً. وجوه احترقت، ولم تُغسل أو تُنظف.. تقشرت، تنظر إلى الآخر بحقد، تقول: «أنت أوقعتني بهذه الأوضاع!.. أمك، ودينك.. زوجتك وكتابك!.. سلالتك ومذهبك!..» أناس سمر، مبقعون بالسواد.. وعيونهم أيضاً...

نظر القائمقام، وبقي هكذا. وبعد ذلك، صحا. قال: «السلام يا أصدقاء!..» ورفع يده.

بريق صغير في العيون الخاوية من المعنى.. ضوء كضوء مرآة الجيب الصغيرة، جاء وذهب.. اهتزت أشجار السرو الحزينة في حديقة خربة.. اهتز القائمقام...

قال في داخله: «هذا الشعب.. هذا الإنسان.. هذا وطننا.. أساسُ.. صاحب... الحقيقي... وإيه، إيه ولاه!»

قال بعضهم: «عليكم السلام!» ونظروا إلى المختار مندهشين.

قال بعضهم بشبه صوت: «تسلم!» وتوقفوا.. نظروا إلى المختار بخوف. نهاية، أطلقوا: «عليكم السلام!»

أوقف حصانه. يشعر بدوار في رأسه، ولسانه جاف. قال لنفسه: «أصحاب... أساسكم.. وجوه دون معنى.. حقد، حقد، حقد.. حقودة.. إيه!.. إيه!.. إيه ولاه!.. إيه ولاه!..». لم يستطع ضبط انفعالاته. لو قالوا له: «بَهْ» سيبكي. لم يكن هكذا أبداً.. لم يهتز إلى هذا الحد عندما يرى قروياً، ولم يخف إلى هذا الحد لا في أثناء دراسته، ولا في أثناء التطبيق، ولا في الجندية، ولا على الطرقات، ولا في القطارات، ولا في السفن.. مازال يهتز..

ركض المختار. أراد أن يمسك يده.

لم يترك فرصة لهذا. لم ينظر إلى وجهه. قفز نازلاً عن الحصان. ركض قروي، وأمسك الحصان.

مرة أخرى مدّ يده المختار إلى يده.

أعطاه إياها يائساً..

بعد ذلك، قال: «اسكت هذا المزمار». سحب يده من بين يدي المختار. قال في داخله: رأينا نحن قرى واستقبالات كهذه!.. وانجررنا بلعب كهذه!.. لم نعد نُجرف بسهولة وراء حركات وألاعيب من هذا النوع! كنا غضين، ونضجنا.. كنا عمياناً وفتّحنا.. نيّمونا، وصحونا! نحن استمعنا للأم إراظجة التي تقطّع القلب، والمسيّلة دمها كمن أكل سبع رصاصات.. صدّقنا آلام إراظجة، وآمنا بها!.. لا كذب، ولا خداع.. كما حدث، ورأت.. دع عنك هذه الاستقبالات المزورة.. هل وجد من طلب منك استقبالاً؟ جرّد هذه التزويرات أنت أيضاً كالأم إراظجة.. ارم هذا الوجه المجعلك الوسخ! ارمه، وتعال إلى عندي!.. تعال..»

مشى نحو القرويين المصفوفين. بدأ يصافحهم واحداً واحداً!.. ويسألهم عن أنفسهم. الجميع يقدمون الإجابة نفسها. نموذج واحد.. كل شخص مختلف عن الآخر، ولكن كلماتهم هي نفسها.

يقولون: «جيدون يا سيدي! رأيناك، وصرنا أفضل!.. لله الشكر، نحن جيدون!.. بفضلكم يا سيدي! يسلم السائل يا سيدي!.. ندعو بدوام صحتك يا سيدي!.. ليلاً نهاراً.. ليجعل الله حكومتنا ودولتنا وجيشنا وجنودنا وحزبنا... والله بالله جيدون...»

«كيف جيدون؟..»

أشار بيده قائلاً: «امشوا لنرَ!» اصطحب الرجال الذين صافحهم،

ومشى إلى داخل القرية. تصطف مئات من تلك الأيدي داخل رأسه. أيدٍ جافة كالخشب. أفواه... فَكَّرَ: «الوضع في غاية السوء على جبهة الشرق!..» قال لنفسه: «في غايةِ غايةِ السوء!.. خلعوا قبعاتهم.. كيف ينظرون حاقدين إلى الإنسان؟..»

ولكي لا يكون الموقف غير لائق، نزل ملازم أول الجندرمة ومأمور النفوس عثمان عن حصانيهما.

نظر المختار، فرأى أن القائمقام لا يعيره اهتماماً، وقد أخذ القرويين، وهو يمشي. ركض إلى الملازم أول، ومأمور النفوس، صافحهما، وقال مكرراً عدة مرات: «أهلاً وسهلاً!»

مشى، وهو يكلمهم في آن واحد. إنه متضايق...

وجد عثمان أفندي طريقة عَلِمَ فيها أن عشر زجاجات نبيذ، وست زجاجات عرق، وخروفاً مبكراً جاهزة، ويمكنه أن ينكبّ عليها فور وصوله. ملازم أول الجندرمة لا يشارك في الحديث كثيراً. ولكنه يحاول إبداء نفسه مسروراً لكي لا يكسر بخاطر المختار...

أضحك القائمقامُ القرويين بطرفة أو اثنتين. حاوطوه كأنه خبر جديد. حرارة ودفء واضحة إلى حدود الإحساس بها باليد، تبدد مشهد «التابع» الذي كلسته السنون، وتذيبه.

كان قد بدأ تبادل المزاح.. من القلب...

دخلوا إلى وسط القرية. تظهر كومات التراب المحفور. قال لنفسه: «نعم، هنا أرض بيت هاجلي محمد المجنون! والبيت الذي خلفه لقرة بيرم!...»

ركض المختار فور دخول الجمع إلى وسط القرية. كان يجد أنه من

المناسب أن يقف على يسار القائمقام مهما كلف الأمر. قال في داخله: «إنه يقابلنا بوجه ممتعض بشدة، ولكنه يضحك للناس! خير إن شاء الله!.. الله، الله.. ولاه، ثم إنه كالقروي تماماً ياه! ما هذه التحية القائمقامية ولاه؟ أهكذا يضرب القائمقام سلاماً ولاه؟ حيف عليك ياه!..»

«كيف أعمال الإعمار في القرية يا مختار؟..»

لملم نفسه فوراً: «بفضلكم يا سيدي...»

«أسألك كيف!..»

«بفضلكم تبنى بيوت جديدة يا سيدي!..»

«أرى! حُفرت الأساسات!.»

«أساس بيت يا سيدي! عضو لجنتنا هاجلي يبنيه!..»

«جميل! هل آلت أرض البيت هذه إلى هاجلي من أبيه؟»

«لا يا سيدي، ليست من أبيه! اشتراها!..»

«من أين اشتراها؟ وممن اشتراها؟»

«المكان هنا مالُ مشترك للقرية يا سيدي! عُرضت للبيع بقرار اللجنة. طلبها هاجلي، واشتراها..»

«جميل...»

«نأخذ من هاجلي سبعمئة ليرة للصندوق...»

«لمن الخرابة التي هناك؟.»

«صاحبها راعي عجول في (ألان كوي) يا سيدي! رجل فقير. انهار سقفها من عدم الصيانة...»

«بعدها توجد واحدة أخرى!..»

«توجد يا سيدي! كثيرة. أكثر من عشر».

«جميـ....ـل!..»

«تَفَرَّقَ أصحابها. كل واحد ذهب إلى مكان! ما ستفهمه أن الذين ثقل عليهم عبء إدارة الحياة، ذهبوا!.. والذاهبون لم يعودوا!.. سقطت أسقفها يا سيدي! لكثرة أصحاب الأراضي الجافة الفقراء... لم يستطيعوا إدارة الحياة!..»

«هل يوجد كثير من الجيران دون بيت، أو بيوتهم غير مناسبة؟»

«كثير يا سيدي! يوجد كثير!..»

«هل ستبيع أرضيات بيوت أخرى؟»

«لجنتنا ستبيع يا سيدي! تلزم نقود من أجل التمثال! يبدو أنه لابد من بيعها! هكذا قررنا...»

«دع أمر التمثال الآن! لا ضرورة لبيع أراض وسط القرية من أجله! قريباً سيأتيكم كتاب. أجبني الآن: هل تجتمع اللجنة، وتصدر قراراً من أجل هذه الأراضي التي تبيعونها؟.»

«تصدر قراراً يا سيدي!»

«والتصديق؟ ماذا عن التصديق الرسمي؟»

«قريباً سنعرضه عليكم يا سيدي!..»

هاجلي لا يفهم شيئاً مما يُحكى. ينظر.

صرخ القائمقام قائلاً: «ستلغون هذه القرارات. لا يوجد بيع أرضيات بيوت داخل القرية! من يحتاج بيتاً جديداً سيشتري خرابة. ينظف الخرابة، ويبني بيته فيها. بداية يجب أن تملأ الخرابات. إذا بقي من يحتاج بيتاً رغم هذا، سنفكر له بحلٍّ آخر. لا تخف! لا يمكنكم ملء هذه الخرابات في عشر سنوات...»

حاول المختار تبديد هذا الغضب: «بفضلكم لا تبقى عشر سنوات يا سيدي! قريتنا نشيطة بهذا الخصوص. إنها تُنتج كثيراً...»

التفت القائمقام إلى الملازم أول: «تابعوا هذا الأمر يا ملازم أول، وجهوا أمركم للمخفر!..»

قال الملازم أول: «أمركم سيدي!» وحيّاه.

التفت إلى المختار من جديد: «هل فهمت ما قلته؟»

«فهمت يا سيدي.. يا سيدي!»

«إذن اجعلهم يسحبون خيولنا!..»

التفت إلى الملازم أول ومأمور النفوس عثمان، وقال: «سنذهب يا شباب!..»

تحوّل المختار إلى من كأنه ضُرِبَ على رأسه: «سيدي، قائمقامي، سيدي!.»

«قلتُ سنذهب، هذا كل شيء!»

«استعدينا يا سيدي، وذبحنا خروفاً!..»

«اجلس وكله بنفسك!.. بالعافية!..»

- ٢٥ -
غيمة سوداء

يخيم السكون الشديد على قرية قرة طاش مساء. ظلال (هاونا) و(سيفري) كصفٍّ أوعية. فجأة تدخل الشمس إلى حضن أمها. الغنم يأتي إلى حظيرته. والعجول تأتي إلى اسطبلاتها. يخرج إلى الطرف الآخر أصحاب الدواب التي لم تأتِ إلى زريباتها واسطبلاتها. كل شخص يقود ما فقده، ويجلبه. بعدئذ، لا يبقى حيوان واحد في الخارج.

ينزوي أناس قرة طاش ببطء. وتنزوي الأضواء. وتنسحب الأصوات. وتنسحب الأيدي والأرجل. وتمحى القرية. تضيع. في كثير من الأحيان يكون أذان المغرب والعشاء الذين رفعهما الشيخ بيت الله الصوت الوحيد والأخير.

يعمل مقهى نوري قليلاً بين المغرب والعشاء. هذا وقت قصير ذو ضوء من أجل الجيران الذين لم يجدوا أنفسهم متعبين كثيراً. ولكن نوم الربيع الحلو يأتي سريعاً، فيجلسون في بيوتهم ذات الغرفة الوحيدة. ضوء نوري الشاب يقول لظلام القرية العجوز: «استسلمت واقفاً» وينزوي. يسيطر الظلام على كل مكان، وكل بيت.

* * *

انتهى الطعام في الغرفة.

أضواء المختار مضاءة حتى الآن.

قال العضو الأول في لجنة القرية إبراهيم: «بالعافية جميعاً يا أصدقاء. على البركة! أكلنا، وشربنا، الله يبارك! نحن أكلنا، وليزيدكم الله، وليرفع السفرة من وضعها! عن إذنكم الآن. لأذهب، وأنام. أخرجنا شغل المطحنة خارج كل هذه الأعمال اليوم. سنذهب غداً لزراعة الخضار. علينا ألا نفوّت الموسم. الزمن يمضي يا أصدقاء...»

قال المختار: «مع السلامة يا إبراهيم المحترم» وفي داخله: «أكلت، وشربت كالجاموس يا سافل ابن السافل! اذهب الآن، واخمد كالدجاج من المساء». له: «مع السلامة يا صديقي! اذهب، ونم، وانهض باكراً». وفي داخله: «عدم إقامة القائمقام أفادتك يا قواداً كبيراً!..»

ومع العضو إبراهيم، نهض آغالي أيضاً.

نظر محمد الرأس الحجري، فوجد واحداً أو اثنين ينهضان، فنهض أيضاً. نهض المنجل، وإبراهيم الحطاب، والبقال حسين أيضاً..

لم يبق عند المختار غير هاجلي المجنون، وحسين المجنون والعضوين الثالث والرابع. وجد هاجلي نسيان ألم ظهره ورجله لفترة رابحاً من أجل عدم تفويت وفرة المائدة. قال المختار: «لنجلس، ونأكل بشكل جميل! يجب ألا تُهان كل هذه النعمة! ثم إن هذا حرام! ولكن ممنوع مسّ المشروبات. لنخبئها في مكان ما. تلزمنا في المستقبل. يمكن أن يحلّ بلاء على رأسنا اليوم أو غداً. تكون حينئذ جاهزة، ونخرجها!..

أمنوا المختار على زجاجات «الحليب». شدوا الخروف والأرز والحلاوة إلى أمامهم. ليس أمامهم حلٌ غير الأكل كيلا «يُهان» الطعام.

ماذا عن المختار؟.. قلبه يغلي. قال في داخله: «هذه تُعدّ صفعة لنا في القرية! هذا شرخ كبير في رصيدنا! ولاه قواد أبصقُ في فمه! ولاه، أينفض مختار قرية كبير هكذا، ويُغادَر. للإنسان كرامة ولاه! قمنا، وحضرنا كل هذه التحضيرات من أجلك. لعنّا نَفَسَ الجيران! استقبلناكم رجالاً رجالاً بالطبل والزمر! أرنا رجولتك قليلاً مقابل احترامنا لك!.. السلام يا أصدقاء!.. هيـ......ـه، ليلسع القراد لسانك! السلام! من أين يغدو بائسو قرة طاش أصدقاؤك ولاه؟ أم أن آباءكم كانوا معاً في اليمن واليونان؟ ولاه، هنالك قدوم مشدود هكذا، وقول: مرحبا! وبصوت عالٍ: كيف حالكم؟ لم تفعل شيئاً من هذا! إذا صرخت، يجب ألا يبقى شحم في قلوب القرويين، ويجب أن يذوب! عليهم أن يخافوا منك هكذا.. إذا لم تخف أمة القرويين فوالله حال الحكومة بالويل! لكل شيء طريقة وأسلوب! آه لو أنني قائمقام! آتي قبل كل شيء، وأصافح المختار: كيف حالك يا مختار؟.. هل أنت جيد؟ الله يعطيك العافية يا أخي!.. أحسنت، أحسنت، أحسنت يا أخي!.. أريد أن أراك دائماً هكذا يا مختار! سررت منك كثيراً يا مختار! هيا، اجعلهم يربطون خيولنا! علينا أن نرتاح قليلاً! لتأتِ قهوتنا بسرعة! هل الطعام جاهز؟ اجعلهم يضعون الطاولة فوراً! أرنا مهاراتك كلها لنرَ! هيا يا أخي!.. ولاه، هكذا يتكلم من نسميه قائمقاماً! هكذا يدخل إلى القرية من عنده دين وإيمان! من أين الدين والإيمان لهؤلاء السفلة؟ يدرس هؤلاء الفلسفة في المدارس بدل تدريبهم على الطريقة والأسلوب! وهل يبقى دين وإيمان عند من يدرس الفلسفة؟ ابن قادر الجابي من (أورطاكوي) درس الفلسفة في المدارس، وصار ملحداً! كأننا لا نعرف هذه الأمور؟ آه، ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

هَدَمَنا، وذهب!.. قائمقام قواد هَدَمنا وذهب. ولاه، ماذا يحدث لإراظجة المهمومة هذه؟ ولاه، نظرت! ركب القائمقام الحصان. أنا أرتمي على يديه وقدميه، أقول له: لا تفعل يا سيدي. هدمتنا، وذهبت. حضرنا، وذبحنا خروفاً مبكراً يا سيدي!.. وأحكي هذا باسم القرية، خرجت تلك المرأة الجربانة تقول: يا سبع القائمقامات يا أمي! الله يحفظك لأمك وأبيك وأولادك! الله يجعل التراب الذي تمسكه ذهباً أصفر! يا أمي، بقي لنا عندك طلب واحد. داهم عضو لجنة القرية بيتنا، وأسقط ولد كنتنا في شهره الثالث والنصف! نحن ندعي عليه! افعل ما تريد فعله بهؤلاء يا سبعي!.. أرواح هؤلاء الآن بيدك!.. انظر إلى هذه ولاه!.. وماذا عن هذا القائمقام الطائش؟ لا يجيب على سؤال مختار كبير، ويجيب على ثرثرة امرأة مهمومة: يا والدتي! إذا انتهكوا حرمة بيتك، وضربوا كنتك، وأسقطوا ابنها، فاعرضي شهودك، وتقدمي للمحكمة! عقوبته كبيرة! لا تتوقفي أبداً! اذهبي فوراً ومباشرة إلى المدعي العام الجمهوري!.. هكذا يتكلم. انظر! يا هووووه... حكومة كبيرة ستعمل من أجل ابن الحرام بيرم!.. ويقول عقوبته كبيرة!.. ولاه هاجلي السافل!.. لتذهب المرأة المهمومة وتدعي... هذا يعني أن نارك مطفأة!.. يجب أن نجد طريقة، وننقذ هذا الأمر هنا! وإلا فإن هذا هو اليوم الذي تُلعن فيه أمك! عيناك الغبيتان هاتان ستبيضان جيداً في السجن! برزت ضرورة إيجاد طريقة لتنظيفك جيداً! تماسك! أنت مضطر للسكن أربع سنوات أخرى على الأقل في مستنقع الحي السفلي! وفيما بعد، ستبني بيتك في واحدة من تلك الخرابات، هذا إن استطعت!.. غداً يأتي أحد الجندرمة جالباً لنا قرار القائمقام، ويجعلنا نختم. وإذا كبسنا الختم ينتهي كل شيء! لا يمكنك أبداً أن تتصرف بخلافه! لا يدعونك تتصرف! هذا الأمر هكذا...»

لم ير حسين المجنون شرود المختار هكذا وحده جيداً. قال: «يا عزيزي المختار، المسألة لا تحتمل كل هذا التفكير العميق يا صديقي! الإنسان لا يقاطع الحياة إذا لم يأكل السيد القائمقام طعامنا! تحب الله ومحمداً لا تهتم! لعل عملاً مستعجلاً ظهر عند الرجل! ثم إن هذا الرجل متزوج حديثاً. لا يمكن أن ينشغل في القرية تاركاً زوجته. هذا أولاً. وثانياً، الرجل الموظف غيور جداً. صدره ليس واسعاً كثيراً مثلك ومثلي. مثلاً لنعتبر أنك القائمقام الآن. تغار على زوجتك من المدعي العام، ومن القاضي أيضاً، ومن رئيس الشعبة أيضاً. لأن الأعمال تدور. ولأن أكثر زوجات الموظفين جميلات ومرتاحات يظهر بينهن من لا تقف حتى عندما يكون زوجها فوق رأسها. حقيقة هذا صحيح، انظر. ماذا قال سيدنا حضرة أبو بكر: عليك ألا ترخي حبل أمة النساء كثيراً. ما أعظم هذه العبارة لمن يعرف! لهذا السبب فإن حركة القائمقام هذه ليست خاطئة كثيراً يا مختار. كيف ستعرف ما في قلب كل شخص؟ يمكن أن يكون عنده فكرة ما. ممكن. لهذا لا تحزن كثيراً! دع الحزن، واستمتع!..»

أخذ المختار نفساً عميقاً، وقال: «وهل أنا الذي أحزن؟ لا يا روحي! نحن لا نحزن من أجل هذه الأمور! بابنا مفتوح دائماً. من يرغب يأتي، ولا يأتي من لا يأتي! طعامنا وخبزنا دائماً موجود والحمد لله! نحن لا نحزن من أجل أنفسنا، بل نحزن من أجل هاجلي هذا! تعقدت أموره جيداً! دع قول السيد حضرة أبي بكر، فإن هذا الولد الذي سقط خري في وسط الأمر جيداً! هاجلي هذا واحد تيس! ما عنده ذرة عقل في رأسه! لا يمكن أن تهجم على بيت خصمك بحضن حجارة في وضح النهار ولاه! ثم إنه لا يمكن في أي وقت التعرض لجنس النساء. يمكن أن تكون حاملاً، أو

شيئاً... مالها الليالي، هل ستكسرك؟ إذا كان عندك ثأر، فعليك أن تأخذه ليلاً. عليك أن تُشعل النار بحطبة الإشعال! عليك ألا تحرق أصابعك طالما أن حطبة الإشعال موجودة! والآن هاجلي هذا أشعل النار بيده، وهو يحترق ملتهباً! وسيحترق أكثر! إذا لم نجعل إراظجة ترجع عن دعواها فإن ناراً موقدة ستنطفئ تماماً! الآن، هذه هي مشكلتنا يا حسين المجنون! أنا لا أحزن لعدم بقاء المختار، بل أحزن لهذا! يقولون إن وضع الكنة سيء. كيف صارت يا ترى، هل لديكم أخبار؟»

كح الحارس مصطفى فوراً: «هي سيئة أيضاً!..»

«هل هي سيئة جداً؟»

«سيئة جداً!»

ضرب المختار يديه على ركبتيه، وقال: «هاجلي هذا قاطع طرق! الرجل الحمار هذا قاطع طرق!.. ولاه، هل خرجت في وضح النهار لقطع الطرق؟ ما ذنب هذه الفقيرة ولاه؟ ثم هل تضرب امرأة بحجر على ظهرها؟ أين رأيت هذا؟ عند من رأيت هذا؟ ولتمت خدوج قرة بيرم، حينئذ افهم الاعتداء على حرمة المنزل وما منزل!.. افتح أفق عينيك جيداً!..»

أنَّ هاجلي بصوت يشبه أزيز نحلة: «من أين لي أن أعلم حملها؟ من غضبي كانت عيناي لا تريان جهاتي الأربع!.. لغضبي كنتُ لا أميّز شيئاً!»

«لا تتغابى، لا تتغابى!.. وهل تظن الناس مغفلين مثلك يا سافل؟ أهل قرة طاش ينطون على بعضهم بعضاً صباحاً ومساء كالكلاب! ليس لديهم تسلية أخرى غير النط! وهذا هو سبب نومهم من بداية المساء!

رغم نوم بيرم المرأة المهمومة مع أمه في غرفة واحدة، ولكنه يجد طريقة لينط على زوجته! يقترب من امرأته وهم نيام! رغم كونك حراً في البيت أنت، ولكنك تترك بطن امرأتك فارغاً. أما هو فيملؤه! أنت غبي في هذا الأمر بقدر ما أنت غبي في الأشغال الأخرى! رغم وجود خشبة للإشعال، تشعل النار بيدك! إذا ماتت كنة المرأة المهمومة سيشهد الناس كلهم ضدك. لا توجد طريقة سهلة لإخفاء الميت. علينا أن نجد حلاً سريعاً لهذا الأمر! وإلا فإن قرة بيرم غدا يقوى، وينطلق في الطرقات! توجد أغنية ياه.. تقول: إذا شعر فؤادي، ينطلق في الطرقات! كتبت الكنيات في المخافر!.. ذاك هو الحساب. الأوراق أيضاً تكتب في المخافر». وقال في داخله: «آه من هذه الأمور، آه. قمنا أيضاً وجعلنا بيرم يتوضأ وضوءاً طويلاً! آه من هذه الأمور!..»

بدأت يدا هاجلي، ورجلاه ترتجف: «والله، أنت الذي تعرف يا مختار!.. لو كان عقلي يفهم بالسياسة، فهل كنت سأسقط في هذه الأحوال؟ أنا عرقت، ولا أميّز. أنت انقذني! اعمل ما بيدك من أجل أن تنقذني!..»

قال المختار: «الحل هو مصالحتكم هنا، وسحب إراظجة المهمومة وقرة بيرم إلى زاوية، وتليين عقليهما! لا يوجد حل آخر. إذا سمعت الحكومة بهذا فإنها تعتبر ذلك الولد الساقط من بطن أمه وعمره أشهر ونصف مساوياً تماماً لشهم عمره خمس وثلاثون سنة! ما أذكى الحكومة!.. من يعلم مكان أي رجل عظيم سيأخذ هذا الولد عندما يكبر؟ حتى سيدنا عصمت باشا كان في زمن ما قطعة لحم عمرها ثلاثة أشهر ونصف في بطن والدته السيدة جورية خانم! لو خرج في ذلك الزمن

هاجلي مجنون، وضرب والدته بحجر على ظهرها، وأسقط قطعة اللحم هذه، سيحرم هذا البلد العظيم من والدنا عصمت باشا!.. هكذا تحكي الحكومة. طالما أن الحال هكذا، أنا أعرف جيداً بأن ولد قرة بيرم مهما صار، ومهما صار، سيصير راعي عجول! ثم انظر إلى أبعد من هذا، آلاف النساء في المدن والقرى يتهربن بشدّة من ولادة كثير من الأولاد متذرعات بضيق ذات اليد، ويسقطن أولادهن دائماً، ورغم أن سادتنا القائمقامات والمدعين العامين، ورؤساء الشعب داخل الحكومة يعرفون هذا جيداً، يعاقبون مرتكبي إسقاط الأولاد بسبب الغضب!.. لأنه عمل الحكومة! ماذا قالوا؟ في هذه الدنيا ثلاثة أمور لا تدخل في العقل. الأول: شغل الله. والثاني: سير الحكومة. والثالث... لا أدري ما للقروي! من الصعب أن يدخل العقل شغل الحكومة! يعلم الله ياه، لتنقذ كنة إراظجة غداً، وتنهض، ستفرح في قلبها لأنها أسقطت ابنها! ولكن حكومتك أنت لا تنظر إلى هذا. عند الحكومة نساء يسقطن أولادهن بطرائق فنية، ومن جهة أخرى لا تتسامح بإسقاط ولد للضرورة. أو بسبب الغضب هكذا! إذا انتبهتم ترون، لا أحد يزيد أولاده عن اثنين! أو ثلاثة! ماذا قال سيدنا محمد؟ قال هذا في الجمعة الماضية الشيخ بيت الله: لا يوجد في الدنيا أبرك من مني الرجل! خلقها جناب الله بحيث يمكن لمني أجرب رجل أن تنجب مليون ولد في مرة واحدة! ولكن الله تعالى أعطى رخصة إنجاب ولد واحد في كل مرة، لأنه لم يرد خنق الأرض بمزيد من الزحام! هذا ما تفضل به حضرة نبينا. حسنٌ، لماذا لا تلد نساء الحكومة إلا ولدين فقط؟ لأنهن يسقطن أولادهن دائماً! لأنهن لا يردن مزيداً من الأولاد! لأنه بحسب الطرق الفنية، إذا ابتلعن حبّة بقدر قلب عجوة الخوخ، يخرجن ما في بطونهن، ويرمينه دون أية متاعب! لا

بكاء، ولا ألم! براحة! وفي الوقت نفسه، فإن لهذا فائدة كبيرة! كيف فائدته؟ فائدته هكذا: حينئذ تندس النساء بأحضان أزواجهن بجرأة أكبر! النظام يزيد بين المرأة وزوجها! يزول الصراخ والشجار! هذه هي أيضاً فائدة تلك الطرائق الفنية. طبعاً، لكل شغل أسلوب. ولكن لمن يعرف! ولكن هاجلينا لو عرف الأسلوب، لما تعقدت الأمور هكذا. تعال ونظف قذارته. هل تنظف؟»

قال هاجلي: «أنت تعرف هذا! هوهوووه!.. قلتُ إنك تعرف. لو كنتُ أعرف، فهل أفعل هذا؟ هوهوووه!...»

«أنا أعرف، أنا أعرف ولاه؟ من أين أعرف الأمور المعقدة هكذا؟ ذبحنا خروف الرجل! وأسقطنا حمل زوجته! ومددناه هو، وبللناه جيداً! والآن سنقول: تعال لنتصالح! هكذا؟ ألا يوجد عقل عند قرة بيرم؟ أغبى الرجال لا يقترب من مصالحة كهذه! الآن سيتعطل شغل هذا الرجل، يجب القيام بشغله! يجب دفع ثمن خروفه! يجب ملء الأساسات التي حفرتها أمام بيته! الآن ستعمل كل هذه الأمور!..»

تمتم هاجلي قائلاً: «وأنا أيضاً تبددت جهودي هذه كلها، ونقودي أيضاً يا مختار. ماذا عنها؟»

«تبددت جهودك وأموالك، ولكن حمل زوجتك لم يسقط! ولم يُداهم بيتك! لم تُنتهك حرمتك! الآن سقطت أنت بالذنب أمام القانون».

أمسك هاجلي رأسه بيديه: «أنت تحرقني كثيراً يا مختار!...»

«أنا لا أحرقك يا هاجلي!»

«تحرقني، تحرقني، تحرقني!»

أصدر المختار أمراً للحارس مصطفى: «اذهب، وانظر لنرَ: كيف وضعُ الكنة خدوج؟ انظر، واجلب لنا خبراً طازجاً».

- ٣٦ -

الكنة المصفرّة

بعد أن غسلت هواليجة يديها وذراعيها، قالت: «أنا شغلي إلى هنا يا أختي إراظجة. بعد ذلك، أحول الأمر إلى الله تعالى. لا حكي على جرأة كنتنا! ستنقذ نفسها إن شاء الله..» نهضت: «هيا، بالسلامة! إذا ظهرت صعوبة، خبروني، لآتي بسرعة».

جاءت إراظجة إلى عند رأس الدرج: «لم تبق قطعة وما قطعة في الداخل يا أختي هواليجة ياه؟»

قالت: «هذا يعلمه الله! أظن أنها خرجت كلها! أنا أعمل منذ الصباح، وصرنا في منتصف الليل. على كل حال خرجت كلها. لو يتوقف دمها! ستتلف الكنة إذا لم يتوقف حتى الصباح، الله لا يرينا! اسقها ماء قشر البيض لنرَ. اطعميها نشاء! ما بيدنا هو أن نقول: يا الله! يا أختي!..»

قالت إراظجة: «يا الله! هنا في داخلي يشتعل فرن ضخم! سأصرخ الآن كجمل يُقدم أضحية! سأخنق أحدهم، سأقتل أحدهم. لا أدين القتلة ومرتكبي الجرائم أبداً! ولا نستطيع الذهاب إلى المحكمة في حالنا هذه!»

قالت هواليجة: «الله يجازي الفاعل. لتُنقذ كنتنا، وإذا بقي لنا حال بعد ذلك نخبر المحكمة!»

«ألا يفوت الوقت إذا قلنا نخبرها فيما بعد؟»

«لماذا يفوت؟ لا يفوت بالتأكيد! اذهبي بعد ستة أشهر إلى الحكومة إن أردت، قولي لها: اضطررنا أن نتمدد في بيتنا، فلم نستطع المجيء! تقبل. كل القرويين شهود. رأينا بأعيننا جميعاً. وهل سنترك قول الحقيقة إلى الآخرة؟»

«الله يرضى على جيراننا الطيبين! رأسي تؤلمني يا أختي! تبدو لي الدنيا زنزانة. أريد أن أبكي حتى أشبع! أريد أن أصرخ! انظري إلى حالنا هذه!..»

حين كانت هواليجة نازلة لتذهب، قالت: «اليوم الأسود لا يبقى مسوداً يا إراظجة، لا تخافي أبداً. المصاب بدوار لا يبقى بدواره».

قالت إراظجة في داخلها: «المصاب بدوار لا يبقى بدواره، ولكن الأمور ستفوت، وتذهب. إذا لم أمسك هاجلي وأسحق رأسه!... وإذا لم أخرى واحدة كبيرة في فم المختار، فماذا يفيدني التخلص من دواري؟ ولكن، انتظري لنرَ، قالوا: الآه لا تبقى دون ردّ!..»

خدوج تتمدد على طولها فوق الفراش. اصفرت، واستطال وجهها. ومنذ الصباح تنتابها موجة سعال خفيفة. مع سعالها تنخلع بعض الأماكن في داخلها. ويقوى تدفق الدم الذي يسيل. في فمها طعم مرارة حقد. فكها وأسنانها تؤلمها من الضغط عليها. لشدة الألم لا تشعر بفمها وهي تتثاءب.

انكمش بيرم على نفسه بجانب الموقد. اضطجع على جنبه، ومد قدميه نحو الموقد. وضع تحت رأسه مخدة مزهرة. وسحب فوقه سجادة بنية وخضراء. يفكر. أفكاره العشر والثلاثون تملأ رأسه فوراً.

يقول بيرم لنفسه: «في القرية...» ويريد أن يبكي أكثر من إراظجة. أشياء تتكور في داخله كالعجين المرقوق، وتتدحرج، وتخرج إلى حلقه. يتابع: «في القرية، لا يوجد من يمددك إذا متّ! أمر يشبه عمل قطاع الطرق! سحبني إلى بيته بشكل رسمي، ومددونا وضربونا! والآن يرسل الحارس ليسأل عن حالنا! وعن وضع الكنة؟ اشتعلت أطراف ثوب السافل ابن السافل! يعرفون ما يقع على رؤوسهم! لأضع كل ما أملك، وأسقط وراء هؤلاء السفلة! لأدفع خمس عشرة، عشرين، ولأقد العربة! ولأصل إلى باب الحكومة، ولأرم نفسي على الأرض، ولأقل: انظروا إلى حال قرة بيرم!.. ولأصرخ. الملحدون أبناء الملحدين! ليفهموا كيف يُضرب الرجل! ولآخذ خدوجاً: إيه يا أطباء، اعطوا خدوجي دواء كيلا تموت! هاجمنا هاجلي المجنون! هاجمنا المختار. جعلوا حالنا بالويل! عاقبوهم مهما كانت عقوبتهم! إذا كانت عند الحكومة عدالة أرونا إياها! يجب ألا تبقى آه الفقير دون ردّ! لنعرف أن الحكومة أب لنا! يا أطباء!.. اعطونا دواء!.. ولخدوجي...! يجب ألا تموت!... اعطوها دواء لتشفى جروحها... ولئلا يتدفق دمها!.. إيه!.. يا أطباااااء!..»

أنّت خدوج قائلة: «أنا أحترق!..»

خدوج تئن دون توقف. صوتها كصوت غزالة جريحة. مؤلم إلى هذا الحدّ. تقول: «كل طرف من أطرافي يشتعل محترقاً». تتعرق. شعرها ورأسها يتصبب. أشكال عوارض السقف المتعرجة تقفز إلى الأمام كخيول سوداء في الريح، تصدر حدواتها أصواتاً غير مفهومة، وتبتعد. بعد ذلك، تلتفت فجأة، وتقترب!.. تكون جيدة عندما تبتعد. تلفها من جهاتها كلها راحة وبرودة. يبدأ العرق الخانق عندما تعود الخيول، وتسير

نحوها. تأتي فوقها بقوائم ذهبية كالعميان! قطاع الطرق يحثون الرِكاب دون كلل أو ملل. الخيول تغدو مسعورة. في بعضها قطط ذات مخالب حديدية تتعارك. كأنه شهر آذار.. القطط تتخانق. الوسط يعج بالغبار والدخان. حلقها ينسد. تكح، ومع كحها تغدو القطط مسعورة. ومع سعر القطط، يقوى تدفق دمها. وجهها يتطاول، وبشرتها تصفرّ. خدوج تذوب.

- ٢٧ -

العين تنظر

سأل المختار: «يعني سيئة ها؟»

قال مصطفى: «سيئة!»

«سيئة جداً ولاه؟»

«سيئة جداً، سيئة جدااااً...»

«ألا تتحسس إذا انتظرنا يوماً آخر؟»

قال الحارس: «هذا يعلمه الله. ما رأيتُه أنا هو أن وجهها كهذا الحائط! وهي شاحبة أكثر من هذا الحائط! وتطاول. لم تبق مجرد حركة من خدوج التي نعرفها! كانت الكنة خدوج كغزالة.. قال لنفسه: «كانت ذات وركين كبيرين.. جميلة.. نظيفة.. يجب أن تكون المرأة ذات ورك، والولد ذا مخالب.. كالشباب.. سيكون الولد أحمد ذا مخالب.. سيبطح سلالة هاجلي المجنون!.. الكنة خدوج ولدت ولداً كهذا!.. الكنة خدوج بطلة. جميلة. نظيفة!.. لتكسر الأيدي التي ضربتها من أرساغها..» للمختار: «الآن ذابت، وسالت. زالت. كأنها زالت! غارت عيناها!.. تتمدد على طولها بشكل مخيف!..»

قال المختار: «يا ضبعي هاجلي المجنون! أنت شربت شربة!»

لا يوجد غير هاجلي والمختار في الغرفة. نهض حسين المجنون والأعضاء، وذهبوا. لم يذهب هاجلي إلى بيته حتى الصباح.

جاء أخوته مرتين إلى باب المختار. علموا بحاله، وذهبوا عائدين غاضبين. يغضبون بداية: «لابد أن الحيوان ابن الحيوان قرة بيرم اعتدى على هاجلي». ولكنهم اضطربوا عندما علموا حقائق أخرى عند باب المختار. وبدؤوا يفكرون بعمق قائلين: «احترق أخونا المجنون! لو أن الله ساعده، ولم تمت خدوج! إذا ماتت سيعاقب أخونا الكبير هاجلي!..» وينسحبون من وسط القرية دون نبس، ويغلقون على أنفسهم بيوتهم.

وهاجلي أيضاً لا يعرف ما سيفعله بجانب المختار. مضطرب. ويزداد اضطرابه كلما سمع كلمة جديدة. الأفواه التي ينظر إليها على أمل صغير بسماع كلمة تبرد قلبه، لا تقولها. يغيّر جلوسه على ركبته دون توقف.

فاطمة لا تلوي على شيء وحدها في بيت الحي السفلي. تشد شعرها، وغطاء رأسها. قال في داخله: «كلب مجنون! ضرب امرأة الناس البريئة!.. مخه بارد!.. ما ذنبها لتضربها على ظهرها بذلك الحجر الضخم؟ جرد المجنون يغدو مجنوناً أصلاً! يغدو حليبه فاسداً! كانوا يقولون هذا، ولم أصدق. وقعت في مأوى المجانين! يا إلهي، أرجوك أن تنقذ خدوجاً! انقذ خدوجاً ثم انقذني! أنا راضية بالجرجرة أمام باب قرة بيرم! أنا راضية أن أكون خادمة خدوج. لأكن خادمتها ولتستخدمني وهي تضربني لتستخدمني خدوج نهاراً وقرة بيرم ليلاً أنا راضية بكل شيء! لأخلص فقط من فاسد الحليب المجنون هذا!..»

تنهد المختار عميقاً: «مصطفى!..»

ركض الحارس، وأتى: «تفضل يا آغاي!..»

«يا مصطفى! فك حصاني بسرعة! أسرجه فوراً! واقفز عليه، وقده إلى (أورطاكوي) فوراً! سلم لي على شاكر أفندي المرض! وليأت حتى لو كانت يداه بالحناء! وليملأ حقيبة الدواء! اشرح له الأوضاع جيداً! قل له: إن الولد سقط! قل له: إن الدم لا ينقطع. قل له إنها ضربت بالحجر على ظهرها. ليجلب من كل ما عنده من الأدوية والحقن! اشرح له أن هذا الوضع ليس كتلك الأوضاع التي يعرفها! ليأت كالعاصفة! هيا، لا تتماهل! هيا يا سبعي، ستأخذ مقابل جهدك من هاجلي أيضاً! هيا!.. إلى الأمام سرّ!.»

لملم مصطفى نفسه. قال في داخله: «لتمهد الجبال، ولتمهد تلال أورطاكوي!..» للمختار: «أمرك يا مختار! ماذا يعني جهدي؟ لا يُمنع الجهد في زمن كهذا! أنا أريد أن تنقذ الكنة خدوج! جهدي فداؤها. جهدي حلال على جار طيب!..»

قال المختار ساخراً: «أحسنت! هيا، لا تقف!..»

خرج مصطفى. بحر مظلم. بحر لا تُعرف فيه الجهات والوجهات! العين لا ترى أمامها أيضاً. ظلام. القمر يبقى في الظلام منذ عدة أيام. فتح باب الاسطبل، وقدح قداحته المهترئة. وجد المصباح في الضوء الخافت، وأشعله. أضيء الاسطبل بشكل غير واضح تماماً. اضطجعت الحيوانات، وهي تمضغ ما في أفواهها. حصان المختار على قوائمه، وحماره على قوائمه أيضاً. تظهر بعض النجوم القليلة المتناثرة من فتحة المزبلة التي تدخل منها برودة خفيفة. نجوم مبقعة يائسة.. باب مخزن التبن مغلق. يدخل إلى مخزن التبن من الاسطبل. فتح الباب دون سبب

قبل الوصول إلى جانب الحصان. مازال نصفه مليئاً بالتبن! سيخرج الجديد بعد شهرين. تناول المصباح، وأمسكه جيداً. في زاوية توجد كومة عشب جاف: من النجيل والحليان والدردار وغيرها!.. جُففت وكُومت.. «ستشعلها، وتخرج، وتحترق متأججة!.. سيحترق بيت السافل، ويذهب بمن فيه! آه من مصادر الدخل!.. لتغلق أبواب مصادر الدخل!.. ستحرقها ولتغلق!.. ولا تفتح غيرها في هذا العالم السافل! ليغر الحرمان، ليغر الفقر! وعبودية الإنسان للإنسان! أنا وضعي هو عبودية إنسان لإنسان بالضبط!..» فكَّ الحصان، قال: «تحرك يا مصطفى!» أسرج الحيوان، ولجمه. شدّ حزام بطنه. ركّز حزام الخلف. أخرجه إلى الخارج. قال: «تحرك!..» أطفأ المصباح. وأغلق الباب. القرية نائمة. يتهيأ لمصطفى أنها تئن. كانت النجوم بعيدة. يشعر مصطفى ببرد خفيف. القمر يتخبط. قاد الحصان فور قفزه عليه. قال: «لتُمهد الجبال!.. الله يجعل حصان شاكر المرض جيداً هكذا!.. لتمهد.. الجبال.. جبال أورطاكوي!..»

* * *

قال المختار لهاجلي: «هيا اذهب! هيا اذهب، ونم!.. إذا جرى شيء لامرأة قرة بيرم، سآخذ امرأتك، وأسلمها لقرة بيرم! وأنت إلى الحبس مباشرة! مهما يكن فإن قرة بيرم أذكى منك! ازداد الأمر كثيراً على الفقير! أنا نادم على كل هذه الصعوبات التي عملناها له..»

لملم هاجلي نفسه ببطء، وقال: «هل كنت أفعل هذا لو عرفتُ أن هذا سيحدث؟»

قال المختار في داخله: «دب ابن الدب! انظر إلى وقفة هذا! إذا

جلستُ حتى الصباح سيجلس دون خجل! مغفل متباهٍ ابن مغفل متباه! بسببك أغضبنا قائمقام قدّ الدنيا! ألا أعرف أنا؟ كل الرذائل التي تجري في القرية وصلت إلى الرجل! العالم اليوم يستشعر الحيل من الريح التي تهب! لعل لديه لاسلكياً؟ فقد عبس في وجهنا لأنه يسمع كل ما يجري! جعلناه أرذل من الكلاب والجراء وسط القرية!..»

* * *

جاء شاكر أفندي إلى قرة طاش مع شروق الشمس. نزل في بيت المختار فوراً. اصطحبه الحارس مصطفى، وجلبه.

ترك المختار السلام والترحيب، وسأله: «هل ستأخذ إفطاراً خفيفاً، أم أنك ستذهب فوراً لترى المريضة؟»

شاكر أفندي: «على رأيك يا مختار! كيفما تريد!..»

رجل يضع قبعة، ذو بنطال ضيق من الأسفل، وعريض من الأعلى. إنه في حدود الثلاثين من عمره. يلبس حذاء صيفياً ذا وجه قماشي. له شارب أصفر خفيف. يشبه المهاجرين القادمين من منطقة (روملي). عيناه خضراوان. لا تفارقه حالة يبدو فيها كأنه يضحك.

قال المختار: «ادخل يا أخي إذن! كل شيء بسرعة! ولأرسل لهم خبراً ليلملموا أنفسهم حتى نصل!..»

نادى الحارس.

ليس لدى مصطفى حيل يمكّنه من الوقوف. يتأرجح. النوم يسيل من عينيه. كل طرف من أطرافه يتفكك من التعب. يتناثر على الأرض من التعب، يقول لنفسه: «نوم.. قليل من النوم!..»

رغم هذا، قال: «أمرك يا آغاي؟..»

«اذهب، واخبر قرة بيرم! نحن قادمون مع شاكر أفندي بعد قليل. قل لهم إنني جلبت طبيباً من أورطاكوي في منتصف الليل من أجلهم فقط! عليهم أن يتركوا الفأفأة. كل هذا الجود لا يفعله لهم حتى أبوهم لو خرج من قبره. رأيت أنني قدمت حصاني في منتصف الليل. أية رؤية؟ ركبته، وذهبت! ويسلم لنا شاكر أفندي، لم يكسر بخاطرنا، فجاء..»

مشى مصطفى وهو يشتم الدين والإيمان والأم والزوجة بشكل مباشر. يُفكر بفراش جيد. لو نام ساعتين على الأقل، سيذهب تعبه كله. يقول: «ليس كثيراً، ساعتا نوم فقط.. فراش...»

يقول في داخله: «الله الجميل يستكثر عليّ نوم ساعتين! ألن أرى وجه ساعتي راحة يا إلهي صاحب القدمين العظيمتين؟..»

وصل إلى بيت إراظجة. قال ما يجب أن يقال. استمع، ولم يستمع لشتائم إراظجة المسمومة، وعاد من حيث أتى.

كان المختار ينتظر.

قال مصطفى: «قلت لهم كل ما قلته لي!»

«ماذا قالوا؟»

«لم يقولوا شيئاً».

لم يجد أن نقل ما قالته إراظجة صحيح.

بعد قليل، أخذ المختار شاكر أفندي، وذهب.

البيت الذي لم يدخل بابه منذ زمن طويل متهالك كما كان في السابق. كل طرف على ما هو عليه. وتمدد الكنة خدوج منذ الشجار جعل البيت مهلهلاً أكثر مما كان. الأغراض، والمواعين، وأدوات الزراعة،

والسلال، والألبسة، وخرج وكيس، والغربال، والمنخل، والجرن التي يجب أن توزع على غرفتين أو ثلاث، موضوعة في غرفة واحدة مما يجعل الالتفات أو التحرك في الغرفة مستحيلاً. إنها تضيّق المكان كثيراً...

خرجت إراظجة، وأسكتت طومان قبل دخولها من باب الحوش.

قالت: «ادخلوا، تفضلوا!...» ولنفسها: «ادخلوا يا ملك ملوك الوقحين، ومشروخَ العرض حسنو! تفضل لنرَ!..»

المختار قدم شاكر أفندي أمامه. بدأا يصعدان.

بيرم في الداخل يحرك سطح الرمل.

خدوج مستلقية. منهكة. دمها سال طوال اليوم والليل دون توقف. متعبة جداً.

استيقظ الولد أحمد، وجلس بجانب أبيه.

الولدان الآخران ينامان عشوائياً مفتوحي الياقتين، ومرفوعي الأكمام.

حين دخل شاكر أفندي ألقى «سلاماً». بعد ذلك، قال لبيرم: «الحمد لله على السلامة!»

تعلّق عقل المختار بهذا «السلام» مرة أخرى. لا يستطيع نسيان لقاء النحس أمس بأي شكل. كلما تذكر يتصبب عرقاً. يقول في داخله: «يجب منع هذا السلام! وليكن موجده من يكن!»

لملم نفسه بيرم. نهض بصعوبة. أفسح مكاناً للمختار وشاكر أفندي. مازال العالم يدور بجنون حول رأسه. لا تهدأ آلام «الوضوء الطويل» الذي دبره له المختار بأي شكل. لا تهدأ آلامه بأي شكل...

نظرت إراظجة إلى المختار نظرة مسمومة، وقالت: لست صاحب

وجه يُنظر إليه يا حسنو المغفل. رغم هذا، نهض ابني، وأفسح لك مكاناً! أنت لا تفهم هذه الأمور! كيف ستفهم؟ أنا مشحونة حتى هنا. غضبي لن يهدأ مهما قلت! ليس صواباً إيلام الرؤوس أمام الضيف! لست ذلك الرجل الذي يُدخل إلى البيوت! قمت، وبدلتنا بهاجلي المجنون! وعاديتنا إلى هذا الحد. ولكن، انتظر لنرَ!.. لم تبق آه دون ردّ في أي وقت. ونحن نعرف ما سنفعله. سنفعل، وسترى!..»

قال المختار: «رغم هذا افعلوا ما ستفعلونه. ولكن، لا تعملوا مشاحنة الآن! لم نأت للاستماع للمشاحنات! لو كنا تواقين للمشاحنات لأرسلنا الحارس، وطلبناكم إلى الغرفة! أرسلت خبراً إلى ى ى أورطاكوي، وجلبت أخي شاكر أفندي ليرى هذه المسلمة المطروحة!.. وليعمل لها حقنة ما حقنة وما يلزم!... سمعت أن حالها سيئة. قلت يجب ألا تعاني مدة طويلة. ركَّبت الحارس على الحصان، وأرسلته إلى أورطاكوي. وجاء أخي شاكر أفندي كالطير لله الشكرْ!.. هدفي عمل جودة معكم!.. قبلتم هذا أم لم تقبلوه!.. ستفهمون في يوم ما من الصديق ومن العدو!.. افعل خيراً، وارم في البحر، إذا لم يدرك السمك، يدرك الخالق! إذا لم تفهموني أنتم يفهمني الله! أنا لا أقلق بشأنه! إذا كانت هذه الدنيا موجودة هنا، فهناك آخرة!.. وما فعلته من خير يلزم هناك أيضاً!.. الآن، اقطعوا الضجة لنرَ!.. ولتتحسن مريضتكم. بعد ذلك، افعلوا ما بدا لكم!.. ارفعوا دعوى، واذهبوا إلى المحكمة!..»

قالت إراظجة في داخلها: «فاسد الحليب، فاسد الحليب!..»

بعد أن عدّ شاكر أفندي نبضات خدوج، وانتهى، أخذ حرارتها تحت الإبط، ونظر إليها. سأل عن «وضع الدم». أخرج أدواته من حقيبته. وطلب إشعال النار في الموقد من أجل غلي المحقن.

هزّ شاكر أفندي كتفه، وقال: «جيدة!» كم واحدة هكذا رأى؟ إذا لم يكن هناك «لعب من تحت» أو «شرب شيء من فوق» ستنقذ تلك المريضة بسهولة. ما ذنب خدوج ليضربوا هذه الفقيرة على ظهرها بحجر؟

قال: «يجب أن تستمر عدة أيام على الحقن. تحتاج إلى رعاية مركزة..»

قال المختار: «هذه علينا! لا تبخل بما يمكنك فعله أبوس عينك! أنا سأجعلك مسروراً..»

تناول شاكر أفندي المحقن الذي يغلي على النار: «إذا لزم دواء جديد، عليك أن ترسل رجلاً إلى المدينة!»

قال المختار: «هكذا إذن؟ أضروري جداً الدواء الجديد؟»

«حالياً لا، ولكن يمكن أن يلزم! حينئذ سيذهب حصانك الأحمر مرة أخرى!..»

«فداؤها! أنت احقنها بما عندك، وإذا تدبرت الأمور بما عندك سأكون مسروراً!..»

إراظجة تنظر مندهشة. لا تفوت عن نظرها أية حركة من حركات المختار، وأي تعبير يبدو على وجهه. تدقق بما يجري قرفةً.

المختار: «لا تقلقي يا إراظجة لأنها تحقن! سآخذ ثمن كل هذا من هاجلي، من السافل، وهو يصرخ ألماً! على الأقل ليعلم ما معنى الهجوم على بيت الناس في وضح النهار، وضرب امرأة!..»

قالت إراظجة لنفسها: «يتحالى» وللمختار: «حسنٌ، وماذا عن ولدنا الذي أسقط يا مختار؟..»

قال المختار: «أرجوك يا إراظجة! انظروا إلى ما تفكر فيه! إذا لم

تحمل كنتكِ قبل مرور ستة أشهر لن أكون رجلاً! يكفي أن يكون جسدها وجسد بيرم سليمين! لا حرب ولا ضرب هنا! الناس لا عمل عندهم! من يريد لا ينتظر، ينجب فوراً! ما أسهل من الإنجاب؟ مفهوم يا إراظجة؟ ليكن ما تريدينه ولداً!..»

مدد بيرم رجليه نحو النار: «ماذا عن قضية الوضوء الطويل الذي لنا؟.. سُحبنا إلى الغرفة، وضُربنا مربطين بأسلوب غدر؟»

قال المختار: «لا تعبث بذلك الأمر كثيراً!» ولنفسه: «وانتبه أيضاً. قال أجدادنا أصحاب العقول الناضجة: لا تُقْلَبُ سفينة من يقف بحاله. لو أنك وقفت بحالك يا ابن آوى السافل!..»

«لا ينتهي الأمر بقول لا تعبث بذلك يا مختار! ضررتنا كثيراً يا مختار! كثيـ......ـراً!..»

«إذا كان الأمر هكذا فاجمعها، وحاسبنا، ولنتصادم من جديد! ولنضرب، ونُضرب! ولندخل ببعضنا بعضاً!.. ولكن لتحقن هذه الكنة بالحقن، ولتتحسن أمورها، بعد ذلك، اجمعها، وحاسبنا يا أخي».

قال بيرم في داخله: «سافل عارٍ. طبعاً سأجمعها، وأحاسبك!.. أنت افعل، وافعل، ولنبتلعها نحن، وهكذا إذن؟»

- ٢٨ -
الناصحون

تقول إراظجة: «دخل قلبي داخل قشرة جوز! سيُجرّف الاسطبل، وتُكنس الباحة، وستُرعى الحيوانات، وتطوّف مياه السيل، ويؤخذ العجل إلى قطيعه، والغنم إلى قطيعها. انتهى عمل حقل الخضار، ولكن الآخر ينتظر. كل هذا الانتظار للأرض الأخرى، ولم تمسسها يد. قرة بيرم ينام دون حيل. ولا خير من خدوج. وهل تستطيع هي الذهاب إلى الحراثة والتحطيب؟ ومن سيرعى المنطرحين إذا ذهبت؟ من يضب الأولاد؟ من يحمي البيت وقدام البيت من الهجمات؟ لا صديق ولا دعم! لا ظهر ولا حضن! لتعمَ عيون الفقر! كيف تذهب خدوج إلى (يشيل أوفا) إذا بقي بيرم طريحاً؟ كيف ستملي استدعاء، وتدعي؟ ثم أين النقود في زنارنا؟» تضع على المليء فلا يمتلئ، تضع على الفارغ فلا يمتلئ.

حدثت جلبة في الخارج. نبح طومان.

صعد كريم أوغلو قادماً وهو يصرخ: «أوف، أووووف! ظهري يا أمي، ظهري يا أبي!..» وهو يكح أيضاً. أمسك سبحته، ولوح بها، وألقى يده الأخرى، وراء ظهره، ومشى وهو محدودباً.. «احم، احم، يا أخت إراظجة! احم، احم، يا بيرم! هل أنتم في البيت؟ هل أنتم سليمون؟»

نبح طومان مرة أو اثنتين، وصمت. عرف القادم.

مرّ المساء ذاهباً، وتحولت الجبال إلى السواد الداكن، وبقي القمر لليل. لا يرى حتى جبل ضوملو الضخم، فكيف يُرى إنسان صغير في الليل؟ ضوء مقهى نوري لا ينير إلا قدامه. شاحب أصفر. ولا يظهر ضوء الشيخ بيت الله في الجامع أيضاً.

تركت إراظجة الجلي مكانه، وخرجت إلى الباب: «كريم أوغلو، هل أنت؟ ادخل لنرَ! نحن سليمون، فهل أنت سليم؟» وفتحت الباب أكثر، وأفسحت له ليدخل. وضربته ضربة خفيفة بقبضتها على كتفه: «كنت تسأل عنا؟ ادخل، أهلاً بك!..»

وقف كريم أوغلو عند عتبة الباب بالضبط، ورفع يده ذات السبعة، ودفع يد إراظجة، وقال: «نحن أيضاً سليمون، ولتغر سلامة كهذه إذا لم تفد بشيء! لا تضربيني بقبضتك على كتفي وكأنني أدخل عريساً، اضربيني على رأسي لعل قليلاً من العقل يأتيه، وتفيد السلامة بشغل!..»

دفعت إراظجة قبضتها، وأنزلتها على رأسها.

دفعت إراظجة كريم أوغلو إلى الداخل: «ادخل، تفضل، أهلاً بك أيضاً! بيرم طريح، خدوج طريحة، ولم يبق لنا جانب عمران. طرحنا في البيت متمددين! ادخل..»

دخل كريم أوغلو إلى الطرف الأيسر من الموقد، وجلس على فراء خروف. مصباح الكاز نمرة خمسة يضيء المكان في الداخل بشكل ما. بيرم يتمدد في زاوية، وخدوج في زاوية. يقبع أحمد على ركبتيه عند زاوية أمه. شرفة وعثمان يتكئان على الأكياس عند أسفل الجدار. جمعت إراظجة الجلي فوق الصينية، وجرتها نحو الموقد.

«الحمد لله على السلامة يا خدوج، الحمد لله على السلامة يا بيرم! بقيتم وسط بلاء كبير. الحمد لله على سلامتكم جميعاً. القرطاشيون حيوانات، وأنا منهم. كلنا نعرف كيف نتفرج من بعيد! الحمد لله على السلامة مرة أخرى!..»

قال بيرم: «الله يسلمك أيضاً..»

جلست إراظجة متربعة في مكان قرب الباب، وقالت: «إذا لم تتفرجوا فهل ستفتحون جبهة على مشروخ العرض المختار، وهاجلي، وبقية القوادين؟ لا تقلقوا راحتكم! هاجلي لا يبني بيتاً قدام بيتكم، ولا يضرب كنتكم على ظهرها بحجر. المختار لا يستدرج ابنكم إلى الغرفة، ويجعلهم يضربونه! فوق هذا الله يرضى عليكم، فأنتم تتفرجون من بعيد. ماذا نفعل لو أنكم انزويتم في زواياكم، ونمتم على آذانكم؟ غداً يمكنكم أن تكونوا شهوداً أو ما شهود على الأقل..»

«من سيكون شاهداً وما شاهد؟ نحن؟ يا هذه، يا إراظجة! يا هوووه! أين نحن من الشهود؟ أين تلك الجرأة وأين نحن؟ ولاه، إراظجة! نحن صرنا كالخصيان. أنقرة لم تترك بندقية أو مسدساً، جمعتها. ربطت الفقراء، وأطلقت الأغنياء قائلة لهم: كلوهم، وابلعوهم، واسحقوهم، وافعلوا بهم ما تفعلون! وهل نحن رجال يا إراظجة؟!..»

قالت خدوج متأخرة: «الله يرضى عنكم يا عم كريم أوغلوا!.. كيف عمتي زينب؟»

«تسلمي يا خدوجنا الإنسانية! عمتك زينب وأنا، ومحمد، وآسيا، وضرموش، كلنا سليمون، وجيدون! طبعاً إذا كانت هذه تعد سلامة..»

وضع سبحته على ركبته اليمنى، وأخرج علبة تبغه من زناره. تبغه تهريب. يزرعه هو، ويجففه، ويفرمه، ويلفه بالورق الذي يجده، ويدخنه.

«وأنت أيضاً يا أحمد، مبروكة عليك حربك! كل شخص في القرية سمع أنك قتلت أفعيين! حُكي عن هذا كثيراً في حينا السفلي. ولكن هذا صادف في أيام لا خير فيها، تأججت وذهبت. يقولون إن ابن الذئب يغدو ذئباً من الأزل. هذا صحيح! أنت حفيد المرحوم قرة شالي. وبيرم أيضاً شهم! أنت ابن بيرم..»

قال بيرم: «نعم، شهوم ما شاء الله! ضربونا على مؤخرتنا بعضو مزيّت. ومن شهامتنا لم نصدر نبسة».

فتل كريم أوغلو شنبه المبيض: «لا تُدخل هذا الأمر هناك! هذا العصر ليس عصر (كورأوغلو) عليه السلام! الذين يواجهونك أقوى منك. النقود عندهم، والملك لهم. والقوة والعزوة عندهم. وإذا قلت خاتم القرية، فهو عندهم أيضاً. بالتأكيد لن تنبس. رغم هذا، فلا يعد ما فعلتموه قليلاً. أحسنتم! جعلتموهم أرذل من الكلب أمام القائمقام. لم يبصق الرجل في وجهه، ولكنه جعله أسوأ من المبصوق في وجهه. لم ينزل في بيته، ولم يشرب فنجان قهوته أو طاسة ماء. لم يغمس لقمة من طعامه. وهل هذا كالبصاق في وجهه؟ بحسب ما سمعت فإنه نادم كثيراً على ما فعله، وجعل الآخرين يفعلونه. وجلب شاكر أفندي المرض إلى بيتكم أيضاً. وهل هذا قليل؟

ضحك بيرم: «ها ها!»

أنّت خدوج، والتفتت من جانب إلى جانب.

طومان في الخارج نبح مرة أخرى.

غمزت إراظجة أحمد بمعنى: «انظر يا جدتي، من القادم؟»

سأل كريم أوغلو بصوت خفيض: «هل يسيل دمها حتى الآن؟»

قالت إراظجة: «يتدفق يا كريم أوغلو بشكل...»

«أسمع هذا منذ الأزل: الإسقاط أصعب من الولادة. عليها ألا تنهض فوراً. أنت تعرفين أفضل يا إراظجة. أرجوك انتبهي. أرجوك انتبهي. لا ترسلوها إلى العمل وما عمل فوراً..»

«الله يرضى ألف ألف مرة عن أغالي وهواليجة! وشاكر أفندي أيضاً جاء وحقنها. وسيأتي أيضاً. سننتبه! ماذا سنفعل أكثر من هذا؟ ماذا يطلع بيدنا؟ غير إحراق اسطبل ومخزن تبن العاري!..»

«قواد الحي العلوي؟»

«هو والآخر..»

دخل من الباب خليل المهزلة في المقدمة، ووراءه عبد الله المفتوق، وحسن الملاك. نهضت إراظجة. قالت بداية لخليل المهزلة: «تعال لنرَ يا حارس سابق..» وللجميع: «تعالوا جميعكم! أهلاً بكم!»

دخلوا وجلسوا. أسندوا ظهورهم إلى الجدار. هم أيضاً أخرجوا علب تبغهم. قدموا لبعضهم البعض التبغ. بيرم لا يدخن. لا يوجد في البيت تبغ أو سجائر، ولا شاي أو بن في البيت منذ وفاة قرة شالي. والكؤوس والملاعق السكرية.. كُسر بعضها، وضاع بعضها وسط أكوام هذه الأغراض المهلهلة. لا توجد عادة شرب الشاي صباحاً في البيت. لا شيء عادة. الرجال يشربون هذه في مقهى نوري. وتُعدُّ رفاهاً كبيراً بالنسبة إلى النساء والرجال. رغم هذا يوجد إبريق شاي قديم في البيت. بحثت عنه إراظجة، ووجدته. غسلته من الداخل والخارج، وملأته، وجلبته، ووضعته على الموقد. وفي قعر سلة الألبسة وجدت عشبة الشاي ذات الرائحة الذكية والتي يسمونها «عشبة البور» وتنبت على سفوح جبل

ضوملو. وأخرجت كيس السكر المخبأ في قعر سلة الألبسة لأنه لا يستخدم دائماً.

قالت ضاحكة: «لأغلي لكم شاي الفقراء». رأت بعض الوفرة بين أيام الألم القديمة. وفرة صيد، وفرة شاي وبن وسكر، وفرة قماشٍ بطانةٍ، وقماش سميك، وقماش (بورضور) و(بيزين) مزهر!.. كان قرة شالي صياداً وجوالاً، ولكنه يعمل جيداً. كان يذهب حتى إلى (ألان كوي) و(ياظر) لضرب المنجل في الحصاد كان يتقاضى يوميتين في اليوم الواحد. وإراظجة تلف ما يدخل إلى البيت بمشمّع سبع طبقات، وتخبئه.

ينظر بيرم بطرف عينه إلى أمه. تناهى إليه فراغ كبير أمام الضيوف. تبادل النظر مع خدوج قال في داخله: «إذا ذهبت - أي إذا ذهبنا - إلى يشيل أوقا سأشتري بضع ملاعق شاي، وكؤوس، ودلة، ولفة شاي، وقليلاً من السكر. إنها تلزم، انظر! إذا لم أذهب إلى يشيل أوقا، أذهب إلى بوضور، وأشتري من بوضور.. مهما يكن فإن هذه الأمور تلزم البيت».

بعد أن جلس فقراء قرة طاش، ولفوا تبغهم، قالوا واحداً واحداً:

«الحمد لله على السلامة يا خدوج! الحمد لله على السلامة يا بيرم!»

جمعت إراظجة النار، وألقت حطبتين إضافيتين، وتركت إبريق الشاي يغلي. بعد زمن فاحت رائحة العشبة الآسرة. يتابع بيرم وجه أمه دائماً وهو يستمع للقادمين لقول: «الحمد لله على السلامة. وجهها الذي يلفه شعرها الشائب من الطرفين كغيوم بيضاء يبدو عليه أنه شهد أيام وفرة. عاش الأجمل، والأحلى وشعر بها. لا يوجد في داخلها توق وأسف على تلك الأيام. تعرف أن الذي قد مرّ وذهب، والذاهب لن يأتي.

سروالها مسامير، وفقيرة، ولكنها تعيش بكرامة رغم هذا. يمكنهم الوقوف في وجه العدو. لا ينحنون، ولا يستجدون الرحمة. يجعلونه ينحني. وأكثر من هذا، يمكنهم أن يركعوه، ولكن إذا كان لديهم قليل من القوة، والوقت والنقود. لو أنهم يستطيعون استئجار سيارة، وأخرجوا المريض إلى ذلك القائمقام، إلى ذلك الرجل الجميل...

قال عبد الله المفتوق: «ولاه!.. أنا أحد أفقر من في هذه القرية، ولكن عقلي يفهم شيئاً بشكل جيد! إذا وصل رجل إلى رأس عمل مهما كان صغيراً، وتقدم بشكل ما، يخرب فوراً. إذا كان خراء فيما مضى، يغدو خراء الخراء! حسنو أعقل العقلاء صار مختاراً، فصار خراء! وانتقل هاجلي محمد المجنون إلى عضوية اللجنة، وصار خراء الخراء.

خليل المهزلة: «ما يدهشني أنا أيضاً هو أنه إذا كانت بلية ما ستقع على رأس واحد في القرية، تدور، وتدور، وتنزل على رأس فقير! الآن يوجد أمر تمثال. تمثال بلية. في زمن ما، قالت الحكومة إنها ستعطي كل قرية ثوراً. كنت حارساً في ذلك الوقت. ولاه، يا لما عانيته من ذلك الثور! عوفني إلهي، لم أعان منه ما عانيته من بنت (بارنيك) التي للمختار! وخاصة فترة تقطيع الصدارات، وجمع الطرابيش! وخاصة فترة منع التبغ، وتطبيقه بالقوة! وخاصة فترة مضايقة القرويين بالفريضة قائلين إنهم سيبنون بناء «الوحدة»! والآن، يقول نقود التمثال، يحرقون رأس بيرم قائلين: نقود التمثال.

السيجارة التي لفها كريم أوغلو، وضعها في مشرب من عود شجرة. سحب ونفخ: «يُظْهَرَ أن مسألة بيع أرضية البيت هذه لها علاقة بشغلة التمثال، ولكن هل لها علاقة حقيقية؟ يقال إن المختار قد أعطى أرضية البيت لهاجلي من قبل هذا!..»

«مهما يكن يا روحي! بالنتيجة يطلب نقوداً من أجل التمثال! ولا يوجد نقود في الصندوق! يقول سنوزع فريضة على أهل القرية. يقول الجيران: مستحيل، مستحيل! أنا لا أقول هذا لأن حسنو العاري جاري. شغله أيضاً صعب! ثم إنكم رأيتم كيف صار رذيلاً أمام القائمقام والملازم أول ومأمور النفوس عثمان! الرجل كاد يموت من قهره. نهض، وجاء حتى قدمي قرة بيرم، قائلاً: أرجوك يا صديقي لا تدّعي! وجلب لكم المرض.. الخ.»

الكؤوس التي وجدتها إراظجة أنواعاً أنواعاً. إنها كؤوس حجرية مجلوبة على الجمال، ومباعة. صبت شاياً براقاً بلون صفرة البابونج، وملأتها. وضعت لها سكرها، وقالت: «تفضلوا. أبدأ من خليل المهزلة. لا لأنه أكبركم سناً، بل لأنه يدافع عن المختار كثيراً، لكي يدافع عنها قليلاً..»

أخذ خليل المهزلة الشاي، ووضعها أمامه ممتعضاً: «أنا أقول الحقيقة يا إراظجة! إذا صرت قروياً في هذه الدنيا، فشغلك هباء!. ليس فقير القرية فقط يعاني، بل غنيّها أيضاً! ها هو وضع المختار حسنو!..»

«إذا لم يفعل! هنالك ما يدعى عقوبة. لا تفعل يا ذراعي، ستجد المقابل، وتموت أنت تئن! لا تأخذه آه المظلوم. ثم لا تتكلم هكذا عما تعرفه، وما لا تعرفه يا خليل المهزلة. في العالم مختارون جيدون أيضاً..»

قال خليل المهزلة: «مهما يكن!.. كيف ستعلمين ما في داخلي يا إراظجة؟ أنا جئتُ إلى هنا لقول: الحمد لله على السلامة! ولكنكم اشتكيتم للقائمقام، وسندكم القائمقام، فهل فعلتم جيداً؟ هوهوووه!

اليوم القائمقام موجود، ولكنه غير موجود غداً! من يعلم متى سيأتي مرة ثانية؟ في أغلب الأحيان يذهب السيء، ويأتي الأسوأ. عملت حارساً عشر سنوات، ورأيتُ عشرين قائمقاماً، لم أر من يسند الفقير مثل هذا الذي لكم!..»

ينتظر حسن الملاك دوره ليتكلم: «ما شغل القائمقام مع الفقراء؟ الرجل يأتي، وينزل في بيت المختار أو بيت أغنى من في القرية. هؤلاء معتادون على أكل الخراف وشرب العرق. قولوا، من منكم رأى قائمقاماً يتصرف بشكل مختلف؟»

قال خليل المهزلة: «طبعاً يا عزيزي! هذا جاء ولم يأكل طعام مختارنا، ولكنه ذهب إلى (غوغتشة ياقا) وأكل طعام مختارها. أليس هذا قول أجدادنا: من يأكل الخبز الكافر يضرب بسيفه؟ وهؤلاء، لأنهم يأكلون خبز الأغنياء طبعاً، فهم مضطرون لتكون تصرفاتهم إلى جانبهم!»

غسلت إراظجة الكؤوس التي فرغت، وملأتها بالشاي، وأعطت لخدوج وبيرم وأحمد وشرفة. عثمان ينظر! غمزت حفيدها بمعنى «سنشرب أنا وأنت فيما بعد».

«أحترقُ، وأحترقُ لأننا أطعمنا كل هذه التحضيرات للمختار العاري. أنا أحترقُ من أجل هذا. اجتمع مع جماعته، وابتلعوه. كان يقول: نخبئ العرق، يلزم في بلية أخرى تقع للقرية! وبحسب ما سمعت، فقد شربوه كله. لو أن القائمقام وجماعته أكلوا وشربوا، كانوا سيعلمون بأن النقود جُمعت من القرويين..»

قال كريم أوغلو: «سنكون رجالاً، لتسوى هذه الأمور! في كل مرة

Twitter: @ketab_n

نقول: مهما يكن، ونصمت! هذه المرة أيضاً أكلوا وشربوا، وليكن زقوماً! حسن الملاك يحكي الصح، وخليل المهزلة يحكي الصح يا إراظجة، لا تثقي كثيراً بالقائمقام! إذا كان المختار يقول: تصالحوا، فخذوا ثمن الحقن، واذهبوا! ولتأت فاطمة عشرة أيام للحصاد بالمنجل صيفاً! لا تثقوا كثيراً بالقمائمقام، وانهوا هذا الأمر هنا!.. هوهووووه!..»

طار صواب إراظجة: «ولاه كريم أوغلو، ولاه ملعَّب! هل جئت إلى هنا لتعكر تفكيرنا، أم للسؤال عن أحوال جارك؟ هذا الشخص يبني بيتاً قدام بيتي، وضرب كنتي، وهدها، وأسقط ابني الشبيه بالصقر في الفراش، وتقول: تصالحوا! أنا كلبة شاردة! لم أمت بعد! والله لا أصالح!..»

أصدر بيرم صوت: «جق»، وقال: «لا أصالح أبداً!..»

كريم أوغلوا: «نحن لم نأت إلى هنا لنعكر تفكيركم يا إراظجة. نحن نحكي عما حدث وسيحدث. هذا المكان هنا قرية! وسط جبال لا يوجد فيها مصفر النار! العفص قاضٍ، والصنوبر مفتٍ. أولاً أنت فقيرة، ولا سند لك، ولا متكأ. ولا توجد نقود كافية لديك. ولا يوجد عندكم مسدس بثلاث رصاصات. لا تنخدعوا بالقائمقام، وتدخلوا رؤوسكم تحت البلاء، وسيسحب هاجلي من أرضية بيته، ويجعله يملأ أساساته..»

«إذا لم يمرِّغ أنفه جيداً، فسينفد بفعلته...»

«لا، لا، لم يتمرغ أنفه قليلاً...»

«مهما يكن! لا تتدخلوا يا كريم أوغلو! جئتم لقول: الحمد لله على السلامة! جئتم أهلاً، وحللتم سهلاً، الله يرضى عليكم! شربتم شايكم، قوموا مع السلامة! اذهبوا، وصلّوا، سينادي الشيخ بيت الله الآن..»

قال خليل المهزلة: «هذا طرد مباشر».

قالت إراظجة: «لا! لا يُجلس كثيراً في بيت المريض. ولا يُدخّن! أوف، أوف، قوموا!..»

نهض كريم أوغلوا وخليل المهزلة، وضربا على مؤخرتيهما كأنهما جلسا على التراب. نظرت إراظجة إلى وجه حسن الملاك. هو أيضاً نهض.

ذهبوا قائلين في دواخلهم: «والله جُنّت هذه المرأة. عندما وصلوا إلى باب الحوش، شتموا علناً..»

سألت إراظجة: «أنت لماذا لم تنهض يا عبد الله؟»

«أنا بقيت يا إراظجة لأتشاجر معك قليلاً. فعلت عيباً كبيراً! هؤلاء جيران فقراء معك. قائمقام لا يُعرف أصله أو فصله لا يغدو سنداً لقروي. الله هو المعين الوحيد لأمة القرويين، وخلاصها ليس في هذه الدنيا. على القروي أن ينتظر الدنيا الآخرة...»

يحكي عبد الله المفتوق وكأنه قضى عمره إماماً في قرية جبلية. طار صواب إراظجة أكثر من السابق. كانت قد جلست. نهضت، وأمسكته من ذراعه: «انهض أنت أيضاً بسرعة! انهض، واذهب من حيث ذهب الآخرون! لا تعبث أكثر من اللازم ببيتي. قدمك لا تدوس هذا المكان مع هذا الحكي! يقول فقراء! الفقراء يؤيدون الفقراء. أنتم لماذا تنبحون مع أولئك القوادين، الله يهدكم؟..»

خرج عبد الله المفتوق مسحوقاً ومنكمشاً: «انشطت، ماذا سيحدث؟ تعتقد أن القائمقام المجنون سيبقى نهائياً في (يشيل أوقا)! ولاه، يتقاعد، يذهب! قالوا: المحكمة ليست ملك القاضي، أما سمعت هذا يا إراظجة خانم!..»

صرخت إراظجة قائلة: «عباد الله الأرذال، الجبناء!.. ولاه، الإنسان يقف منتصباً قليلاً، يغدو محارباً قليلاً. الإنسان لا يقول: استسلمت! وهو واقف على قدميه. إذا استسلمت كيف يوقف الظلم ولاه؟ مختار، وهاجلي ليسا حضرتي سلطانين حاشا السلاطين! ولا قائدي جندرمة عامين! ليكونا قائدين! أليس للدنيا قانون وعدالة؟..»

تأسف بيرم في داخله قائلاً: «وجدتِ القانون والعدالة! ألا ترين ما يحدث يا أمي؟» ذهب تعبير الاعتزاز الذي على وجه أمه، وجلس مكانه غضب وتباهٍ. هذا ما يراه بيرم. يُنزل عينيه إلى الأرض. لا تتقابل أعينهما أبداً.

ملأت كأس شاي آخر، وأعطته لعثمان. وذهبت إلى الجلي.

لسبب ما، حلَّ في داخل خدوج شعور بالانسحاق، فامتلأت عيناها.

- ٢٩ -
فاطمة القديمة

تمضي الأيام. الأيام تأتي، وتأتي، وتمر..

مدت إراظجة السفرة أمام شاكر أفندي! وضعت طاس حساء. وكسرت ثلاث بيضات في صحن، وجلبتها.

قالت: «لا تؤاخذنا يا سبعي شاكر أفندي! حلّ عليك كثير من ارتباكنا في أربعة أيام. جئت، وذهبت، وحقنت. نشكر الله أن الكنة تحسنت قليلاً بفضلك. لتعم عيون الأعداء! كُلْ هذه مهما كانت...

قال شاكر أفندي: «لو لم تعذبي نفسك يا خالة!»

قالت إراظجة: وهل هذا عذاب؟ هيا كُلْ!..»

انحنى شاكر أفندي على الطعام. يملأ الملعقة الخشبية، ويملؤها، ويأكل. يقسم الرغيف الرقيق إلى أربعة أقسام، ويدسها في فمه، ويأكل نافخاً خدّه.

قالت إراظجة في داخلها: «عنده سرعة بأكل الخبز. إنه رجل شهم...»

تفرجت فترة على تناول شاكر أفندي الطعام. قالت: «لا تؤاخذنا يا سبعي شاكر أفندي. داخل بيتنا ضيّق. ترون حالنا! ونحن هكذا، حلّ بنا بلاء جديد، آه يا سبعي!..»

قال شاكر أفندي: «الدنيا والعالم هكذا الآن يا خالة إراظجة! معشر القرويين كلهم هكذا! لا يتحمل أحدهم الآخر. الغيرة استفحلت. القرى التي تجولت عليها كلها هكذا. لا يوجد فيها نظام، ولا تفاهم. ازداد ضيق العين. انفلت وضع القرى تماماً.

قالت لنفسها: «أبوس فمك! ما أجمل كلامك؟»

«يا لما رأيناه في وادي (إرلا) هذا مع تجوالنا لممارسة هذه المهنة! لا توجد قوة تجبر عديمي الشرف على جعلهم شرفاء! انهارت قوة الأئمة. ولم تكن موجودة أصلاً. الحكومة لا تكشر أنيابها للظالم القوي الذراع. لا تطوله ذراعها. وهكذا يُسحق الفقراء. ولا ينبسون، ولا يستطيعون التعبير عن همومهم لأحد. أنا أعرف مختار قرية قرة طاش. إنه متلون وماكر! وهو لا يخدع القائمقام الذي على الأرض! بل سيخدع غداً الله الذي في السماء! يخدع الشهود، والقاضي. حال القرية بالويل. وبعد الآن ويل دائماً يا خالة إراظجة».

قالت إراظجة في داخلها: «ليست بالويل أبداً، ليست بالويل، ولكن إذا كان لك موقع تثق به قليلاً..»

بعد أن ملأ شاكر أفندي بطنه، طلب «الإذن». ينام وينهض في بيت المختار منذ أربعة أيام. وهناك يأكل ويشرب. ويُؤي حصانه هناك. يأتي ثلاث مرات في اليوم. ينظر إلى خدوج، ويحقنها حقنة، ويذهب. يأتي وكأنه يأتي إلى بيته، وينسل داخلاً من الباب. ويجلس في الزاوية المقابلة للزاوية التي يجلس فيها بيرم. يقول لخدوج: «كيف حالك؟» ويمسك معصمها، ويعدُّ نبضاتها. لا يتكلم كثيراً. لا يدقق كثيراً بمن هو موجود أو غائب. هو قروي المولد والنشأة. يعرف القرية من حاله. عندما

يحكي، يحكي مؤيداً للقروي. يؤيد الفقراء كالناس الذين تغلب عليهم الشهامة. ولا يخفي تأييده. لا يخاف. يقول: «ولو على مشنقتي». ملأ عين إراظجة جيداً. وحبّب بنفسه.

بعد أن خرج شاكر أفندي ذاهباً، جاءت فاطمة من الحي السفلي. صعدت السلم بهدوء. حتى طومان لم ينبح. فكرت قائلة: «كلبهم صديق، وهم أعداء» دخلت خجلة.

كان بيرم قد غيّر ألبسته. إراظجة تجمع الوسخة. بقيت بعض الأوساخ هكذا من يوم المشاجرة. ولم يخلعوا عنهم الثياب الوسخة. فكرت إراظجة: «الكنة طريحة، مهما يكن لأنكب على هذا العمل!» نظرت، وإذ فاطمة تدخل.

قالت لنفسها: «جاءت المرأة مرة أخرى. ألا أعرف أنا؟ جاءت مرسالاً! لابد أن زوجها أرسلها، أو زعيم قطاع الطرق المدعو مختاراً». لم تنبس أو تتحرك.. «ليأتوا، ويذهبوا، ويأتوا.. لنرَ. ليمحوا عتبة باب بيتنا.. إذا حدنا عما نعرفه!...»

لملم نفسه بيرم فور دخول فاطمة، وأدار وجهته نحو الموقد. لا يستطيع النظر إلى وجهها. يشعر بخجل غريب من التقاء نظره بنظرها. يخجل من رؤية خدوج له وهو يتبادل النظر مع فاطمة.

وقفت فاطمة وسط الغرفة. للحظة نظرت من علٍ إلى خدوج وبيرم وإراظجة. نظرت إلى الأولاد. بعد ذلك، جلست عند رأس خدوج.

قالت: «الحمد لله على سلامتك يا أختي خدوج». لا يوجد في صوتها تحايل أو تمايل. ولا يوجد تلاعب أو خداع. الإنسان ابن الإنسان يفهم هذا إذا لم يفقد قلبه في الغضب والثأر.

جاءت إلى حلق بيرم قهقهةٌ مؤلمة ألم الدموع، وتوقفت.

قلب خدوج أيضاً أصدر صوت اكتواء، قالت: «أهلاً بك يا فاطمة!»

وضعت فاطمة يد خدوج في يدها: «كيف صرت يا أختي؟»

شعرت خدوج بالحرارة التي بيد فاطمة الجافة، قالت: «أنا جيدة كما ترين. نعمل ما بوسعنا! حلّ بلاء على رؤوسنا. نحتمل. ماذا فعلت أنت؟»

قالت فاطمة: «ماذا أفعل أنا؟» ولنفسها: «وأنا أيضاً أعاني من بنات آوى الحي السفلي. نهاري وليلي زنزانة. وهي ليست ثلاثة أيام أو خمسة! الله لا يجعل أحداً مثلي. الله لا يوقع واحدة بين يدي رجل لا تحبه!» وعصرت يد خدوج بين يديها جيداً.

ابتسمت خدوج.

رفعت إراظجة الثياب القذرة، وكومتها في زاوية. وهنالك خرق الكنة المتراكمة منذ ثلاثة أيام أو أربعة!

سألت فاطمة: «هل ستغسلين الألبسة يا خالة إراظجة؟»

قالت إراظجة: «لدينا قطعتان أو ثلاث وسخة، وبقيت هكذا يا فاطمة. كنا نغسل يوم المشاجرة، ولكن لا نصيب لنا.. أقول: يجب ألا تبقى. وضعتُ ماء في القدر الصغير، لأغسلها، وأعصرها!..»

قالت فاطمة: «يا خالتي العزيزة. لأساعدك إذا أذنتِ لي. خدوج متعبة. الغسيل يؤثر عليك بهذا العمر. أي، إذا سمحت لي...» لنفسها: «لتعم عيون الذين دسوا بيننا هذه العداوة!..»

التفت بيرم، ونظر بطرف عينه إلى فاطمة. أمسك بعينيه طرفي

كتفي المرأة الجالسة منكمشة. هل فاطمة هذه «فاطمة الوسخة» الآن؟ هل هي فاطمة أمه «الوسخة»؟ قالت لنفسه: «ما الوسخ فيها؟ إنها امرأة كالمسك!..»

قالت إراظجة: «مجيئك إلى هنا خطأ!.. وإذا جلستِ إلى الغسيل فهذا ليس جيداً لك، ولا لنا! أنا أعرف قبلك. أنت مع خدوجي هذه كوني ابنتي في الدنيا الآخرة! ولكن زوجك مجنون. لا يضبط غضبه. إذا ضربك على فجوة بطنك قائلاً: لماذا ذهبت؟ تنهارين، وتذهبين! تصيرين كخدوجي! تنطرحين في البيت. ولن يكون لك من يرعاك أو يتحملك. ستفوح رائحتك، ويجتمع الذباب على رائحتك، وتغدين بائسة... أنا أعرف ما تشعرين به في قلبك. ولكن تغيير القدر السيء الذي يكتبه الله صعب. إذا أردت أن تعملي ضد هؤلاء سيكون عندك نقود كثيرة، وتكون ثروتك كبيرة! كأن تحملّ القدر إجباري مع الفقر يا ابنتي الجميلة!...»

داعبت خدوج يد فاطمة قليلاً أيضاً. ركزت عينيها على عيني فاطمة. كانت عينان خضراوان ممزوجان مع الأزرق، وتتدفقان كالماء. جميلة جداً..

نظر بيرم مرة أخرى بطرف عينه. قال في داخله: «ليس هناك ما يدعى قدر. لو أرادت أمها الكافرة أن تعطي ابنتها لقرة بيرم، وليس لهاجلي المجنون، لأعطتها! هذا ليس قدر، بل غباء قرار أمها! ماذا يمكن لفاطمة أن تعمل؟ البنات في القرية يزوجوهن آباؤهن وأمهاتهن.

شعرت فاطمة بأن بيرم ينظر إليها. التفتت، ونظرت هي أيضاً بهدوء. التقت عيناهما. إراظجة أيضاً نظرت. أمسكت بهما ينظر أحدهما إلى الآخر. بدأ ينفد صبرها.

قالت فاطمة: «كيف صرت أنت يا بيرم؟»

قال بيرم: «أنا؟» وفي داخله: «لابد أن هاجلي أخبر زوجته بأنهم مددوني، وضربوني». لفاطمة: «أنا جيد يا فاطمة! دستُ على فخ بفضل الأصدقاء والأحباب. آلمتني أطرافي، وأعاني من ألمها منذ يومين. كنت قد ذهبتُ إلى بيت المختار، وهاجليك أيضاً كان هناك. ضيفوني شراب الخوخ، ولكن هذا أيضاً ضرني. تحسنتُ قليلاً الآن. لن أسقط ببساطة في فخ كهذا مرة أخرى! ابن الناس ذاك، لم ير رجولة من أبيه أبداً. ما رآه دائماً هو غدر أمه! لهذا!...» توقف فجأة. فهم أن تشبيهه غير مناسب لأمه أمام الامرأتين الأخريين. قال: «مهما يكن! لنغلق هذا الموضوع. أنت كيف حالك؟..»

ركزت فاطمة عينيها على عيني بيرم جيداً، وقالت: «نتدحرج!» ولنفسها: «نموت! نذوب في طريقك يا ذا الشفتين الناريتين! صدق أننا نموت شوقاً إليك».

«هل تخلى رجلك عن بناء بيت وسط القرية؟»

«من يعلم؟ إنه انتقل تقريباً إلى عند المختار! أنا لا أعرف ما يفعله، وما يفكر فيه. لا يحكي!..»

«بحسب ما سمعنا، فإن القائمقام منع بناء البيوت وسط القرية!»

«هكذا يقولون. وأنا أيضاً أسمع من الناس».

«ولكن زوحك رجل شهم يا روحي! هل يستمع لقرار قائمقام؟»

قالت لنفسها: «الله يبعث البلاء لزوجي! ولألف نوع منه أيضاً..»

«وهو بطل ذو بنية أسد! حتى إنه يغلب سيدنا رسم ابن زال في السباق. ومن يكون القائمقام؟... لا تعرفين.. ليبن وسط القرية، ليبن!.. إذا كان للرجل خالٌ مختار فهل يخاف من القائمقام؟..»

قالت فاطمة: «لا تنظر إلى هذا أنت. لا حدوة لحمار الكافر، ويذهب للتحطيب في جبل (حسن)! ثم إنه لا يذهب بحسب رأيه! يذهب بحسب ما يشيرون عليه! لا يفكر بنهايته إن كان سيغرق أو ينهار! أي أنه لا يستطيع التفكير!..»

قال بيرم في داخله: «يا إيماني فاطمة!» تخيّل أنه قبّل فاطمة قبلة كزهرة الخشخاش الحمراء تحت أذنها اليسرى، وعصر فخذيها بيديه. قال لنفسه: «ولاه، ألن آخذك بين يدي مرة أخرى؟ ألا يوجد أخذٌ لكِ مرة بين يدي؟»

قالت خدوج بهدوء: «ابنوا بيتاً في واحدة من هذه الخرابات! توجد واحدة بجانبنا! أفضل من البناء وسط القرية! نغدو جيراناً..»

قالت فاطمة: «نغدو جيراناً ياه!.. إذا أراد!..» وفي داخلها: «وأغدو مع بيرم عندما نريد! مرة في الأسبوع أفضل من لا شيء.. انظري كم أنني امرأة شبعانة العين!. أقول: مرة في الأسبوع!..»

قال بيرم: «اشتروا واحدة من هذه الخرابات، واحفروا الأساس فوراً!» ونظر مرة أخرى إلى أذن فاطمة اليسرى.

فاطمة: «نحفر الأساس، ولكنكم تملؤونه ليلاً؟»

«وأنتم أيضاً تنامون عنده زوج وزوجة!»

«هه.. كيفما كان فقد اعتدنا!..»

قال بيرم: «هكذا!.. اعتدتم!..»

قالت فاطمة: «وأنتم أيضاً اعتدتم على الملء!..»

قال بيرم: «آه لو أنهم يحفرون أساساً قدام بيتنا، ونملؤه مرة أخرى!..»

«أيكون هذا حلواً جداً؟»

«حلو.. لا يستطيع الإنسان أن يتوقف عندما يعتاد. أنتِ دعي عنك قدام بيتنا، إذا ذهبتم إلى مكان آخر، وحفرتم أساساً، سنركض مساء من أجل الملء، والله!..»

«ستملؤون أينما حفرنا؟..»

«بالتأكيد! احفروا في رأس (ابتاقماظ)، سنذهب ونملؤه. تذوقنا مرة!..»

فاطمة: «تذوقتموه مرة!..»

بيرم: «تذوقناه!..»

«ألا يمكن التوقف بعد التذوق؟»

«ينجذب الإنسان تماماً».

«كانه يشبه العمل الحلو...»

«كاللحم الساخن؟»

«كاللحم الساخن!...»

«.............»

«.............»

دهشت خدوج لهذا الحديث الشبيه بالأحجية القائلة: «لو كنتَ ذرة ذات شعر، وكنتُ دجاجة، وجئت لالتقاط الحب، فماذا تقول؟..» سألت: «أين ذهبت أمي يا بيرم؟..»

قال بيرم: «أخذت الألبسة إلى الأسفل».

«لو أستطيع النهوض!..»

«ماذا يمكننا أن نفعل إذا لم تستطيعي النهوض يا روحي؟

لتغسلها أمي كيفما كان! نامي أنت يوماً أو اثنين آخرين. وجدتِ طريقة للراحة، اعرفي قيمتها!..»

نهضت فاطمة، وقالت: «يا أختي خدوج!.. لأذهب، وأنظر!.. نامي أنت، بسلامتك! يقع كل شيء على رأس هذا المدعو إنساناً. يقع، ولكن الله يمنحه الصبر! تسلمي! وهذا أيضاً يمرّ. تركت البيت دون أحد، وجئت..»

قالت خدوج: «اذهبي! بسلامتك!..»

قال بيرم: «اذهبي! بسلامتك!..»

عادت فاطمة من عند الباب، وقالت: «بيرم. لنحفر أساساً فوراً إذا أردتم، في مكان مخبوء، ولنخبركم، وتعالوا املؤوه!..»

قال بيرم ضاحكاً: «ممكن! متى؟»

«قلتُ لك ياه، سنرسل لكم خبراً. ممكن يا بيرم؟»

«ممكـ.........ن!»

خرجت فاطمة ذاهبة.

قال بيرم: «ممكن، ممكن!..» وابتلع ريقه.

قالت خدوج: «قلب فاطمة هذه بريء جداً!..»

قال بيرم: «كيف عرفت؟» و(تاك) سقط فوراً.

«وهل في هذا كيف عرفت؟ هل تمازحك هكذا لولا أنها بريئة؟ بالأمس فقد صار بيننا دم وسكاكين. كأن قدومها إلى بيتنا لا يكفي، قامت تمازحك!..»

ضحك بيرم: «احذري أن تشكّي! المرأة المسكينة تحكي. لا يوجد في قلبها سوء!..»

«أنا أيضاً أقول لا يجود في قلبها سوء! ولكن من يراها هنا، ويسمع كلامها سيظن أنه يوجد شيء..»

قال بيرم: «لا يا روحي! انظري إلى ما خطر ببالك. ألن تحتملي فاطمة لو لم أكن موجوداً؟..»

«أنا؟ مالي أنا؟ فاطمة ليست صديقتي، وليست عدوتي! اجلبها، وأسكنها في بيتك إن أردت! حتى إن هذا أفضل بالنسبة إلي. انظر إلى حالتي هذه! هل بقي عندي جانب يمكن أن يُسمى جزءاً من إنسان؟ كما أنني لن أتمكن من لملمة نفسي بسهولة من أجل تلبية ذوقك! كنت أفكر بأن أطلب من أمك أن تزوجك ثانية!..»

التفت بيرم نحو الموقد، وقالت: «أنا لستُ تاجر نساء! ولا نية لي بالزواج ثانية!..» وفي داخله: «ولكن...»

لحست خدوج شفتيها الجافتين: «لا نية لك بالزواج ثانية، ولكن انظر إلى حالتي هذه، لا خير فيَّ لك!..»

قال بيرم في داخله: «ماذا نفعل إذا لم يبق فيك خير؟ سنتدبر الأمور بفاطمة كيفما كان. وهل من الضروري أن يكون في الأساس؟ ألن يتسع هذا العالم الضخم لشخصين؟ نجد مكاناً، ويطفئ فيه أحدنا نار الآخر؟ نارها وناري... وكثيراً في فترات متقاربة...» وبلع ريقه..

أغمضت خدوج عينيها.

- ٣٠ -
جمعة قديمة

كان يوم جمعة.

تخطر ببال بيرم أغنية مؤلمة وطويلة. أغنية طويلة ومثيرة للمشاعر تصل إلى رأس لسانه، وتطفأ:

أووف، أوووووف!

جمعة اليوم من الأيام، جمعـ...ـة

الفؤاد يذهب إلى الحمام، ويغسل شعره

لا تقل للناس إنني أحببتك

لدي فؤاد كجاموس ظالم أنا، أووووف!..

لم يخرج بيرم منذ أيام. ينكمش عند الموقد، ويغلق على نفسه ككسول يشعر بالبرد دائماً. تراكمت الأعمال في الخارج، وهي ملحاحة. وهكذا تأجلت أشجار السلم، ولم تُمس الأرض المريّحة.. ويشرد قائلاً لنفسه: «جاموس ظالم.. الظالم ضربنا، وجرحنا! حسنٌ إننا أخرجنا شغل حقل الخضار من الطريق. وإلا فهل كنا سنجد وقتاً في هذه الزحمة. كنا سننظر إلى أيدي الناس في زمن الخضار».

إراظجة في الأسفل منكبة على الألبسة. تدلكها دون حول أو قوة.

تقول في داخلها: «أية هموم أرخت نفسها علينا؟! لا أعرف نهايتها. هل اضطربنا، وبقينا هكذا؟ لاااا! القمر مضيء، والطريق واضح، ها هو! الآن يكفي النهوض، وإخبار المخفر! الوصول وإخبار الرقيب! قول: اعمل أوراقنا! يكفي. سيحكمون هاجلي سبع سنوات على الأقل. سبع سنوات ليست قليلة. ستطفأ نار السافل! يغدو حتى تبغُه ولا يُدخّن وليكن غير مدخن. لتنزل حتى أشباح السفلة ذوي القلوب القذرة من القرية! وليكن عبرة للناس! ليكن، أما... ماذا لو كان قد أخذ الرقيب تنبيهاً من المختار خلال هذه الفترة؟ ونظّم أوراقاً للمحكمة على كيفه؟ المخفر باب الحكومة! من هناك يُدخل إلى المحكمة. ماذا يقول الناس لو ذهبنا فوراً إلى المحكمة؟ الشهود كثيرون! إذا خدعوا واحداً، فلا يستطيعون خداع خمسة. وهنالك القائمقام كالصقر!.. لن تبقى آهنا دون جواب إن شاء الله طالما أن ذلك الصقر على رأس الحكومة. كيف نطيح كل هؤلاء الفاسدي الحليب؟ كيف جعلهم يخنسون كلهم؟ والآن، طاق، طاق، طاق، يطرقون بابنا. صاحب الحمار الفضي يغدو شمعة لصاحب الحمار النحاسي! هم فضة، ونحن نحاس! ثم إنهم أي شمع صاروا! يا لشماتتي بهم!..»

يأتي من القرى الجبلية إلى وسط القرية رجال على خيولهم، وحميرهم، وبعضهم مشاة حفاة. يجتمعون فرادى ومثنى في باحة الجامع من أجل صلاة الجمعة. يتوضؤون من الصنبور الذي في زاوية الباحة، ويتحادثون.

جلس الشيخ بيت الله تحت إحدى أشجار المشمش المرّ التي تفتقت أغصانها، ويرجّف لحيته البيضاء متحدثاً حول مواضيع دينية لثلاثةٍ أو أربعةٍ متعلقين به، ويحترمونه، ويقصُّ عليهم، ويفصل بعمق شديد.

قالت إراظجة لنفسها: «لو يذهب بيرم أيضاً إلى هذه الصلاة! لا يخطر بباله أبداً! إنه كأبيه، لا يريد أن يمرّ من أمام الجامع! الناس يدينون الرجل في القرية! شغل إنسان القرية هو السياسة في هذا العالم! الناس يذهبون إلى الصلاة، ولكن لأي هدف يذهبون؟ لا أحد يعرف هذا. بعضهم يذهب قائلاً: الناس يذهبون، لأذهب أنا أيضاً، فلا يريد أن يتخلّف عن القطار. بعضهم يذهب قائلاً: لأذهب، لأنهم يعتبرون الرجل الذي يذهب إلى صلاته ووضوئه رجلاً طيباً! نحن عشنا كل هذا العمر، ورسولنا مات وذهب في الثالثة والستين، ورجلنا أيضاً ذهب إلى هناك، ولكننا نفهم إلى حدّ ما، وليس قليلاً، من يذهب، وفي أي طريق. ابني لا يذهب في طريق الناس، يذهب في طريق الخنزير! طالما أن الناس جميعاً يذهبون إلى الصلاة، اذهب أنت أيضاً يا ابن القحبة! هل سيتقشر جبينك إذا رحت إلى صلاة الجمعة مرة في الأسبوع؟ لو صليت؟...»

يخرج الرجال ويتدفقون ويأتون. ظهيرة أيام الربيع تحرق ببطء. الجو جوّ صيف. أكثر الرجال بقمصانهم. خلعوا ستراتهم القديمة، ورموها.

قالت إراظجة: «يجب أن أذهب، وأوخز هذا الصبي!» تركت غسل الألبسة.

في عقل بيرم تلك الأغنية البعيدة دائماً:

جمعة اليوم من الأيام، جمعة..

في جوّ غائم، وفي الحقل، وبثورين قويين، ونشيطين يمسك المحراث، ويذهب، ويفلت صوته إلى آخره. ينتقل إلى أغنية أخرى يعرفها تماماً. بعد العصر، يترك زوج الحيوانات ويعود. يخلع نعليه الممتلئين بالتراب. يمدّ قدميه إلى خدوج كي تخلع الجورب. في الخرابة المجاورة له، رفع

«مجنون» فاطمة داراً. عندما رأت بيرم قد عاد من الحراثة، وجلس على الشرفة، تجلس فاطمة أيضاً في شرفة البيت الجديد. تتظاهر بجلي المواعين. بعد أن أنهى بيرم غسل قدميه، انتقل إلى الغرفة التي بنوها فوق السقيفة. يجلس مقابل نافذتها. تغدو فاطمة مقابله تماماً بشكل جيد بحيث لو مدَّ نفسه سيمسكها دنيا دنيا مقملة الرأس فاطمة هذه زهرة قلب. تتفتح. إنها أنثى أخاذة، وتغلي. يأخذ حلمتي ثدييها الشبيهتين بحبتي التوت الناضجتين، ويضعهما بين أصابعه ويداعبهما كأنه يعصرهما. يمصهما دون ملل! لا يفهم عيب حب امرأة تحبه في هذه «الدنيا المقملة الرأس»!.. «نحب خدوجاً، فهمنا. فهمت. ولكننا نحب فاطمة أيضاً! قلبنا يحبها. هذا قلب! القلب يذهب حتى جبل (أشلر) الثلجي الرأس لشرب الماء من نبع (تشرتشر). القلب يشبه العجل الفتي. يأتي، ويذهب.. ويهاجر أيضاً! إنها عبارة العم آغالي... كلام العم آغالي لائق. سيُتعب هذا العند رأس آغالي. يقول: تجري من تحت، ولا تستطيع إنجاز عمل!.. يذهب القلب..»

صرخت إراظجة: «بيرم!»

قفز بيرم: «هوووه، يا أمي!»

«كيف حالك يا ابني؟ ماذا تفعل هكذا؟ انهض، وتجوّل قليلاً، ليبرد قلبنا قليلاً نحن أيضاً!.. هل يغلق الرجل على نفسه كل هذا؟»

«أجلس يا أمي، أليس هذا جيداً؟»

«فهمنا أنك تجلس، ولكن، انهض، واخرج قليلاً! توضأ، وادخل إلى الجامع. صل صلاة واحدة كل ألف سنة على الأقل! اجتمع الناس. ثم إنك هكذا تفهم ما يجري في القرية. هذا جيد أمام العدو والصديق يا

أمي. لا تجلس هنا وكأنك مهزوم. لا يرون هذا الذي تفعله لائقاً برجل شهم. ها أنا جلبتُ لك ماء ساخناً من الأسفل. انهض، وتوضأ، ثم اخرج، وتجوّل!..»

قال: «لأنهض يا أمي. حسنٌ، لأنهض!»

ذهبت إراظجة. بدأ يشمر بيرم عن ذراعيه.

نهضت خدوج. أخذت الطست وهي ممسكة رأسها بيدها، ووضعته أمام زوجها. قالت بصوت خفيض: «لأصب الماء لك أنا...»

زاغ بصر خدوج حيث تجلس القرفصاء.

نظر بيرم إلى عين زوجته. فكر أنه مازال «قذراً» وأنه سيذهب «قذراً» إلى صلاة الجمعة. جقجق طويلاً بينه وبين نفسه.

* * *

يمتلئ داخل الجامع.

الجدران كلسية حليبية... زهور خضراء وصفراء وحمراء فوق البنفسجي.. كتابات عربية متلوية كالأفاعي.. لونوه... داخله بسط طبقات طبقات. الجدران على يمين المحراب ويساره مغطى بعبارات طباعة حجرية جلبها أغنياء القرى الجبلية الحجاج من مكة... بعد ذلك، سقف مرتفع. يقرأ الشيخ بيت الله بصوته المبحوح المبكي للإنسان بعض المقاطع من القرآن، ويسمعهم إياها. الصفوف تهتز. ملأتْ داخل الجامع حتى الباب. جميعهم عكسوا مقدمات قبعاتهم إلى الخلف، وجلسوا على الأقدام الضخمة دون جوارب ذات مسامير اللحم تمتد على خط واحد ذاهبة. أقدام، أقدام، أقدام... الاهتزاز في الصفوف الأمامية ينتقل تدريجياً حتى الصفوف الخلفية... أقدام.. يتماوج الزحام كحقول القمح

في الريح. اصطفوا صفوفاً صفوفاً، ويستمعون. صف، صف... اندسوا ببعضهم بعضاً بشكل جميل كالأغنام.. صف، صف.. جلسوا على ركبهم.. أكتافهم مهدلة. عقول غالبيتهم في أمكنة أخرى. يشرد بيرم كلما استمع لصوت الشيخ بيت الله الذي يشبه المناحة، ويذهب إلى موت أبيه: وضعوا منصة الغسل وسط الباحة. غسلوا ذلك الجسد الذي قضى أربع عشرة سنة على هذه الجبهة وتلك، والمحارب في اليمن والبلقان واليونان، ولم ير بعد ذلك يوماً جيداً، ودلكوه. وضؤوا الميت. خالته سلطانجة بدأت مناحة أكثر إيلاماً من أمه: «زوج أختي الصقر شهم، شهم!» بعد ذلك، مات زوج خالته، ولكن أم بيرم لم تبك كسلطانجة مشهشهة وكأن أفعى بيدها.

قال في داخله: «كلما جئت يفعل هذا الشيخ بيت الله! نحن نأتي إلى هنا قليلاً. إذا جئنا كل يوم فيذكرنا بوالدنا الميت كل يوم! يوجد رجال يقيمون الصلاة هنا خمس مرات إذا لم يكن الوقت موسم عمل. والباقون يمرون مرة في الأسبوع. نحن نعرّج مرة كل شهر أو ستة أشهر. وحتى من العيد إلى العيد! هم يذهبون يومياً أو أسبوعياً، ونحن نذهب كل ستة أشهر أو كل عيد.. من العيد إلى العيد!...

الطنبورات تعزف من عيد إلى عيد!...

المختار حسنو وسط الصف الأمامي، وراء الإمام مباشرة! بجانبه شاكر أفندي... حضّر حسنو العاري من أجل القائمقام. جلّب العرق من أورطاكوي. وجعلهم يسرقون خروفنا المبكر. في النهاية، جلس وتزقم كل شيء عديم الشرف! يا الله العظيم، ألا تسمع وترى كل هذا؟ وابتلع معشر قرة طاش كل هذا. وا أسفي عليهم! يجب الذهاب إليه وهو

يصلي، والإمساك برقبة ابن السلالة العاهرة. وعلى وجهه المتباهي...! فلا يستطيع الخروج من الصلاة أيضاً، أووه!.. يجب صفعه، فلا يستطيع تحريك ليس يديه وذراعيه، بل حتى شعرة من شعره قبل أن يسلّم على الملائكة التي على يمينه ويساره! وهو يقف كوقفة الاستعداد في العسكرية. تحركْ قبل أن يقول الرقيب استرح! وانظر! إذا لم يقل: استرح! على مدى عشر سنوات، ستقف هكذا عشر سنوات! الصلاة أيضاً تشبه هذا. من فكر بهذه الصلاة ، فقد فكر جيداً. من هنا أخذوا وقفة الاستعداد في العسكرية! كان الرقيب اسماعيل يشرح هذا دائماً: إذا انتبهتم جيداً، فإن كل شيء في العسكرية يشبه كل شيء في الصلاة! وفي الحقيقة تتشابه... والسافل هاجلي المجنون أيضاً وقف بجانب المختار مباشرة! أخوته في المؤخرة. المختار يتمتم. تمتم لنرَ، تمتم يا كبير بنات آوى! أتعتقد أن عين الله هي عين بيرم، أليس كذلك؟ اهدأ قليلاً لنرَ! أنت أسوأ مني، لا تعرف (تَبّت)، ولا تستطيع مسح مؤخرتك، وفي جامع الله، تمتم!.. يا مشروخ الدين! يا كلب!..» هاجلي يهتز بشكل أسوأ. من يراه يعتقد أنه صوفي منذ أربعين سنة. بيرم يعري فاطمة من جهة، ويعريه من جهة أخرى. ويضعهما تحت «مرّش العسكرية!» يرى منظره هذا مضحكاً! هاجلي المجنون وفاطمة!.. «هيـ.......ـه، يا خالق السماء والأرض!.. أليس عندك عدالة بقدّ عين سنونو يا الله!.. كيف وزعت أجود الحقول، وأجود البساتين، وأجمل النساء، وبأي شكل وزعتها؟ لو أنني أصدرتُ آهاً، لتمزقت الجبال المقابلة، آآآآه!..»

تلك الأغاني البعيدة والضائعة، وتقف في عقله:

كلما قلت: آه.. تسيء إلى صدري.

لف السيئون القلبَ الجيد.

«السيئون، والقلب الجيد.. مختارنا يعيد دائماً مقولة: أصابع اليد الخمسة» إنه يقطع الأصابع الخمسة قطعة قطعة ويرميها. فرمة، فرمة! يسيل الدم الأحمر من أصابعه متدفقاً. القطط تركض. والكلاب تنبح. تقطع الأصابع، وتقطع حتى تغدو كاللحم المفروم. آلات الفرم تتعطل بسبب عظام الأصابع. والطرق لا تشهد حركة. يوقفون القطارات، ويسلبونها. يحرقون المقطورات. يمدد الأولاد الصغار أباهم، ويضربونه. يمددونه على وجهه، ويربطون يديه إلى خلف، ويربطون رجليه. بعد ذلك، يمدون أيديهم إلى تكة سرواله». قال لنفسه: «يلعنون أم المربوط اليدين بالتأكيد. يفعلون كل شيء للمربوط اليدين بالتأكيد. لا يستطيع مربوط اليدين تسلق شجرة الصنوبر. كلما قلنا: آه، نسيء إلى صدرنا، ولكننا متى قلنا عن خدوج: سيئة! وفاطمة امرأة جيدة... امرأة نارية.. حرمة ذات ورك ممتلئ.. والأكثر من هذا، فإن خديها تفاحتان حمراوان. فخذاها جيدان كالأرض المتروكة للراحة.. حلال.. الإجاص الجيد.. يوجد إجاص (كتف العروس)، جيد كاسمه. إجاص كتف العروس، مجرد كلام!..»

أطلق الشيخ بيت الله «صدق الله العظيم» عميقة.

نهضوا من أجل السنّة الشريفة. أربع ركعات. تقاربت الصفوف. ملؤوا الفراغات فيما بينهم. فكروا بمصالحهم المرئية والملموسة، وحاجاتهم الصغيرة أكثر من الله. مع سجودهم، ونهوضهم قلّت آلام رأس بيرم. وتبدد نعاسه. دبت الحيوية قليلاً في الزحام. جلسوا من جديد فور انتهاء السنة الشريفة.

يقف الشيخ بيت الله هذه المرة للخطبة. كان على الدرجة الأولى من

منبر الخطبة عندما كان علي عزت عضو اللجنة يؤذن. فتح يديه، ويقرأ الدعاء بصوت خفيض. استمر بالقراءة رافعاً صوته أحياناً كبائعي زيت النعنع. يصعد ذاهباً إلى مكانه.

بدأ كلامه قائلاً: «يا جماعة المسلمين، ويا أخوتي بالدين. خطبتنا حول التوكل!» كم مرة استمع بيرم إليها! يدور، ويدور، ويخطبها. يقرأ، ويقرأ، ويقرؤها. أم أنه لا يعرف شيئاً؟ أم أنه يوجد أمر خاص من الحكومة بأن يقرأ هذه بالذات؟ «إذا فعل أحد معكم سوءاً، عليكم ألا تحاولوا الردّ بالسوء أبداً. لا تنسوا بأن خالق هذه الأرض والسماء والجبال والصخور، والبحار والمحيطات، النبات والحيوان، وكل ما هو موجود، الله العلي الذي خلقها من لا شيء، يمكنه إن شاء أن يقلب عاليها أسفلها في لحظة، وحتى في جزء صغير من الزمن يقل بكثير عن اللحظة! لا أحد يستطيع التدخل بهذا. فهل يعجز ربنا العظيم الذي تمكنه قوته من القيام بأعمال عظيمة كهذه، من تصحيح بعض المظالم الصغيرة في الدنيا؟ لا أبداً! له غايات دقيقة جداً، ومقاصد ذكية جداً، لا يمكن لعقولنا نحن الفانين أن نتفهمها. علينا أن نكون مؤمنين بكل وعينا بأن أي سوء لن يبقى دون مقابل. كل سوء، وكل ذنب سيلقى عقاباً، إما في هذه الدنيا، وإما في الدنيا الآخرة! ممكن اليوم، وممكن غداً. وممكن أقرب من الغد! لا يعرف. لا توجد ميزة أو عادة أفضل من الصبر بنظر الله. يقول نبينا في أحد أحاديثه الشريفة...»

«جماعة مسلمي» الشيخ بيت الله تتثاءب. جو الداخل يغدو ثقيلاً بالتدريج. كأن بيرم قد رُشَّ عليه غبار الموت. نعاس يثقل تدريجياً، يأتي ويتعلق بجفنيه. «أنا أريد أن آخذ ثأري في هذه الدنيا! واليوم، وهنا! على مرأى من العدو والصديق. مشكلتي أنا مع هؤلاء الناس، مع اليوم، مع

هذا المكان!.. إذا لم أر اليوم العدالة التي سأراها، فليس لها قيمة في نظري! نحن أيضاً نفكر هكذا بعقلنا السيء هذا يا شيخ بيت الله المحترم! أنت في الأعلى وعلى قدميك، ونحن جالسون على الأرض! أنت ضمنتَ الآخرة، وكنت وراء متراس الله، وأنت بارد في ظل الرسول في شهر آب، ونحن يا سيد شيخ أفندي منهكون في الطرق المغبّرة، مكدنين ثورنا الضعيف وبقرتنا النحيلة على العربة، وعلى المحراث!.. نتعرق.. نحترق.. يتقشر جلدنا، ويتساقط. نحن أيضاً هكذا نفكر يا شيخ مسنّ!..»

قال بيرم لنفسه: «الله يريك أياماً سعيدة. ولكننا نريد أن يُحكي عن اليوم. انزل، انزل! انزل إلى الأرض! انزل إلى جانبنا! وتحدث بجانبنا! لا تلق كلامك هكذا من الأعالي!..»

كأن رأس بيرم قد ضُرب بالمهدّة. رأسه يدور!.. شعر بالغثيان.. نهض بهدوء، وخرج من الجامع. توجه إلى البيت فوراً.

سألته أمه: «لماذا خرجت باكراً يا ابني؟»

لم أستطع الاحتمال يا أمي بدأ رأسي بالدوران وبدأت أشعر بالغثيان فخرجت ومشيت أنا أيضاً.

* * *

بعد صلاة الجمعة، قفز شاكر أفندي الممرض على حصانه، وترك بيت المختار. قاده من وسط القرية. كان حصاناً لا يباهى به. يتدلى عن الحصان خرج من سجادة تساقط وبرها، وطار لونها. داخله مليء بالأدوية والأغراض. على الجزء الخلفي من السرج يتدلى كيس علف الحصان. وفي يد شاكر أفندي سوط من ذكر الثور!

فكر لنفسه: «لابد لنا من التعريج على الخالة إراظجة مرة أخرى!»

أدار رأس الحصان: «منذ كم يوم ونحن بعيدون عن بيتنا ومأوانا!..

وعن أولادنا.. ومع الأولاد.. وعن أم الأولاد!.. ولكنك إذا فتحت مستشفى ضخماً في وادي (إرلا) الضخم هذا، فلن تُسدُّ الحاجة! كنا عازمين على الذهاب اليوم، والنوم في فراشنا الدافئ! ظهر أمامنا أمر (دوزمشة)، ليظهر لنرى!»

نبح طومان قرة بيرم. أوقف شاكر أفندي حصانه أمام باب الحوش: «يا خالة إراظجة!..»

كان لا حاجة للصراخ. خرجت إراظجة فوراً. قالت: «أهذا أنت يا سبعي شاكر أفندي؟» وركضتْ إلى السلم.

قال الممرض: «لا تنزلي، احذري أن تنزلي يا خالتي العزيزة. أنا ذاهب إلى دوزمشة. مرض أحمد البابور. سأذهب وأراه. خبروني. بقي لكنتك إبرة. كنا سنحقنها هذا المساء. ولكن عملاً ظهر لي، انظري. سأحاول العودة مساء. إذا لم أستطع العودة، سآتي غداً صباحاً، وأحقنها، وأذهب إلى أورطاكوي!»

قالت إراظجة: «أهكذا يا سبعي شاكر أفندي؟ إذهب إذا كان هكذا، اذهب بالسلامة يا كبشي! إذا عدت مساء، فاشرب الحساء عندنا! صادف هذا في زمن ارتباكنا، لم نستطع أن نعمل لك شيئاً، لا تزعل يا شهمي! حاول أن تأتي مساءً، ألا يمكن يا أمي؟»

«لنرى! إذا استطعتُ المجيء، سأشرب الحساء عندكم! ولكن لا تعذبوا أنفسكم أبداً.. خبز وبصل..»

«هيا يا سبعي، مع السلامة.. حاول أن تعرج علينا باكراً أو متأخراً.. يجب ألا تتأخر حقنة الكنة!..»

قاد حصانه. ونزل الطريق السيء من خلف بيت قرة بيرم والممتد على طول ترعة (دوزمشة). وسط الشتاء تبدأ ترعة دوزمشة بالسيلان

رفيعة جداً. يرتفع ماؤها قليلاً في الربيع، وتجف صيفاً. الأمطار التي تهطل فوق وادي (قرمان) و(إلدان) و(قزل تبة) و(دوزمشة) بعضها توحّد أحياناً، وتغدو سيلاً قوياً عكراً، وتجعل بيوت قرة طاش، واسطبلاتها وسط الماء. يمتلئ الطريق الممتد على طول الترعة بالحجارة. والآن مليء. تنجرف التربة، وتتقشر الحجارة، وتسيل الجبال، وتذهب الحقول. وتفقد التربة طعمها ورائحتها، وتتدفق بركتها. تخرج الحقول من كونها حقولاً. يتعكر الماء، ويسيل معكراً دائماً. لا يتدفق صافياً.

انتقلت الشمس إلى العصر. ظلُّ (هاونا) و(سيفري) ينزل نحو القلعة القديمة. تقل حاكمية الشمس تدريجياً. احمرّ رأس (ضوملو) الضخم في الأعلى.

حث حصانه على السير بشدّ الرسن، ورخيه. قال: «سبعي! الخالة إراظجة تقول: سبعي! دائماً».

اسرع حصانه. ضرب قوائمه على الحجارة والحصي.

الحقول قفر. الحقول منفصلة أحدها عن الآخر بخطوط متعرجة تشبه رسوم عصر المغارات. سطح السهل، قُسِّم إلى مئات - ولعلها آلاف - الحقول. لكل الحقول حدود فاصلة، وخطوط.. كل الحقول مؤسسة على مالك ومالي... يوجد زرع قد نبت... قفز القمح إلى الأعلى كأسنان المشط.. اخترق الشعير الأرض، وخرج.. انبطحت بخضرتها الحادة.. وبعدها أرض تنتظر مرتاحة... في سهول قرة طاش، الحقول صغيرة، والعالم لا متناه.. تمتد بوديانها وتلالها، وبأشجارها القزمة، وأعشابها، وأحجارها.. وجد شاكر أفندي طريقه، وهو ذاهب.. أعشاب (الأرتميسيا) إلى الأمام، على التلال صفراء، شديدة الإصفرار.

-٣١-
القدماء

استرجع الحارس مصطفى القائمة التي في عقله عن ظهر قلب. بعد ذلك، مشى نحو الحي السفلي. يفكر بينه وبين نفسه: «هطل المطر، وانحسرت المياه، وهدأت العاصفة.. كان القائمقام سيأتي أتى! كان يوجد اضطراب وصخب، والمختار لا يهدأ، والآن انتهى كل شيء! خلصنا.. هل خلصنا؟ هراء! لا خلاص لنا! خلاصنا على المغسل! لن يخلص الحارس مصطفى إلا يوم تمديده على المغتسل.. تعب.. وفقر أيضاً!.. الفقر لا يمكّن الرجل من شراء حتى أتان ذات جحش.. آآه، شعير، فأس، حقل!.. بساط أصفره كثير. حقل، حقل، ظل، صفصاف.. بستان حطبة، إشعال، حرير، بقرة، لبن رائب!.. لبن دسم لا ينسكب حتى إذا قلبت وعاءه رأساً على عقب!.. حقل!.. جبن حلو طازج مضغوط على جلد، حقل، بقرة، حقل!. شَبَع.. كن كافراً من ذوي الأديان السماوية على أن تكون فقيراً، وعش في الدنيا الكذابة!.. حقل، حقل، جبن، بقرة، حقل، سند!.. سند!.. مغتسل، تعب، مغتسل.. لا هدوء لنا حتى المغتسل! في ذلك اليوم نتمدد هناك بشكل جيد! نرتاح! سافلو قرة طاش، هل يرى أحدهم التمدد براحة؟.. كان هاجلي أفندي الشهير عضو

اللجنة سيبني بيتاً وسط القرية! بنى، وشبع!.! سبع!.. هاجلي هذا سبع! يقول له المختار: اضرب! هو يفهم هذا: اكسر!.. يكسر.. الذنب ذنب من؟ لا ذنب لأحد غير الفقير! جعلوا أنثى الغراب المنتوفة الريش عروساً، عروساً جديدة جداً، محناة، لم يطلبها أو يأخذها أحد! هذه عروس ولاه!.. لا يأخذون العروس! أساؤوا سمعة العروس! رمت بنفسها على فقير! وماذا يمكن للفقير أن يفعل؟ قال اذهبي! لم تذهب. قال قفي! لم يحصل. هرب، ولم يحصل!.. انظر، انظر، انظر.. حتى الفقير لا يريد العروس، ولكنها بقيت للفقير أيضاً.. تدب الحيوية في قرة بيرم نوعاً ما. والآن أساؤوا لخدوج. لم تمت، ولكنها منهكة جداً. كاد أن يخرب رأسها. خراب الرأس، الفوضى؟ دخيلك...م! خراب رأس الفقير؟ الله يحميه! ما الذي يناسب الغني؟ الغني يعد النقود، يتزوج مرة أخرى: تك، تك، تك!.. المرأة التي تسمع صوت رنين النقود تركض، والبنت تركض! ولكن الفقير يبقى دون بيت، دون سقف، دون زوجة!.. دون ثور، دون عربة، دون حقل، وبالتأكيد دون امرأة!.. آه منك يا دنيا، لتخربي!. دنيا، دنيا، دنيا! لتغدو رماداً! دنيا! وللفقير أيضاً حاجة للمرأة!.. المرأة حاجة! ثم إنه من الضروري تجديدها! امرأة، صفصافة، ظل، مطر، امرأة!..

تفوح رائحة العفن من بيت هاجلي المجنون في الحي السفلي. جدرانه، وأعمدته مائلة عند ضفة مسيل القرية هناك. هناك دخان يخرج مائلاً من المدخنة. «أنفي يلتقط رائحة طبخ البرغل حتى من (تشيل دة دة). البرغل الفقير، والبرغل السبع!» خسف الدجاج الشرفة. هناك طفلان أصفرا الوجهين، يشبهان أرنبين. بيد أحدهما سكين يحفر الأعمدة

التي في الجنوب. توجد عينان كبيرتان في كل رأس يشبه مدقة كبيرة. بياضهما انتشر، وابتعد. في أنف كل منهما حفنة مخاط «يا فاطمة عديمة الإيمان! ولاه، امرأة من دون تربية! انظري إلى هذين الولدين! وامسحي أيديهما ووجهيهما، ونظفيهما! غيّري ما عليهما!..»

قال الحارس مصطفى: «لا تحفروا الأعمدة ولاه! بعد ذلك، سيأتي أبوكما ويحاسبكما!..»

همر الولد الكبير الحامل السكين خليلاً، وقال: «هه!.. إذا ضربتك!» عيناه سوداوان. وجهه يذكر بوجه فاطمة.

«تضرب!.. أنت شهم كأبيك، واضح! أبوك ضرب، وشبع، وأنت أيضاً تضرب! يُخاف منكم.. أبوك المجنون في البيت؟»

«في البيت. ماذا ستفعل؟»

«سأعد قرونكما!»

نظر الولد خليل ساهماً.

نادى مصطفى نحو الداخل: «هاجلي أفندي!..»

خرجت فاطمة إلى الباب فوراً: «تفضل يا مصطفى آغا! هذا أنت؟»

«أنا يا فاطمة! ليخرج هاجلي أفندي قليلاً!»

«آآآ، ادخل إلى الداخل! لا يوجد أحد في البيت، تعال! يجلس وحده عند الموقد!.. يقلب الرماد!..»

«لن أدخل يا فاطمة! لدي عمل كثير أيضاً! ليخرج إلى هنا فقط، وأقول له ما سأقوله، وأذهب!»

خرج هاجلي من نفسه قادماً: «ماذا يوجد ولاه مصطفى الحارس؟..»

قال في داخله: «حارس، مصطفى الحارس!.. على أساس أنك عضو، ولكنك لا تخف، ليس لديك جانب تعلوني به». تتوتر أعصابه من كلمة حارس! يغضب من قولها في وجهه!.. «ولكن لا تغضب يا ابني! الرجل الفقير يغدو حارساً في القرية، وأنت صرت حارساً. الرجل على حق!..»

«قل لنرَ، ماذا يوجد من جديد؟»

«أمر المختار» وقال لنفسه: «لنتكلم نحن أيضاً هكذا، وافتح عينيك!» لهاجلي: «ستملأ الأساس قدام بيت قرة بيرم الآن، فوراً!. إما أنت أو رجل تجده! هذا أمر مختار قرة طاش!..»

قال هاجلي: «يااااه، هكذا إذن؟..»

«نعم، هكذا بالضبط!..»

«هذا يعني أنه نفضنا عن كتفه، ورمانا؟»

«لا أعرف هذا! ستملأ المكان هناك بسرعة فوراً، وستأتي إلى الغرفة! عند المختار كلام هام لك!.» وقال في نفسه: «هل عرفت الآن الحارس، مصطفى الحارس؟..»

«وهل يقع علينا أيضاً إملاء المكان هناك أيضاً؟»

«على كل حال».

«ألا تكفي كل هذه الخسائر التي خسرناها؟»

«هذا لا أعرفه!.. يقول المختار: عليه ألا يقلل عقلاً، ويعاند! عليه أن يسمع كلامي! سيستفيد كثيراً».

«كل ما حصل لنا، حصل لأننا استمعنا لكلامه! حسنٌ، دعنا نرَ! سمعنا! تلقينا الأمر وقبلناه! الأمر أمر! الأمر يقطع الحديد! حسنٌ، سمعنا!..»

«وستأتي مساء إلى الغرفة، لا تنس!...»

«على رأسي يا مصطفى أفندي (!)، لا أنسى، لا تخف!..»

قال في داخله: «سافل!» ولهاجلي: «هيا، استودعك الله، استودعك الله يا هاجلي أفندي!..»

عرج مصطفى على بيت العضو إبراهيم على مبعدة أربعة بيوت. إبراهيم غير موجود في البيت. أخبر زوجته: «ليأتِ آغاي إبراهيم إلى الغرفة مساء! اخبريه عندما يأتي، لا تنسي!»

التفَّ بطريق متعرج حتى وصل إلى بيت المنجل. ابن المنجل الكبير حسن الذي زوجه قبل سنتين أخرج حصانه إلى الخارج، ويدلكه في شمس العصر. كلما دلّك الحصان يرفس كالمجنون. يرفس، ويصهل، إنه يستمتع بالدلك. كان معتنى به، ويأكل علفاً كثيراً...

دفع مصطفى الباب الضخم من مقبضه، ودخل: «أبوك في البيت يا حسن؟»

«في البيت!»

«هل هو في الأعلى؟ من عنده؟»

«في الأعلى. عنده ضيف من (يل قايا). جالسان...»

«ناده ليخرج قليلاً!...»

نادى حسنُ أباه.

خرج المنجل إلى الخارج وهو يحمل بيده كأس الشاي. قال: «لو صعدت إلى الأعلى يا مصطفى. ماذا يوجد؟ هل يوجد شيء؟»

«يقول المختار: ليأت إلى الغرفة مساء مهما كان في الأمر مشقة! يقول: عليه ألا يهمل هذا!.»

«ماذا يوجد من جديد؟»

«والله لا أعرف. ستذهب!..»

«ممكن يا مصطفى! لدينا ضيف، ولكننا نأخذه أيضاً، ونذهب. قل له هذا..»

عرّج على بيت العضو الثالث إسماعيل التيوس، والعضو الرابع علي عزت، وآغالي أحد وجهاء القرية. وقال لهم ما أراده المختار. لفّ، ودار، ثم توجه إلى بيت قرة بيرم. حين وصل إلى أرضية بيت هاجلي، توقف فجأة. قال لنفسه: «حسنٌ، أحسنت يا سافل! اعرف صاحبك هكذا!.. اعرف حتى لا تشعر بالغربة مرة أخرى!»

أخذ هاجلي فاطمة، وجاءا لردم الأساس. التراب الجديد المتحول إلى ما يشبه السميد لكثرة حفره ونقله، يضغط في الحفر. وهو يتنفس بصعوبة في أثناء العمل. فاطمة لا ترفع رأسها، وتنظر فيما حولها لخجلها.

حين كان مصطفى ماراً من هناك، أراد أن يقول لهاجلي: «الله يعطيك العافية!» لجعله مسعوراً، ولكنه تراجع. ضحك، وقال في داخله: «لا تذهب كثيراً وراء المنهار يا حارس! هذه المرة رجحت كفة قرة بيرم في هذا العمل! رجحت، ولكنه كاد يهلك! والمختار طأطأ فجأة! عالم عاهر! عالم ألاعيب ومكائد خربان! المصارعون المهرة يصارعون من الأسفل. حتى المصارعة من أسفل لعبة في هذا العالم! هيه، يا عالم يصارع من تحت لتحت! هيه، ولاه، هيه!..»

«بيراااام، يا بيرم!»

فتح باب الحوش الملفق، ودخل. نبح طومان نحوه. صعد إلى

الأعلى. وقف عند رأس الدرج، والتفت نحو هاجلي، وألقى نظرة أخرى. بعد ذلك، نادى: «بيرم!» بكل ما يملك من قوة صوت.

خرج بيرم إلى الباب، قال: «تعال يا مصطفى آغا إلى الأعلى!»

التفت مصطفى مرة أخرى، ونظر إلى هاجلي: «أنت الذي يجب أن تأتي. تعال، وانظر إلى هذه الحال!»

نظر بيرم إلى وسط القرية، وابتسم.

غمز مصطفى بعينه، وقال: «كيف؟»

بيرم: «ممكنة أمور كهذه!»

«كيف؟.. هكذا لن يدعوا رجلاً يضرب إظفراً في بطن القرية! أرأيت الآن المتظاهر بالأبوة!»

قال بيرم: «اصعد إلى الأعلى!»

«لن آتي! من يوجد؟»

«لا أحد غريب. خالتي سلطانة..»

«كيف صارت الكنة خدوج؟ هل هي جيدة؟»

«قريبة من الجيدة! اليوم قريبة قليلاً من الجيدة! تنهض على قدميها!»

«يقول شاكر أفندي: بقي عندها حقنة. وهو ذهب إلى دوزمشة. ولكنه سيأتي مساء على كل حال. قال إنه سيأتي».

«عرج علينا أيضاً عندما ذهب».

«هكذا إذن؟ يا هذا، يا بيرم! اعط خبراً للخالة إراظجة، لتأتي وترى ما يحدث! لترى، وتفرح!..» لم يتوقف، بدأ ينادي بنفسه: «يا خالة إراظجة!»

خرجت إراظجة أيضاً إلى الشرفة: «ماذا يوجد؟ ماذا يحدث؟»

قال مصطفى: «انظري يا خالة إراظجة!.. انظري أنت أيضاً إلى هذا الوضع إذا كنت تحبين الله ومحمداً!..»

نظرت إراظجة مطولاً، وقالت في داخلها: «على أساس أنهم يراضوننا. أيظنون أننا لا نفهم؟»

سأل مصطفى: «كيف؟»

إراظجة: «جيد جداً(!)»

قال مصطفى: «سيكون جيداً طبعاً».

إراظجة: «لأنادي ابنتنا، لترى أيضاً!»

ذهبت، ونادت. نهضت سلطانجة وأحمد وشرفة وعثمان جميعهم. خدوج أيضاً نهضت. خرجوا. خرجوا، واصطفوا. خرج الجيران من البيوت المقابلة. تبادلوا النظر. كان الجو يشبه احتفالاً صغيراً.

قال مصطفى: «هذا يكفي يا خالة إراظجة! يكفي الرجل سمعة كهذه في الدنيا!.. حتى إنها كثيرة!..»

قالت إراظجة في داخلها: «يفرح الفقير!..»

تحوّل مصطفى إلى الجدِّ فوراً، وقال: «والآن يا بيرم أفندي، سأدلي الآن بكلام جديد للمختار، انتبه!.. بعد أن تأكل خبزك مساء، ستأتي فوراً إلى الغرفة!..»

تدخلت إراظجة فجأة، وقالت: «ماذا سيفعل في الغرفة؟»

«لا أدري! اللجنة كلها تجتمع. غير هذا، فقد دعا المنجل وآغالي. وهاجلي أيضاً سيأتي. لابد أن يكون هناك كلام صلح!..»

قال بيرم: «لا أصالح أبداً!..»

قالت إراظجة: «نحن لا نطأ بيت ذلك الشخص الملعون مرة أخرى!.. اذهب، وقل له هذا بالضبط! قل للكلب اللص هذا بالضبط..»

قال مصطفى: «والله يا خالة إراظجة، أنا هذا ما عندي. أنا عليّ أن أقول لكم هذا الكلام، وقلته. اذهبوا إن أردتم، ولا تذهبوا إن أردتم. ولكنه مختار، إذا دعا، يجب تلبية الدعوة. لا تتعبوني بالمجيء مرة أخرى للاشيء. حرام هذا بحقي، أليس كذلك ياخالة إراظجة؟»

قالت إراظجة: «أنت لا تتعب نفسك أبداً يا سبعي! نحن لا نذهب! لم يبق لنا شغل مع ذلك السافل المدعو مختاراً!.. شغلنا في المحكمة. اذهب، وقل له هذا!...»

قال الحارس مصطفى مرة أخرى: «أنتم تعرفون!» وغادر. وفي داخله: «وأنتم أيضاً تنزلون أحمالكم في أماكن عالية جداً يا أعزائي! لو أردتم رأيي، فهذا يكفي!..»

جاء أخوة هاجلي عدة مرات إلى وسط القرية. وبدؤوا يطلقون كلاماً متمادياً: «لو متنا أفضل من رؤية هذا». ولم يلقوا ولو مجرفتي تراب إلى الأساس المملوء. أنهى هاجلي جرف التراب مع فاطمة. ونثر المتبقي يميناً ويساراً، وقال لزوجته: «هيا!» مسحت فاطمة عرق رقبتها بطرف غطاء رأسها. بعد ذلك، ألقت نظرة إلى طرفيها، وإذ بالناس قد اجتمعوا. ينظرون. وتزقزق العصافير على سقيفات الأسطح.

الطيور تزقزق، والناس يتبادلون النظر.

قالت فاطمة في داخلها بحنق: «جعلتنا في أرذل حال يا حمار!» وأطرقت برأسها نحو الأرض. مشت وراء هاجلي. العالم يُهدم فوق رأسها.

- ٣٢ -
ابن الناس

طرق منجل باب المختار الكبير.

الضيف اليل ياقلي ينفخ الدخان بكثافة.

نظر. لا يوجد من يخرج. دخل. نبح الكلب الأبيض الذي على رقبته طوق، ونهض. أطلق منجل: «وشت، وشت!» وصرخ: «يا مختار، يا مختار!» وفي داخله: «يا سافل!» صرخ: «هل نمت من أول المساء ولاه؟ اخرج إلى الباب!» وفي داخله: «يا حمار!» صرخ: «أنت تجعل كلبك يمزقنا، ويمزق ضيفنا أيضاً».

فُتح باب الغرفة المفروشة من الأعلى.

خرج الحارس مصطفى. صرخ نحو الكلب: «وشت، وشت!»

صمت الكلب.

قال منجل: «ولاه مصطفى، لولاك لمزقنا كلب هذا السافل يا هووه! لا يهمني أن أمزق أنا، ولكن هذا سيكون معيباً أمام ضيفنا. هاه، هكذا، أبعده!..»

صعدا السلم.

أطلق مصطفى: «تفضـ.......ـل!»

قال منجل: «هل يوجد ناس كثيرون في الداخل؟»

قال مصطفى: «لاااا، يوجد شخصان، ثلاثة أشخاص!» وفي داخله: «لم يأت هاجلي أفندي بعد! وبيرم أفندي لم يأت أيضاً».

نهض المختار فور فتح الباب: «تفضل، تفضـ......ـل!» وتقدم من الضيف، وصافحه. واصطحبه، وأجلسه إلى الجانب الأيمن من الموقد. وأشار إلى منجل نحو الجانب الأيسر من الموقد، وقال له: «وأنت أيضاً تفضل إلى هنا يا أخي!»

قال منجل: مستحيل أنت اجلس هناك لأجلس أنا هنا بجانب الضيف، يخشى أن يحدث شيء لولا رجلنا مصطفى هذا. كنت ستترك كلبك يمزقنا، الأفضل أن نعطي بالنا لضيفنا ليبقى أمام أعيننا هكذا.

قال المختار: يجب أن يكون على باب المختار دائماً كلب شرس يا منجل ليس من أجل القادمين الطيبين بل من أجل السيئين والتفت إلى ضيف منجل أليس هكذا يا أخي.

قال الضيف: «بالتأكيد. لابد من كلب لكل باب في القرية لكي يحرس شرف الناس!..»

نهض عدة أعضاء على أقدامهم، وصافحوا الضيف. وجلس المختار مكانه.

استمر الضيف بحديثه: «في المدن، وحتى في البلدات تكون الشوارع مليئة بالشرطة. شرف المدينة تحرسه الشرطة! أي شرف المدني وابن البلدة.. ولكن إذا قالت الحكومة لأضع شرطياً في كل قرية، ستفلس. أما السبب فهو وجود قرى في الجمهورية التركية بعدد النجوم في السماء ما شاء الله. لهذا السبب فالكلاب جيدة جداً. والذي على

باب المختار يجب أن يكون شرساً. فهو مهما يكن رأس قرية كبيرة. حتى إنه يجب أن يكون هنالك اثنان أو ثلاثة، وليس واحداً..»

«إنه يقول الصواب! رأس القرية ورئيسها هو المختار. وهذا ما تعلمونه جميعكم. ونحن في الحقيقة نمثل حضرة رئيس الجمهورية رسمياً في هذا المكان! ولكنني لا أربي أكثر من كلب، لأنني لا أهتم بالمظاهر، والأبهة. مهما كنتُ أمثّل رئيس الجمهورية، فإن قاعدتي هي القرويون. التبذير في القرية غير جيد!..»

قال منجل في داخله: «يكفيك من تربيهم من كلابك! عندك كلاب بقدر يوم القيام لاستدراج الفقراء وغير المسنودين إلى بيتك، وضربهم. ألا نعرف هذا؟»

سرّ المختار من الضيف اليل ياقلي: «أحمد المجنون من قريتكم صديق حبيب جداً لي! وأحب مختاركم أيضاً! كيف تجري أموركم؟ ماذا يفعل صديقنا الحبيب؟»

«أحمد المجنون جيد! طوّر دكانه. ربط القرويين كلهم به من ناحية التسوق. ولكنه يشتكي قليلاً من الدين..»

«يا سيدي، الدين بالنسبة إلى التاجر خراب كبير. ولكن ماذا ستفعل؟ اعتاد أهل القرى! عندما تقول له نعم، لا تجد معه نقوداً. حلّ هذا الأمر هو المبادلة بالشعير والقمح والبيض، أي بكل شيء. ستربح من البضاعة التي تبيعها، وبضعة قروش من القمح والشعير الذي تجمعه. ستمسك الدين حتى الخريف. البضاعة التي تقدر بأربعة مصريات اليوم، تطلب بها خمسة على الخريف. لأن رأسمالك أيضاً يرتبط. وإذا ارتبط رأسمالك أكثر، تغرق. رأس كل عمل هو الرأسمال. هام جداً. الرجل

الكبير الرأسمال تستسلم له القرية كلها. وخاصة إذا صرت تاجراً كبيراً، ستقبل الحكومة يدك!.. هل يوجد مثل الرأسمال؟»

قال الضيف: «أحمد المجنون رجلنا أيضاً هكذا. أي أنه يعرف عمله! وعقله شغّال!..»

«هكذا يجب أن يكون!..»

«في القرية لا يطلقون ببساطة على الرجل الذي لا يشتغل عقله مجنوناً. لابد أن يهاجر أحمدنا المجنون إلى البلدة بعد ثلاث أو خمس سنوات. لم يبق عمل في القرية في الوقت الراهن. صعبت الحياة في القرية. طار النظام، راحت الحيوية. لم يعد العيش سهلاً كما كان في السابق. الناس يتكاثرون. ومازالوا يتكاثرون دون خجل. والحقول شحيحة، والتربة شحيحة، والبركة تنخفض من يوم إلى يوم. كنا في زمن حياة أبي ننقل من حقلنا في (ياظيوردو) أربع عشرة عربة قمح إلى البيدر. أنا الآن لا أستطيع أخذ أكثر من خمس عربات. أحرثها جيداً، وأريحها جيداً، ورغم هذا لا تعطي عربة زيادة. هذا يعني أن خصبها يقل. هذا يعني أن قوة الحقل تنخفض. لهذا السبب من يغنى قليلاً يهرع إلى البلدة فوراً! البلدة تُنقذ يا أخي. تجد مكاناً في طرف أو زاوية، وترتب بيتاً كيفما كان، وتسكن فيه! وتعمل دكاناً صغيراً أيضاً، وتكوي القرويين الرائحين والقادمين. ولا تبيع الحقول التي في القرية، وتعطيها لشريك. وسيسمع كلامك في كل مكان. وسيقبلون يدك دائماً، وليس في فترة الانتخابات فقط... ولن يكون هنالك من يتدخل بشؤونك، ويعاكسك كما في القرية... سترى أن ما قلته هذا، سيحدث. بعد ثلاث سنوات سيكون أحمدنا المجنون قد هاجر إلى البلدة».

قال المختار: «أحمد المجنون يعرف كيف يعمل!»

قال الضيف أيضاً: «يعرف!.. أساساً وضع هذا في عقله منذ الآن! سيذهب! يقول: ليعش الأولاد مرتاحين على الأقل. يقول: هناك لا يتجرجرون كحذاء دون نعل. ويقول: هناك سترى أقدامهم الأحذية! وسيدرسون! يقول: القرية بؤس، متّم أو عشتم! يقول: تدفنون في مقبرة محاطة بجدار من أطرافها الأربعة على الأقل في البلدة».

دخل الحارس مصطفى قادماً من الغرفة الأخرى، حاملاً صينية بيد، ودلّة في اليد الأخرى. وزّع ما في الدلّة على الفناجين وهو واقف. وقدمها للضيف أولاً، ولمنجل بعد ذلك، وللمختار بعده، ثم للأعضاء.

بينما كان المختار يأخذ الفنجان، قال: «لم يأتِ سافلونا أولئك. يخشى أنهم يدللون أنفسهم؟..»

نظر منجل إلى وجه المختار.

قال المختار: «يا سيدي! كبرت الصؤابة فصارت قملة. وكبر الجرو فصار كلباً! تعرفون النزاع بين هاجلينا، وقرة بيرم.. قلت لنفسي، لأصالحهما!.. طلبتهما، ولكن السيدين المحترمين لم يتنازلا بالمجيء، انظروا!..»

قال منجل: «ممكن حدوث أمور كهذه!..»

«الآن سيشتكي كل منهما على الآخر! أحدهما كسر قرميد الآخر!.. والآخر ضرب زوجة الأول، وأسقط ابنها.. وسيصعدان، وينزلان دون توقف. وسيكونان طُعماً لأصحاب النزل وكُتّاب العرائض الذين في البلدة!..»

قال منجل: «مازال الوقت باكراً. سيأتيان الآن. أما حديثنا جيد هكذا فيما بيننا؟..»

قال المختار: «حسنٌ، ولكن...» وضع الفنجان الذي بيده على الصينية، وقال للحارس: «لو تذهب، وتنظر إلى هذين! إذا كانا سيأتيان فليأتيا، إذا كانا لن يأتيا، فأنا لستُ مهووساً كثيراً بحلّ أمرهما.. قلت لكم ياه، الصؤابة صارت قملة، والجرو كلباً..»

نظر منجل إلى المختار، وقال في داخله: «بريق الغدر هذا في عينيك...» وتجلى أمام عينيه جلب إراظجة ابنها المضروب وسط القرية، وتحت ابطها فراء الخروف المبكر: «الخروف، الخرووووف! كبرت الصؤابة وصارت قملة، وكبر الجرو وصار كلباً! سافل!.. نعم ياه، صار كلباً! ولكنكم لا تتركون قرة بيرم يصير رجلاً!» لا يغيب فراء الخروف عن عيني منجل. رآه بعينيه.

المختار يتكلم: «أعطينا هاجلي أرضية بيت من وسط القرية. انتفض جماعتك قائلين: إنه يغلق إطلالتنا!.. كأنه لا يوجد في هذه القرية لجنة أو مختار. وهل نحن هنا رأس حمار؟ انتفضت الأم وابنها!. وملأ الأساس الذي صرف على حفره هاجلي كل هذا الجهد والنقود. وقاموا، وكسروا قرميده. خسائر الرجل بالحرج. وبهذا الغضب، هاجم هاجلي بيت قرة بيرم!.. يوجد ذنب عليه أيضاً!.. طالما توجد حطبة وإشعال، لماذا تمد يدك إلى النار يا دب؟ تعال إليّ، وخبرني، وأنا أقوم بالإجراءات بالطريق القانوني!..»

قال منجل لنفسه: «قمت ياه، بماذا ستقوم يا مشروخ العرض؟..»

«طبعاً، عندما هاجم، كانت عيناه قد نفرتا من محجريهما! وكانت امرأة بيرم تغسل الألبسة! هاجمها بحجر ونصف وهو يلهث. ضربها بواحد أو اثنين! ألا يظهر أن المرأة حامل؟ وهل يوجد عقل في رأس قرة

بيرم؟ إنه ينط على المرأة صباحاً ومساء كالكلاب! سقط الولد يا أخي! ولم يتوقف نزيف المرأة! سمعت بأن وضعها سيء! ستكون هنالك جريمة في قرة طاش. ستموت الكنة خدوج. واسم القرية الذي كالورد، سيغدو كالخراء! ينزف دم المرأة، فينزف الله يا أخي! أمرنا بإسراج الحصان فوراً. وأرسلت الحارس إلى (أورطاكوي). واستدعيت الممرض شاكر أفندي. اعْتَبَرَنا الرجل، الله لا يحرمنا منه. انطلق حاملاً أدوية موقفة للنزف. جعلته يحقنها. وجعلته يحقنها بحقن مقوية أيضاً. لم يحقن أحد من سلالتها حتى الآن بالحقن المقوية. بفضلنا رأوا الحقن المقوية! مهما يكن... عيب قول هذا. ليس سهلاً، احتملنا عذاب شاكر أفندي الممرض، وحصانه طوال هذه الأيام. شاكر أفندي في الحقيقة رجل أفندي! إنه يأكل ما آكله أنا وأنت، ولا يعرف الشكر! نحن هكذا، نحافظ على شرف كل هذه القرية. من بعيد، يبدو الأمر سهلاً، ولكنه غير ذلك. والحاصل، صارت امرأة بيرم أصح مما كانت عليه من قبل. آخر حقنة لها اليوم أو غداً.. انشغل شاكر أفندي. ذهب إلى (دوزمشة). سندفع مصاريف هذه الحقن والرعاية من الكيس. أي إننا سنأخذها من هاجلي. وسيدنا القائمقام منع الأساس. أصدرتُ أمراً لهاجلي، جعلته يملؤه. الآن، قل يا أخي منجل، ماذا سأفعل أكثر من هذا؟»

قال منجل في داخله: «الخروف؟»

«إذا بدر مني تقصير، فقل لي!»

قال منجل في داخله: «العصي التي أكلها بيرم؟»

قفز الضيف فوراً من هناك، وقال: «والله ما عملته ليس عمل مختار، بل عمل أب! وأنت لا ذنب لك بهذا العمل! لا تخف أبداً! أنت

لا تأتيك بلية من هذا الأمر! أرسلت حصانك أيضاً، وجلبت الممرض. ماذا يريدون أكثر؟»

قال المختار: «كانت ستموووووت، ستموت! لو لم أجلب الممرض لما وقف نزفها. والله تموت! كم واحدة رأينا مثلها؟ ماذا يحدث بعد ذلك؟ كان سيذهب هاجلي المجنون إلى السجن، ويبقى قرة بيرم دون امرأة، ويتجرجر في حال سيئة!..»

قال منجل في داخله: «وهل يبقى دون امرأة؟ كان سيسحب فاطمة هاجلي ذات المؤخرة الكبيرة إلى حضنه الدافئ، ويستمتع!..»

«أليس كذلك يا أخي منجل، قل أنت!»

قال منجل: «والله، انظر يا مختار! كان يجب ألا يسمح بهذا الأمر منذ البداية! كل الذنب ذنبك! قمت، وجعلتهم يحفرون أساساً قدام بيت بيرم! إذا حفروا أساساً قدام بيتك، ستقفز أنت نفسك إلى السماء! قرة بيرم فقير ما فقير، نعم. ولكن لكل شخص كرامة. سينشب صراعاً غداً، ويقولون للرجل: بنوا بيتاً قدام بيتك، والآن يلقون الزبل على باحة بيتك، فهذا كما لو أنهم يلقونه في حلقك ولاه! إذا كنت مقداماً، لماذا لم تنبس في ذلك الوقت؟. سيكون حينئذ موت الرجل أفضل من حياته. كان عليك ألا تفعل هذا. هذا ما يقصدونه بقول: إذا تألم الحمار، يرمي حمله القيّم، ويعبر! والآن، تألم بيرم. وعندما تألم رفسنا جميعاً، وعبر!..»

صرخ المختار قائلاً: «لا تفعل هذا أبوس عينك! يجب ألا نوقع فيما بيننا للاشيء يا منجل! ما هذا الكلام يا أخي السبع؟ نحن ناديناك إلى هنا لتحكي كلمتين صحيحتين من أجل الله!.. وقفت الآن، وتساند قرة بيرم!.. وتعارضنا! هذا الذي تفعله عيب إزاء المختار وأعضاء اللجنة!.. استيقظ يا منجل!.. استيقظ يا أخي السبع!..»

قال منجل: «ما قلته صحيح! أنيك أم الكذاب وامرأته! انظر!.. عن ماذا تتكلم أنت يا مختار؟ أنا ذهبت يوم الشجار، ورأيت خدوجَ قرة بيرم. ماذا يعني سحق ظهر امرأة لا حول لها ولا قوة، وأطرافها؟ كانت تبكي بصعوبة! وكانت منهارة كبيتها! كانت تتلوى.. أم أننا لن ندع أحداً يتنفس في هذه القرية؟ واستدرجت قرة بيرم، وجعلتهم يضربونه في بيتك. كان طريحاً. رجل هذا القدّ قدّه تمدد غائباً. كل طرف من أطرافه أزرق. يجب أن توجد إنسانية. لا تليق بالرجل ألاعيب العاهرات هذه! أمرتَ بربط يديه ورجليه، وضربه. هذا ما قاله...»

«هذا كذب، وعن رهن!.. وترتيب!»

«أنا رأيت بعيني قرة بيرم خارجاً من بيتك يعرج. ليس كذباً! أنا لم أكذب في حياتي. لا أصدق لو لم أر بعيني!»

«يمكن أن تكون رأيت بعينك! لا قيمة لهذا! الكذب كذب! خروجه وهو يعرج لعبة! إنه ابن قرة شالي! يتوقع منه كل شيء! هذا يعني أنه يتلاعب بشرفنا الآن! انظر، انظر، انظر... يخرج منهاراً وهو يعرج! انظر إلى سياسة هذا السافل. والله لا تخطر ببال إنكليزي!..»

«هذا يعني أن ما فعله بيرم هو سياسة! يلفق هذا من أجل أن يطرحك أرضاً؟ ولكن... أيدنا هاجلي، وجعلناه عضواً في اللجنة. هل يجب أن يدلّل الرجل إلى هذا الحد فجأة؟ ومن يكون هو ليبني بيتاً وسط القرية؟ أين وسط القرية منه؟ ليعرف كل شيء حده قليلاً. نعم، لابد من مأوى لكل جار. أنا أقبل هذا. ولكن يوجد ما هو مناسب له. توجد أرضيات بيوت كثيرة مناسبة لهاجلي! ما أجمل قول القائمقام: استهلكوا الخرابات أولاً، بعد ذلك، ليأتِ الدور على وسط القرية! وحتى

ما الحاجة له؟ ليذهبوا إلى أطراف القرية! يزداد السكان، ولكن، ليزد بقدر ما يزيد، فلن تصل بيوت قرة طاش حتى (صاريِ كورت) ياه؟ وكما يقال، لا تلجم الحمار فيعتقد أنه حصان! مثله. نحن جعلنا هاجلي عضواً، ولكننا لم نقل: قف خلفه ليتمادى هكذا..»

قال المختار: «نعم، هذا صحيح! دللنا هاجلي أكثر من اللازم قليلاً. أصلاً، أنا لا أقول إنه على حق! والآن وقع أمر ملخبط. ولنتركه بيننا هكذا، ولا ندعه يجعل اسم قريتنا سيئاً بنظر الحكومة! لنجد حلاً. كلامك هكذا خطأ. إنه تأجيج للموضوع. تكلم بما يعيد هؤلاء الحيوانات إلى طريق الصواب! أنت اليوم من وجهاء القرية! في التوسط ثواب!...»

«والله نحن قلنا لك حقيقة الأمر! هذه هي الحقيقة. لنعمل على تصحيح الأمر، ولكنه صعب. تقريب طرفي هذه المشكلة صعب جداً».

«نأخذ ثمن الحقن كلها من هاجلي! ونقول لبيرم: تخلّ عن دعواك! وجعلناهم يملؤون الأساس...»

قال منجل: «وماذا عن قرميد هاجلي؟ ماذا إذا وقف، وقال قرميدي؟»

قال المختار: «أنا أخرى بقرميده. قرميد ماذا؟ داهم البيت. لو أنه لم يداهمه!»

عندما كان الحارس مصطفى خارجاً من الباب الكبير، جاء هاجلي وهو يكح. قال مصطفى: «ينتظرونك! امش بسرعة! انظر! كنتُ ذاهباً مرة أخرى إلى عند قدميك». عاد، وفتح الباب، أسكت الكلب الذي يقول: «عو، عو...» ومشى مصطفى نحو وسط القرية.

صعد هاجلي إلى الأعلى.

يوجد قليل جداً من الناس في الأزقة، وأصواتُ كلاب كثيرة. أبواب البيوت مغلقة. لا يتسلل الضوء. ليلة قرية مألوفة. مقهى نوري منار. يجلسون ساعتين، ثم يتفرقون. الجو غائم. تحولت الغيوم إلى ما يشبه الخراف. والقمر رفيع. يظهر، ويغيب. النجوم لا تُميز من جديد.

قال لنفسه: «لا يوجد حيل في ركبتي، ولا روح في داخلي! أركض دون توقف! قرة بيرم هذا عنيد. وأمه عنيدة! ولاه إراظجة، خنزيرة برية! ولاه، ألا تعرفين القرية؟ الآن تدللين نفسك، في النهاية، إذا وجد المختار فرصة سترون حينئذ الدلال! وسيجدها! أنتِ توجهين قوتكِ إلى الرجل الخطأ؟..»

انعطف نحو بيت بيرم.

قال لنفسه: «نعم، أنا أفهم أنه يجب أن تكون بين يديك قوة لتفرض رأيك. أين تلك القوة عندك؟ البارحة واحد، واليوم اثنان! لا تثق بسند القائمقام لك! اليوم موجود، غدا غير معروف!.. منذ القديم، صديق العثمانيين ليس صديقاً. ستسقط في المحكمة، والمحاكمات لا تنتهي. سيذوب ما في يدك خلال ستة أشهر. وماذا لديك أصلاً. إذا بدأت بالذهاب والمجيء، فلا تستطيع أن تترك قائلاً لنفسك: سأكسب هذا، وأكسب هذا!.. ستبيع كل ما عندك. وكأنك ستكسب شيئاً مهماً؟ مقابل هذا، ستخسر حقك. لديك غنمات وخراف ستخسرها. هذه محكمة! غداً يقولون لك: احضر كشفاً. يقولون: سدد نفقات. ابن الناس لا يأتي على حصان. سيطلب سيارة جيب! أسوأ جيب ستكلف فقيراً مثلك مئتي ليرة! دع هذا، ما لديك أنت؟ انظر، إنهم يستسلمون بشكل

جميل. حقنوا زوجتك. ملؤوا الأساسات، في القرية. يكفي الرجل شرفاً كهذا! هل سيقوم المختار، ويقبّل يدك يا قرة بيرم، يا قرة بيرم؟»

فتح الباب الملفق، ودخل. نبح طومان مرة أخرى. صرخ به: «وشت، وشت!.. اضطجع!» اضطجع الكلب. صعد إلى الأعلى. فتح باب البيت. اجتمعوا عند الموقد. إراظجة في طرف، وبيرم في طرف.. خدوج اندست بجانب بيرم.. وأحمد يتلا كز مع أخوته.

كان بيرم يقول: «سيأتي!». لم يتحرك. وها هو أتى!.. نهض أحمد. حاولت خدوج أن تنهض.

قال مصطفى: «لا تعذبي نفسك يا كنة خدوج! لن أجلس». والتفت إلى بيرم: «انهض لنرَ يا بيرم أفندي! المختار ينتظرك مع لجنة القرية. يقول: ليأتِ بسرعة!»

قالت إراظجة في داخلها: «بيرم أفندي! سأقول لك كلاماً الآن أكسر بخاطرك!..»

«انهض بسرعة يا بيرم بك!..»

صرخت إراظجة: «لا يوجد في سلالتنا بيك يا مصطفى. لا تتكلم كلاماً مغموزاً! سأقول لك كلاماً يكسر بخاطرك. أما أعطيناك الجواب منذ المساء؟ لن نذهب! لماذا لا تقول هذا لذلك الحرامي الكلب؟»

«يا عمة إراظجة! أي كلام ستقولينه لتكسري بخاطري؟ أنا لا آتي بخاطري إلى هنا عدة مرات. أنا عبد مأمور. إذا كان عندكم عدل، بدعوة واحدة تنهضون، وتذهبون. أنا على قدمي منذ الصباح الباكر جداً! وأركض. إيذاء المسلم حرام يا عمة إراظجة! إذا كان المختار يطلبك، ستذهبين، سيء كان هذا، أم جيد!.»

قالت إراظجة: «ذهبنا كثيراً! ألنذهب من جديد لنأكل العصي؟»

«أي عصي؟ هناك طابور من الناس! منجل موجود، وضيفه موجود، لجنة القرية كلها موجودة. هاجلي موجود. وآغالي أيضاً سيأتي.. هكذا ياه! يحكون، وتستمعون! إذا وافقكم تقبلون، وإذا لم يوافقكم، لا تقبلون. لماذا تتعبونني؟»

نهض بيرم: «امش، لنذهب!..»

أطلقت إراظجة صرخة: «إلى أين ذاهب يا حمار؟ هل فكرت جيداً بما ستقوله؟ إلى أين ستذهب دون تفكير؟ هل أنت ذاهب لتستسلم للمختار؟..»

قال بيرم: «لا تحزني أبداً يا أمي. فكرت: لن يخرج من لساني كلمة! سأستمع، وآتي..»

«سيوقعونك في الفخ!..»

«هذا صعب هذه المرة!..»

«يخدعونك!..»

«لن أجيبهم. سأستمع وآتي...»

«ألا يمكن ألا تذهب أبداً؟ ماذا بقي عندك من شغل مع مختار القرية ولجنتها؟ ألم يكن شغلك مع المحكمة؟ العين ترى، والماء يتدفق! الوضع واضح تماماً! بنظرة واحدة تفهم المحكمة أمرك! حتى إنه لا يؤجلها، لا يستطيع أن يؤجلها. لا يحدد يوماً آخر. ولا يستطيع تحديد يوم آخر. لا يطوّل أمرها، ولا يستطيع أن يطوّل أمرها! لماذا تذهب؟..»

خرج بيرم مع الحارس، وذهب.

«ولد حمار! غير مهذب! قلت: لا تذهب. لا تذهب لنرَ!.. لا تذهب، وليأتوا هم حتى قدميك! لا تذهب!..»

قالت خدوج في داخلها: «إذا جاؤوا إلى عند قدمك، فهل عندك بيت تستقبلينهم فيه، أو فرش يجلسون عليها يا أمي!»

«أليس واضحاً ما سيقولونه؟ لا تذهب!.. آآآه!.. سيضغطون على طرفك، ويجعلونك تقول: نعم! وقعت بيننا فرصة إيلام العدو، ولا يعرف قيمة هذا بيرمنا الذي عقله بقدّ عقل عصفور! بيرم الخواف، الخواف بير.... الخواف، الخو.....اف..»

- ٣٣ -

الأفاعي مرّة أخرى

سلطانجة وحيدة.

قالت لنفسها: «ما الوقت يا ترى؟ لأنهض، وأصلي! لأنهض، وأنام.. » إنها تموت من الوحدة.

استدارت إلى القبلة. وبدأت.

صلت من جهة، ورمت ما رمته على أولادها «العاقين» من جهة أخرى. دعت عليهم. فكرت بالأفاعي. فكرت بعدالة الله المتأخرة. تريد تغييراً لا يمكن أن يحدث: أن تنهار البيوت التي يسكنها أولادها في الأعلى، وتصير واطئة بتعويذة. وبالتعويذة نفسها، يرتفع البيت الذي تسكن فيه فجأة!.. فلا تستطيع أفعى أو أم أربع وأربعين أن تصعد إلى البيت المرتفع! حينئذ تملأ الغرف التي يسكنها أولادها الأفاعي كلها. وليروا ما يمكن رؤيته من شيطان طائش عندما ينامون! لتلدغ الأفعى إبراهيم ذا الأذنين الضخمتين من مؤخرته، ومن وسط مؤخرته تماماً! بعد ذلك، امرأته. بعد ذلك، السافل شكرو!.. عيب! ولكن، ماذا ستفعل؟ الأم لا تريد هذا في أي وقت! ولكنهم يتركونها بحالها هذه! لماذا يتركونها؟ عندما يحلّ المساء، يأخذون نساءهم «الفظات» وينامون في

فرشهم الدافئة. ويحتضنونهن... الله يجعل الكنات يرون من الله ما لا يردن! ولكنهن لا يرين! جعلن أولادها سيئين تماماً. إبراهيم ذو الأذنين الكبيرتين، كان لا يقول إلا: «يا أمي التي مالي غيرها!» عندما كان عازباً. وكلما حكى شكرو كلمتين، يباهي قائلاً: «غداً، أنا سأرعى أمي!» تزوجوا، صارت أعينهم لا ترى أحداً غير زوجاتهم. تغيرت عقولهم. صارت أمهم سيئة. ساء الأولاد. يا الله، إذا كنت الله فاعط هذه الكنات ألماً شديداً! أخذ زوجها من بين يديها وهو في ريعان شبابه. ما ذنبه؟ بينما كل هذه الذنوب يرتكبها «أشباه النساء» فليسلط الله الأفاعي على رؤوسهم!.. الله الجميل هذا!..

تفقد صلاتها «جوازها». تبدأ من جديد. ترتجف خوفاً من فقد صلاتها جوازها. ترتعد خوفاً من خروج أفعى، والالتفاف عليها «لفة الخازوق» فلا يمكنها التخلص منها، وهي تصلي. فقد سمعت بأن الأفاعي تلتف بما يسمى: «لفة الخازوق»، وأن هذه اللفة لا يمكن التخلص منها حتى لو قطعتها قطعاً. منذ زمن طويل، وكل من يقف أمامها يحكي لها حكايات مخيفة عن الأفاعي. وتصفّر عندما تسمعها. وتقفز شياطينها إلى رأسها عندما تتذكرها. وتفقد صلاتها جوازها مرة أخرى. تخطئ، وهي تقرأ. تتوه. الله يعفو عن ذنوبها. لا تفعل هذا بإرادتها. خافت كثيراً من الأفاعي.

عندما أنهت خير الدعاء وسيئه، ومسحت وجهها بيديها المفتوحتين نحو السماء، كان أذان العشاء قد بدأ يُرفع. قالت: «تفووووه! أمورنا هكذا! صلينا، وبطلت، وصلينا، وإذ بالصلاة قبل وقتها!.. تفووووه، لو أن قبلتنا صحيحة على الأقل!.. تفووووه، رغم هذا، ليتقبل الله منا! وإن

أراد، فلا يقبلها، انظر لما عانيته. ولّدي بألف حَرقةٍ وحرقة، وصيحة.. وكبّري بألف هم وهم، وجهد، وليغلقوا عليك البيت السفلي هكذا!..»

وضعت السبحة في جيب كنزتها. رفعت سجادة الصلاة. احتضنت الفراش الموضوع في خزانة الجدار التي لا خشب فيها، ولا باب، ومدته على الأرض. خفق قلبها بشدة وهي تفتح الفراش واللحاف. تظن أن الأفاعي ستخرج فجأة من مكان تخنس فيه. نفخت القنديل الذي فوق الموقد، واضطجعت. بسملت عدة مرات. نسيت ما قالته قبل قليل، وبدأت بدعاء نوم طويل قائلة: «نمتُ، وليكن الله إلى يميني ويساري.. نمت والله إلى يميني ويساري! والتجأت إلى الحق سبحانه! لتشهد الملائكة على ديني وإيماني! نمت، يا الله ارفعني! اغمرني برحمتك. إذا كان الأجل قريباً، فارسلني على الإيمان!.. أنت الحق يا الله، أنت الواحد يا الله. أنت قادر على كل شيء يا الله! يا رب ارحمني من شر المرأة السيئة، والولد السيء، والجار السيء، ومن شر السادة والسلاطين، ومن عدم الصلاة والعبادة، ومن عدم الحج، وعدم وجود الشيخ، ومن عدم التصديق والتردد، ومن السافل واللص!.. امنحني الصحة يا ربي من أجل فاتحة الخير، ودفع الشر، وغفر الذنوب!.. امنحني فرح النفس يا ربي!.. يا ربي أرني أياماً جيدة، ووجوهاً جيدة في آخر أيام عمري!.. أرجوك يا ربي، يا ربي، يا ربي!.. بسم الله!، ولتكن أطرافي الأربعة قلعة، وليكن بابي مئذنة! وليكن الله حارسي، وليرعاني إن شاء الله!..»

سحبت اللحاف فوق رأسها.

وحيدة جداً، هكذا...

* * *

قال المختار: «انظر يا قرة بيرم! أنت رجل ذكي! لا يلزم قول الكثير لك! ونضغط على هاجلي فيقبل ما نقوله، ودون تعب في الأعلى وفي الأسفل، تصالحا هنا وأنتما واقفان! إذا ذهبتما إلى المحكمة فهل ستصالحكما المحكمة أفضل منا؟ تعالوا لنتخلص من هذا الأمر هنا. إذا انتبهتم، فليس لي مكسب من مصالحتكما. أنا أبذل جهدي من أجل عمل الخير. أنا رجل محب لفعل الخير كثيراً. وكلكم تعرفون هذا. وفي كل عيد من أعياد الله، أوزع كيلو ونصف حمّص محمص على كل ولد، وهذا تعرفه قرة طاش كلها. لهذا السبب، أهدف لإنقاذكما هنا. وكما قلت، دعوا العناد. ستؤخذ نقود الحقن للممرض شاكر أفندي من هاجلي. لن تدفع ولو خمسة قروش لقاء حقن زوجتك. وهاجلي أيضاً سينسى قرميده. أليس كذلك يا هاجلي؟»

نفّخ هاجلي من حيث يقف: «يا هووووه، يا مختار، هل ستغرقنا تماماً؟ نيتك نحونا صداقة أم عداوة؟ ماذا؟.. لماذا نتكلم هكذا الآن؟»

دهش المختار: «كيف ولاه حمّار؟ كيف أتكلم أنا؟»

نفّخ مرة أخرى: «ذهبت ألفي قرميدة من عندي! كم تساوي ألفي قرميدة؟ أتعرف؟ أجرة عمالتها فقط مئتان وخمسون بنكنوت! أولاً كيف أتنازل عنها؟ وهل أجمع أنا هذه النقود من الترعة؟ ثم إننا دفعنا نقوداً من أجل حفر الأساس. أحدهم ملأها مرة، وملأناها نحن مرة تلبية للأوامر. من أين سنعوض هذه الخسائر؟ وأنا أيضاً رجل فقير! وهل صارت قوافلي تسحب من حلب بكوني عضو لجنة اختيارية؟ ثم إنك تحملني نفقات الحقن! ومن يعلم بكم ليرة حقنت؟ ليدفع نقود الحقن كما يُحقن الجميع! غداً، إذا أسقطت زوجتي ولداً، هل سيدفع قرة بيرم نقود الحقن؟ وهل سيجلب قرة بيرم شاكر أفندي ليحقن زوجتي؟»

يكزّ بيرم على أسنانه، ويقول في داخله: «نحن من حقن امرأتك مجاناً، غير هذا، سنحقنها كثيراً أيضاً».

قال المختار: «يا ربي الهمني الصبر. ولاه، أحدكما يشدّ إلى هذا الطرف، والآخر إلى ذاك الطرف! ولاه هاجلي، أنا أليّن الرجل كالشمع! أنت بدأت تتمادى كثيراً، انظر! ليس لك حق بالكلام يا سافل! لماذا تذهب إلى بيت الناس، وتداهمه؟ هل أعلنت نفسك (كورأوغلو) في هذه الدولة يا عديم الشرف؟.. هيا، لنقبل أنك داهمت بسبب الغضب، لماذا تهاجم المرأة ولا تهاجم الرجل؟»

قال هاجلي: هذا غضب إذا غضبت فأنت أيضاً تهاجم.

«إذا هاجمت، فستحتمل عقوبة الهجوم. يُقال من ينهض بغضب، يجلس بضرر، أما سمعت بهذا القول؟ والآن، أتعرف ماذا يعني إسقاط ولد المرأة؟ الحزب الجديد يحكم بالإعدام، عقوبة الإعدام!.. الآن أُوجدت ديمقراطية في الدولة، وهذا يجعل أمنا الحكومة تسن ثمناً غالياً جداً لكل ولد، ولد أم لم يولد. وقديماً كان الأمر هكذا. في أحد الأيام، سمع حضرة سيدنا بلال الحبشي بأذنه حضرة سيدنا الرسول قال هذا قبل مدة الحافظ ابراهيم القرماني. قال حضرة سيدنا الرسول: من يُسقط ولداً من رحم أمه، فإن ذلك الرجل مذنب كبير بنظر الله، وبنظري! والله إنه قال هذا بالضبط. حتى إنه عندما تفضل بهذا كان حضرة سيدنا علي موجوداً. سمعه ذلك العبقري بأذنه أيضاً. طبعاً أنت ضربت الكنة خدوج بالحجر على ظهرها، ولكنك ضربتها نتيجة الغضب. لهذا السبب نحن نقول: إنك ارتكبت خطأ دون قصد. والآن لنصحح هذا الخطأ. هكذا ياه، الإنسان خطاء. لا يوجد عبد دون خطأ، وهذا كلام مشهور. كادت زوجة

بيرم تموت! انظر، أمرنا برعايتها! أنت ادفع مصاريف هذا الأمر دون أن تتعبنا. وليتنازل بيرم عن دعواه. بعد أن نرجوه، ماذا سيفعل إذا لم يتنازل؟ إنه مضطر للتنازل عنها! ولكننا طبعاً نحن آسفون من أجله! الآن، زوجته لا تفيد في أي عمل طيلة ستة أشهر. وهذا رجل في ريعان شبابه، ماذا سيفعل من دون امرأة؟ خاصة وقد بدأ موسم العمل. وغداً سيأتي الحصاد والبيدر. من سيعمل عمل هذا الرجل؟ يجب على الإنسان ألا يفكر بنفسه فقط، بل بالآخر أيضاً. فكر بحسب هذا. إذا اشتكى عليك هذا الرجل، فإنه سيأخذ منك ثمن الحقن، وفوق هذا يلبسك ثماني سنوات على الأقل! وإذا أغلقت عليك في السجن، ستتفسخ! إنها جريمة، يلقون بك من أجلها في سجن بورضور. وما أدراك ما سجن بورضور؟ الله لا يوقع عدوي فيه! صعب!...»

أنّ هاجلي: «يا هوووه، لم يبق معنا حتى بضعة قروش يا مختار! انهرنا، وتبعثرنا، ألا ترى؟ وأنت ما زلت تتكلم بذاك الشكل! وكأن انغرازنا في طين الحي السفلي لا يكفي، تحاول سلبنا! عيب كل هذا ياه!..»

قال المختار مبدياً الصبر: «فكر جيداً يا هاجلي أفندي، فكر جيداً يا أخي.. فكر جيداً، ولنرجو بيرم ليتنازل عن دعواه! بعد ذلك، ستحترق حرقاً. ولكن بعد انقضاء الأمر فلا قيمة للحرق. انظر، لا تتجاهل، أنت غير محق! أنت هُزمت بهذا الصراع! والمهزوم يتحمل العواقب. فكر جيداً».

الأعضاء صامتون. منجل صامت. ضيفه صامت. آغالي جاء متأخراً، هو أيضاً صامت.

قال المختار: «لا تصمتوا يا أصدقاء! لا تتركوني في وادٍ بين طرفين! احكوا كلمتين كرمى لله! أفهموا هذين إذا سقطا في المحكمة سيُعاقبان عقوبة كبيرة. المحكمة غير جيدة لكليهما! احكيا كلاماً صحيحاً ليعودا إلى صوابهما!..»

رفع الأعضاء أكتافهم.

قال آغالي في داخله: «وهل استشرتنا عندما فعلت هذا؟ والآن، تكلم أنت!» وغضب، وصمت أكثر.

لا يوجد طرف ممكن في هذا الأمر.

قال بيرم فجأة: «لديّ كلام يا مختار!»

نظر المختار بأمل: «تكلم يا قرة بيرم!»

«أنت أولاً اعطنا سكيننا!»

لوى المختار أنفه، وكأنه أكل شيئاً حاراً. قال: «أي سكين يا بيرم؟ أي سكين يا أخي؟»

«أخذتها في ذلك اليوم ياه.. لابد أنها كانت تلزمك!..»

قال في داخله: «انظر الآن إلى هذا السافل» ولبيرم: «كيف ذلك اليوم ولاه؟»

«في يوم الشجار استدعيتنا يا عزيزي، هل نسيت؟ كانت هنا! ألا تتذكر؟»

قال المختار: «حسنٌ» عاد الأمل إلى المختار قائلاً لنفسه: «إذا أعطيته السكين يرضى». لبيرم: «كان سكين خصر، أليس كذلك؟ نسيتها أنا! لم تتركوا عقلاً في رأسي! انتظر لأجعلهم يجلبونها لك!..»

أشار للحارس: «انهض، واذهب إلى امرأة عمك عطية، لتأخذها! إنها في الخزانة تحت الفرش!..»

نهض مصطفى، ودخل إلى الداخل. بعد قليل، عاد حاملاً سكين خصر. أعطاها للمختار. والمختار مدها نحو بيرم.

قال بيرم: «الآن سأسألك سؤالاً. طبعاً، تجيب إن أردت أو لا تجيب. في ذلك اليوم، هنا، وفور دخولي إلى الغرفة، أمسكني رجلان كانا خلف الباب غدراً، وعصبا عيني وأذني، وربطا يدي ورجلي. ومدداني، وضرباني. وكنت أنت في الغرفة الجانبية. وكنت شاهداً على الحال. ما سبب هذا؟»

قال آغالي في داخله: «أجب!»

قال منجل في داخله: «هيا أجب! قبل قليل سألتك، أنكرت. والآن أجب لنرَ!..»

قال: «أنا لا علم لي بأمر كهذا يا بيرم أفندي! لا يوجد أي فرد ضُرب في بيتي مثلما شرحت! لا بالأمس، ولا اليوم، ولن يحدث في الغد!.. لم يحدث، ولا يمكن أن يحدث!.. أنت مخطئ يا سبعي!»

«لا يا روحي، أي خطأ سأخطئ! أنا الذي أكلت الضرب، وهل يمكن أن يكون خطأ؟ كانت يداي ورجلاي مربوطة، وكنت مبطوحاً على وجهي، وجئت إلى فوقي، هل نسيت؟ وإذا كان في الأمر خطأ، فمن أين خرجت هذه السكين؟ ما شغلها في بيتك؟»

«خطأ يا بيرم، كله خطأ! لم يحدث شيء كهذا! أنت تفتري علينا تماماً، وتلعب لعبة!..»

قاطع بيرم كلام المختار قائلاً: «إذا كان الأمر هكذا، فامرأتي أيضاً لم تُضرب! ولم يسقط ابنها! هذا أيضاً خطأ وكذب!»

«ذاك صحيح! لا أستطيع إنكار هذا!.. أما هذا الذي قلته، فكله

خاطئ. كأنك لم تكتف بعرقلة هاجلي وإسقاطه، أراك تريد إسقاطي تحتك أيضاً! ولكن لا فوضى! أنا لستُ مغفلاً يا سبعي! أنت لا يمكنك أن تجعلني أدوس على فخ. أنا فهمت ما أردته فوراً! وفور خروجه من فمك! أنت تريد أن تهزمني هزيمة مزدوجة هنا أمام أعضاء اللجنة والوجهاء! ولكن، انتبه! ستهزم أنت هزيمة مزدوجة! أنا لست من المختارين الذين تعرفهم! انظر، هل لدي عين يمكن أن تهزم هزيمة مزدوجة؟!..»

نطّ بيرم مرة أخرى قائلاً: «حسناً، أخذنا الجواب الذي نريده في هذا الموضوع. جوابكم مغلق، وما مغلق، ولكننا نقبله. حسناً، وماذا عن مسألة خروفنا المبكر؟»

صرخ آغالي في داخله: «أحسنت ولاه!..»

تأتأ المختار: «أي خروف؟»

«الخروف المبكر الذي تعرفه يا عزيزي!»

«هاااا، انظر!.. أخطأنا في ذلك الأمر. لزم خروف مبكر يوم مجيء القائمقام. كانت نيتنا أن نبقي السيد القائمقام هنا. بعد ذلك، تخلينا عن نيتنا تلك. وأرسلت هاجلي، لأنه عضو في اللجنة طبعاً. قلت له: اذهب إلى الراعي، وليمسك لك أحد خرافنا، خذه وتعال!.. ذهب هاجلي إلى الراعي، وقال له ما قلته بالضبط. أنتم تعرفون الحاج الراعي. فهو ساذج قليلاً. ليس قليلاً، بل كثيراً. أمسك خروفاً، وأعطاه إياه. وأعطاه خروفك، بدل خروفي يا أخي! وأخذه هاجلي، وأتى! من أين يعرف هاجلي! لو كنت أنت، فهل تعرف خروف هاجلي؟ مثله تماماً. لا ذنب لأحد في هذا. ولنغلق هذا الأمر الآن. هذا الفصل مختلف. لا علاقة له

بالموضوع الذي نحكي فيه الآن. سنحكي فيه فيما بعد. إذا لم يُحلّ ندفع لك ثمن خروفك. ندفع لك نقوده بالسعر المعروف».

قال بيرم: «ماذا نفعل بنقوده؟ أنا يلزمني حَلْباً طوال الصيف!»

«حسنٌ ياه، تشتري غنمة ذات خروف أنت أيضاً».

«ولكنك ستدفع لي أنت ثمن خروف! وهل يُشترى غنمة ذات خروف بثمن خروف؟»

«يا روحي!.. نشتري خروفاً يتيماً، وتُسرحه مع غنمتك. هل سأدلك على كل شيء يا هوووه؟ لا تعرف شيئاً، وتتعب رؤوسنا إلى هذا الحدّ هنا!..»

«كل هذا حكي!.. وهل وضع خروف يتيم ليسرح مع غنمة غريبة سهل أم صعب؟ ألم تفكر؟ ثم إنك تقول: خطأ! وتخرج من الموضوع! أي خطأ هذا؟ لم يصادف خطأ كهذا خروفاً آخر في كل هذه القرية؟ ثم لماذا يذهب هاجلي لأخذ خروف من القطيع؟ ألا يوجد حارس لهذه القرية؟»

«وهل سنقدم لك حساباً يا قرة بيرم؟ لا تتمادى كثيراً! كفى هذا، وزاد! انظر، أنا أقول لك: لا تتمادى كثيراً!.. كان عند الحارس أشغال أخرى. وأرسلنا هاجلي لأنه عضو في اللجنة!..»

«حسناً، ولكنني ذهبتُ، وسألت الحاج الراعي. ذهب هاجلي إليه، وقال له: ستمسك أحد خراف قرة بيرم، اشتراه المختار!.. ماذا يقال في هذا؟»

طار صواب المختار: «ولاه، هل يوجد تماس في مخك؟»

قال بيرم بصوت خفيض: «لاااا!»

«لماذا تتكلم هكذا دون تفكير؟»

«لا يناسب أمورك، أليس كذلك؟»

«دع عنك أموري! نحن لم نجتمع هنا من أجل أموري! اجتمعنا من أجل أمرٍ للقرية! ومهما بدا أن هذا الأمر يهم شخصك، فهو في الحقيقة أمر قرة طاش. لا يمكن أن يوسخ اسم قرية هذا القدّ قدّها في نظر الحكومة بسببك. ثم عليك أن تنتبه!. أنت في الغرفة الرسمية! لتسمع أذنك ما يخرج من فمك! احك بحساب!.. الآن، أجب بوضوح تام عما سأسألك عنه: إذا دفع هاجلي هذا ثمن الحقن، هل تتنازل عن دعواك، وتتصالح معه؟»

عاند بيرم: «لا أصالحه أبداً!..»

«لماذا؟»

«الخروف؟»

«سندفع للخروف!»

«كيف ستدفعون؟»

«سندفع ثمنه».

«أنا ماذا أفعل بثمنه؟ أنا يلزمني حليباً! ما قيمة الغنمة! إذا لم يكن خروفها موجوداً؟ أنا أريد غنمة ذات خروف مثل غنمتي!»

«ممكن! على الرحب والسعة! تعطينا أنت تلك الغنمة، ونشتري لك غنمة مع خروفها!.. قبلنا!..»

«والضرب الذي أكلناه؟»

«لا يوجد شيء كهذا!..»

«يوجد!»

«قلنا لا يوجد ياه! لماذا تلح؟ أما طلعت رجلاً ميكروباً ومعارضاً ولاه قرة بيرم! انظر يا ابني!.. إذا قالت الحكومة أو القائمقام أو المختار أو العريف أو واحد آخر عن شيء غير موجود، فهو غير موجود! لا يمكنك أن تعاند قائلاً: موجود! تعلم هذا جيداً!..»

«حسناً، يوجد، ولا يوجد شيء كهذا!.. والضرب الذي أكلته زوجتي؟»

«حقناها بالحقن هي أيضاً».

«ولكنها تعطلت عن العمل كل هذه العطلة! وستتعطل أكثر!.. لن تستطيع عمل شيء طوال الصيف؟..»

«نفكر بحلٍّ لهذا أيضاً!.. يرسل هاجلي أفندي فاطمة في بعض الأحيان لتساعد في الحصاد والبيدر..»

«هذه أمور غير ممكنة!..»

«ما هو الأمر الممكن؟ قله لنرَ!. احك لنتمنى أمنيات على طلبك يا قرة بيرم!..»

«أنا سأذهب، وأخبر الحكومة! وهي ستقول شيئاً بالتأكيد! وبالنتيجة سأرضى بما يقضيه الحكم!..»

قال المختار: «أوف!.. ما هذا الذي أعانيه منكم؟ أنا أتعب حنكي من الصباح، أنت لا تفهم الكلام ولاه سافل! ماذا سأفعل لكم أكثر من هذا ولاه؟ وهل سأبني نزلاً في المكان الذي أتعب فيه؟ هل سأضع كلاً منكما في حضني، وأشخخه؟ يجب أن يكون عند الإنسان قليلاً من الإنسانية يا عزيزي! ولا يوجد عندكم ذرّة من هذه ياه!.. هذا أوف ولاه؟»

تعرق المختار عرقاً خفيفاً.. بح صوته. مسح بقفا يده عرق جبينه، وقال للحارس: «اعطني ماء لأرى! جف فمي ولساني!..»

بعد ذلك سُمع صوت الكلب (أقش) الذي ينطط القلب. الكلب ينبح بقوة، وكأن قطاع الطرق ملؤوا القرية، وهو مضطرب.

ركض مصطفى إلى الخارج. عاد فوراً، وأخبرهم: «جاء الممرض شاكر أفندي!..»

قال المختار: «اركض!..» وأخذ نفساً عميقاً: «اركض، وادخل حصانه إلى الداخل! وليتفضل هو إلى الأعلى!..»

بعد قليل، دخل شاكر أفندي: «السلام يا أغوات!»

نهض المختار، وقابله: «جئت في وقتك بالضبط يا أخي. أهلاً بك!..»

سأل شاكر أفندي: «خير؟ هل يوجد حديث؟»

«عندنا لقاء صلح. ولكنه انغرز في طريق مسدود!.. صار من غير الممكن تطبيق قرار بسبب الغبار والدخان. الألماني يشد من طرف، والروسي من طرف. وأنا كالسويد أبقى بينهما. اجلس هنا بسرعة، وضع إصبعك في هذه المسألة! لعلك تملك أساليب خاصة فيك، وتجد حلاً وسطاً بينهما!..»

قال شاكر أفندي: «والله لا أدري إن كنتُ أستطيع فك العقدة التي لم تستطيعوا أنتم فكها! كما أنني لا أملك أساليب خاصة!..»

«يوجد، يوجد! أنت تقول: لا يوجد، ولكن يوجد!.. ولكن قبل هذا لنسألك عن وضعك: هل أنت جائع أم شبعان؟»

قال شاكر أفندي: «لستُ جائعاً. أكلتُ في (دوزمشة). بقيت حقنة لإمرأة بيرم. لنحقنها قبل أن يمرّ اليوم..»

قال المختار: «بيرم هنا! هذا سهل! قبل هذا لننتّج هذا الأمر! بعد ذلك، نذهب، ونحقن الكنة خدوج حقنتها!» والتفت إلى قرة بيرم: «والآن، لنعد إلى موضوعنا. بذلنا كثيراً من الحكي، تعال، ودعك من هذا يا بيرم. تعال من قريب ومن بعيد. لا تتعبنا أكثر من ذلك!..»

* * *

بيت سلطانجة قفر.

وداخله مظلم أيضاً. ظلام لا يؤثر فيه الظلام.

نامت سلطانجة وهي تردد بسملة وراء بسملة. كانت متعلقة بغصن على رأس شجرة ضخمة فوق الغيوم. الغصن على وشك أن يُكسر. يكاد يكسر، يكسر، كُسر. في لحظة كسره تصغر الشجرة. شيء غير ممكن: الشجرة تصغر، وتصغر، فتلمس قدما سلطانجة الأرض. حينئذ يطقطق الغصن، وينكسر. تسقط متمددة وسط الأعشاب ذات الأوراق الضخمة. طابور بطّ على هواه غطى المستويات الخضراء، والسهول. البط ذو رؤوس خضراء. الأشجار القزمة تكبر من جديد، وتصعد إلى قمة السماء. تبتعد الأغصان القوية عن الأنظار في علو لا يصله الصوت. الأفاعي تأسر الخضرة المجاورة. يحاصر المنبسط جيش أفاعٍ خضراء الرؤوس، أفاعٍ خضراء الرؤوس، وبنيّة، ومبقعة، حمراء مسودة، وسوداء مبقعة، وسوداء جرداء، وأفاع بسبعة ألوان، تُفصّل وتقصُّ على هواها، وتنتشر بكثافة. تجد سلطانجة دون حاجة للبحث عنها. تهجم عليها. حينئذ تعود الشجرة التي تُطلق رأسها إلى الأعالي، وتلحق بها للمساعدة. تنحني، وتمدد أغصانها السليمة لسلطانجة. تتمسك بها سلطانجة. يا الله!.. الأفاعي تتسلق على جذع الشجرة بسرعتها اليائسة دون جدوى. وتتدافع لتتسابق، وهذا يصعّب صعودها تماماً. وقبل أن ترتفع عن الأرض مسافة عشرين متراً تنزلق ساقطة. سلطانجة تضحك. تندهش من الشجرة. أخذتها الشجرة إلى ارتفاع إذا أرادت أن تنزل منه وحدها لما استطاعت النزول في عشرة أيام. أخذتها، وأنقذتها من الأفاعي ومن ظلام البيت الأرضي!.. كانت تلك الأمكنة منارة بشكل...

البيت الأرضي مظلم. ظلام شامل كيأس سنوات القحط أرخى نفسه داخل البيت. لا جنّ أو أنس. ولا صوت أو نفس. لا يوجد حتى لمعة ضوء. لا عين أو مرئي. لا يوجد ما يدعى موجوداً.

أفعى، أفعى بطول عكاز الشيخ بيت الله تسير من هناك، من عند سلة الألبسة. عينها لا ترى. كانت الأماكن الداخلية في الغرفة باردة كالجليد. تأتي نحو دفء. ترفع رأسها ذا العين العدسية، وتتلفت فيما حولها. كانت عمياء. تقدح، وتقدح، ولكنها لا تلتقط ناراً. تسير ملتوية يميناً ويساراً، وتلطم هنا وهناك متلمسة طريقها.

نَفَسُ سلطانجة دافئ. انزلقت على المخدّة بجانب رأسها. ليكن شيئاً دافئاً، وليكن ما يكون. عطشت لشيء دافئ كما عطشت لسلّة ألبسة جندي سفر برلك عمرها ثلاث عشرة سنة. كأن الأفعى خروف (مور). دفء لم تره. تتحد بطولها في الظلام. كان يمكن البقاء هنا مدة طويلة.

ولكن شجرة سلطانجة تصغر.

* * *

قال المختار: أي أنك ترد على هذا الأمر بغير ممكن! وبشكل نهائي. أليس كذلك يا قرة بيرم؟»

«..........»

«نعم ياه، أنت تصمت! تقول: غير ممكن! تقول: أنا لا أهتم لك وللجنتك ولوجهائك، وللممرض شاكر أفندي؟..»

«..........»

«لا تصمت! لأنه يعني هذا. يعني هذا بشكل صريح! ألا أفهم أبداً؟ حسناً إذن، أنت تعرف! أنت حر! يمكنك أن تذهب أينما تريد! يمكنك أن تتقدم إلى المحطة التي تريد. يمكنك أن ترطم رأسك بالحجر الأصلب! يمكنك أن تدعي على هاجلي، وعليّ، وعلى اللجنة، وعلى الوجهاء، وعلى قرية قرة طاش كلها! أنت حر يا أخي! أنت حر. ولكن، اسمع جيداً. لأحكي لك قصة تكون قرطاً في أذنك! خبئها كما تخبئ مكنسة

البيدر باعتبارها ذكرى من أبيك! هذه القصة تلزمك ليس اليوم فقط، بل كل يوم، وفي كل مكان، وفي كل زمان، وفي البر والجو والبحر. وحتى في الإقامة والسفر!.. انتبه يا قرة بيرم: في مكان ما، وفي زمن من الأزمان كان يوجد زوج وزوجة في إحدى القرى. إنهما زوج وزوجة، ولكنهما لا يتفقان بأي شكل. ميولهما وطبيعتهما مختلفة. عندما يحلّ المساء، ينامان على الفراش. المرأة تدير ظهرها فوراً، وتسحب اللحاف فوق رأسها. ينظر الرجل، ويقول: ولاه امرأة، لا تعملي هذا، التفتي إلى هذه الجهة! التفتي ولنعمل وظيفة مرة كل أربعين سنة!.. المرأة تقول: لاااا!.. وبقيت معاندة. ماذا يفعل الرجل؟ بما أن المرأة تدير ظهرها، ينهض، ويذهب إلى المكان الذي تلتفت إليه. ولكن المرأة موضوعك هذه، هل تبقى؟ هه، تلتفت مرة أخرى. الرجل طبعاً ينتقل. من دون إطالة، المرأة تلتفت، والرجل ينتقل. الرجل ينتقل، والمرأة تلتفت... ولاه، سيصبح الصبح - بحسب حسابنا - نظر الرجل، الأمر لا يُحلّ بالالتفات والانتقال. فقال: يا امرأة، يا امرأة! عندك ثقب أو اثنان؟ قولي كرمى لله؟.. قالت المرأة: وهل يمكن أن يكون واحداً؟ اثنان!.. فقال لها: في هذه الحال التفتي إلى المكان الذي تريدين، أنت حرة. وهاجمها!.. لا تنسى!..»

تنهد آغالي، وقال في داخله: «يا إلهي! لا يوجد حرب أو ضرب، فما الذي يفرض كل هذا الهراء؟»

ضرب منجل يديه، إحداهما بالأخرى، وقال: «كرمى لله!»

نهض بيرم، وقال: «حسناً يا مختار!.. أنت أيضاً لا تنس! إذا كانت الثقوب عندي اثنين، فعندك أيضاً اثنان. بعد هذا، عليك أن تنتبه لنفسك!..» التفت إلى شاكر أفندي: «إذا كنت ستحقن الحقنة الآن،

فانهض، لنذهب. وإذا كنت تقول: لا، أنا متعب! فلتبق حتى الصباح!..»

نهض شاكر أفندي: «لئلا تبقى! لنذهب، ونحقنها. إذا كان لنا نصيب، فسأتجه غداً في الصباح الباكر نحو (أورطاكوي)».

همهم المختار في داخله قائلاً: «بسببكم ينام الرجل بعيداً عن امرأته منذ أسبوع ولاه قوادين!..»

* * *

بعد أن أنهى شاكر أفندي الحقنة، قال: «هذه الأخيرة! الحمد لله على السلامة!»

ردت عليه إراظجة: «تسلم، الله يسلّم يدك من الهم!..»

أنزلت خدوج كمها، وزرته من جديد.

قال بيرم: «إيه يا شاكر أفندي، ماذا نفعل الآن بعد أن وصلت الأمور إلى هذه الحال! كيف نفعل؟ قررنا أن نمسك طريق المحكمة» وفي داخله: «ولكنها قرية! أينما التفتنا يوجد ثقب لصالحه!» وله: «أم أننا فعلنا سيئاً بقول: لاااا! للمختار؟ اعطنا نصيحة أخوية! أنا أنتظر جواباً مستعجلاً!..»

قال شاكر أفندي: «والله نحن نعرف أنفسنا بشكل أفضل يا بيرم! من ناحية عقوبة هاجلي المجنون إذا ذهبت إلى المحكمة، فيعاقب! ويجب أن يُعاقب المختار أيضاً، لأنه جعلهم يسرقون خروفك، ويضربونك! ولكن هؤلاء كافرون بدين سماوي! يعرفون مئة نوع للعناد. فقد تدربوا عليه، ودرسوا في مدرسته. يغرقون، ويغوصون في الوحل، ولكنهم يسقطون على أربع كالقطط. لنقبل أنك تستطيع إدخال هاجلي إلى السجن. لا أعتقد أنك تستطيع غرز سنك في المختار! لنقل إن دخول هاجلي إلى

السجن يكفي. ماذا ستكسب؟ ستنزل، وتطلع، وتصرف نقوداً كثيرة حتى تكسب المحكمة. إذا كسبت المحكمة، يأخذون من هاجلي نفقاتها، ولكنهم لا يستطيعون أخذ نفقات الفندق ياه! بعد ذلك، يخرج من السجن، ويقف في وجهك. حتى إذا لم يقف، فإن المختار لا يدعك تتنفس هنا! التخويف أفضل من القتل. الأفضل أن تنقذوا الوضع هنا. كنتم ستأخذون نفقات العلاج. أساساً، أنا لا أطالبكم بها. أنا أطلبها من المختار، لأنه هو الذي استدعاني. ولكنكم يجب أن تدفعوا أنتم إذا لم تتصالحوا. طبعاً أنت تقول: ماذا عن الخروف؟ ماذا عن ضربي؟.. أنا لا أعرف هذا... المحكمة تفصل في هذا. من رآك تُضرب؟ تقول: لم ير أحد!.. حسناً، كيف ستثبت هذا؟.. تقول: رأى الجميع أنني خرجتُ من دار المختار وأنا أعرج، وتمددت هنا ثلاثة أيام! مقابل هذا، يقول المختار: إنه يلعب لعبة نتيجة حقده عليّ، وهذا كله تلفيق!.. ماذا ستقول؟..»

«رأى الأعضاء يديّ ورجلي مربوطة!..»

«ليروا!.. هل سيحكي الأعضاء ضد المختار؟»

«أي أننا لا نحصل على نتيجة من هذه المحكمة برأيك؟»

«صعب جداً.. يجب أن توجد نقود كثيرة تحت يدك، وأن تكون غنياً!.. وأن يقول الشهود الحقيقة. وطبعاً، يجب أن يكون الشهود أغنياء أيضاً ليقولوا الحقيقة. حينئذ ستذهب لمتابعة المحكمة! ولكنك لا تستطيع متابعة المحكمة بحالك هذه. عملك في السهل يتراكم. تذهب، وتأتي، والطرق لا تنتهي. الطرق أقوى من زوج وزوجته، وتتجاوز بؤسكم. هذا إذا قال الشهود الحقيقة كما مررت بها. ليس سهلاً إيجاد شاهد يقول الحقيقة! يخوفونهم! ويخمدونهم! يجعلونهم يقولون لم نر يا سيدي!.. حينئذ ستعلق الدعوى برقبتك. سيقولون: هذا يفتري علينا يا سيدي. زوجة هذا الرجل

تعبث بنفسها، وكل سنة تسقط ولداً، وتدفنه في الزبل! وعبثت بهذا الحمل أيضاً، وأسقطته! يتفزر بطنك من أجل إقناع القاضي بأن الكنة خدوج لا تسقط حملها! هذه الأمور بليات. ليست بليات فقط، بل بحر من البليات! الأفضل، والأصح، أن تأخذ مصاريف الرعاية، وأن تأخذ ثمن الخروف، وتشترط مجيء زوجة هاجلي في الصيف خمسة عشر يوماً إلى الحصاد من الثالثة إلى التاسعة، وهذا كل شيء!..»

يقول بيرم في داخله: «هذا هو الأصح!..» ولكنه لا يستطيع قول هذا بظاهره، لأنه يائس من أمه.

تجلس إراظجة أمام الموقد دون أن تتكلم. تقلب الرماد، وتفكر: «ستأخذ مصاريف الرعاية، وتعطيها لشاكر أفندي! ماذا سيبقى لك؟ ستأخذ ثمن الخروف، إن استطعت أخذه! وهذا ثمن الخروف. هل سيدخل إلى جيبك من فراغ؟ وكما خدعوا العربي بالحمص المحمص، سيخدعونك هكذا! بعد مرور ثلاثة أشهر وزوال الآثار كلها، سيعودون للتعرض لك! وطبعاً في المرة الثانية لن يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبوه في المرة الأولى. لأنهم تدربوا جيداً. لهذا السبب ستكون اعتداءاتهم هذه المرة مخيفة أكثر. سيطعنون الثور بالسكاكين، ويحرقون البيدر، ويخطفون ابنتك وهي قاصر! سيسيئون لسمعتك في سبع قرى. ستكون أرذل من كلب! ستغدو على كل لسان! لن يكون لك من يمسك من يدك. لن يكون هنالك من يمسك لتنهض. ستبقى منزوياً. سيهاجمونك كالكلاب المسعورة. وسيكون الأمر قد فات. سيأتي رجال من الحكومة، ويفتتون جثتك. سيفتحون بطنك، وينظرون فيه. سيكتبون على دفتر ما فعلته، ويذهبون. طالما تدلل أعداءك، سيتدللون! ولن تطول أي شيء. ستكون الفرص

كلها قد فاتت. إيـ....ـه يا قرة بيرم الحمار، هل ستصحو عندما تحدث هذه الأمور كلها؟ يا بيرم الخواف!..»

قال شاكر أفندي: «ستحل شغلك بيدك في القرية. ستعلق على خصرك مسدساً، وتملأ محفظتك، وتدسها في زنارك. حينئذ لن يخرج أحد ليقول لك: مشيت قائلاً، أو كذبت!.. سيسيئون. وإذا هزمتهم مرة، انتهى الأمر. تعيش سلالتك حتى الجيل السابع مرتاحة بفضلك!..»

فكر قرة بيرم: «إنه على الأقل يتكلم أفضل من الشيخ بيت الله!..»

«عندما تسنح الفرصة لك، فافعل ما ستفعله! لن تعطي فرصة لعدوك!»

قالت إراظجة: «ستجلس كل ليلة على رأس شجرة التوت، لأن الثعلب سيأتي مرة، أليس كذلك؟»

«نعم، يا خالة إراظجة، لا يوجد حل آخر!»

«ولكنك ستفعل ما ستفعله عندما تسنح لك الفرصة، ولن تفوت الفرصة التي تسنح لك! إذا بدأت بتفويتها، فلن تحصل على أية فرصة في النهاية».

يتقدم الحديث على هذا الخط.

فجأة تناهى صوت من الخارج: «يا خال....ـة!.. يا خالة إراظجـ....ـة!»

كان صوتاً مؤلماً: «آآآ... يا خال بيرم!..»

تفقد بيرم السكين الذي بيده، وخرج. وقبل أن يقول شيئاً، طال الصوت متوسلاً: «إلحقْ يا خال بيرم!.. الأفعى عضت أمي!..»

شاكر أفندي في الداخل. قال: «ماذا قال؟ هل قال شيئاً؟ لم أفهم!»

في الخارج، سأل بيرم: «متى حصل هذا؟»

الذي كان يصرخ في الأسفل هو شكرو سلطانجة: «الآن!.. الآن صرخت أمي، وخرجت!.. الآن!.. استيقظنا من نومنا!.. الحقنا يا خال بيرم!..»

هُرع بيرم إلى الداخل: «يا هووووه، يا شاكر أفندي، عونك مرة أخرى. الأفعى عضت خالتي!..»

ارتجفت إراظجة: «الله، الله! أفعى ما هذا في منتصف الليل؟»

اصطحب بيرم شاكر أفندي: «انهض، أنا قربانك. المدد منك!»

نهض شاكر أفندي متعباً، وبصعوبة. وقال في داخله: «نوم هذه الليلة أيضاً راح! ارتبطنا، وبقينا في قرية قرة طاش!.. إيه من الحظ الذي أبصق في فمه، هيـ......ـه!»

خرج، وذهب راكضاً مع قرة بيرم.

جلبت خدوج طاس ماء إلى حماتها. وجه إراظجة كالكلس المطفأ. يداها ورجلاها ترتجفان. أمسكت خدوج حماتها من كتفيها، وشربتها ماء.

قالت إراظجة: «لأنهض، وأذهب أنا أيضاً».

قالت خدوج: «ذهبوا ياه. هم يرونها. أنت اجلسي!.. إذا ذهبتِ أنتِ، فماذا أفعل أنا هنا وحدي؟»

«ماذا ستفعلين؟ أليس هذا بيتك؟ هل يخاف الطائر من عشه يا هذه؟»

«طبعاً يخاف من هذه اللخبطة».

«لا يحدث شيء! لم يصل إلى هذا الحد! انهضي، لنذهب معاً إذا أردت. ألا تستطيعين المشي؟»

نهضت خدوج ببطء. تهتز على قدميها. الأولاد ينامون. أغلقت الكنة والحماة الباب، وخرجتا. حال إراظجة ليس أفضل من حال خدوج. يوجد دويّ داخل رأسها، وفي أذنيها صوت وقع حوافر لا يُعرف من أين

يأتي. يدٌ غير مرئية تمسك رقبتها، وتعصرها. هكذا تذهبان. لا صوت، ولا نبس في الخارج. الكلاب لا تنبح. والغيوم تقف هكذا. النجوم لا تلمع. إنه ليل قطراني، لعله يعود إلى زمن آدم، أو زمن الحثيين. الظلام يغوص في الإنسان.

نهض حي سلطانجة على قدميه. اجتمعت النساء والأولاد. ملأ الرجال بسراويلهم البيضاء البيت الأرضي. البنات المبعثرات الشعر يتحدثن تحت تأثير سكرة النوم. يتأوهن، وكأنهن عند رأس ميت.

رفعوا المخدة واللحاف. مددوا سلطانجة فوق مدّةٍ سميكة. عدة أشخاص يناقشون من أين جاءت الأفعى، وإلى أين هربت. نزلت كنات سلطانجة، وأحفادها من الغرف العلوية، ويبكون معاً. من كل فم، ومن كل رأس يخرج صوت. صار داخل البيت، وداخل الحوش، وأمام باب الحوش، وفي الزقاق هرج ومرج.

انحنى شاكر أفندي. يعمل. في لحظة، صرخ قائلاً: «اقطعوا الضجيج لنرَ. وفرّغوا المكان هنا بهدوء!..»

داخل سلطانجة، وخارجها يشتعل كالبارود. ربط شاكر أفندي بقوة ساقها، بعد ذلك حقنها. والآن يجرح مكان عضة الأفعى. وقال: «اشعلوا الموقد بسرعة، واحموا ملقطاً!»

صارت شجرة سلطانجة واطئة، واطئة. بعد ذلك، انطلقت وحدها. واستطالت بقدر ما تستطيع الاستطالة. ولا يبدو أنها ستنحني مرة أخرى. ذهبت الشجرة، وبقيت سلطانجة في البيت الأرضي. وسط تلك الحرارة والحريق، كانت تقول: «إنه يشبه الحلم المخيف!» كل طرف من أطرافها يتصبب عرقاً كالماء. نملت ذراعاها وساقاها. أصابعها تؤلمها. ورأسها يؤلمها.

- ٣٤ -

إصبع إراظجة

أولى الديكة تصيح.

نيّموا سلطانجة، وجاؤوا.

تنكمش خدوج عند طرف الفراش. يكاد يغمى عليها. الحيوية المتجمعة لديها فقدتها، وطارت. كأنها أسقطت ولداً آخر.

جددوا كاز القنديل. وهذا أيضاً يشتعل دون روح.

إراظجة وبيرم يجلسان جلسة أم وابنها. لا يتحدثان. لا نبس.

خربت تماماً حيوية إراظجة ونظامها. لا تعرف، ولا تستطيع أن تعرف أين هي، وأين تقف.

بعد ذلك، تمددت، ونامت بجانب الموقد...

قلبها ملخبط تماماً. تعكرت عيناها، وغابتا. كل ما يحدث، يحدث داخل قصر زجاجي حكائي. إراظجة داخل القصر الزجاجي، ترى ما يحدث، وتفهم قليلاً أيضاً. ولكنها لا تستطيع تحديد المكان الذي هي فيه، لأنه لا يبدو تماماً ما خارج القصر عبر الجدران. أذناها تطنان. في الخارج مجموعة رجال يتحادثون. يقذفون إراظجة بالسوء، ويشتمونها، ويسبونها. لا تستطيع تمييز أي واحد منهم. تريد أن تقول شيئاً ما، يدور لسانها. بعد ذلك، يقرع الطبل، ويزمر الزمر. يبتعد صوت الطبل نحو

(تشيل دة دة). يلحقون الطبل. كان حسين المجنون أيضاً يزمر بالزمر جيداً. يجعله ينطق. عندما كانت عروساً عزف أبو حسين المجنون في عرسها. تناهى إلى أذنيها من سنوات بعيدة، ومن القديم معزوفة الجزائر. وبحر بسفنه المزيتة.. مدينة بأزقتها الحجرية المرمرية تنزل إلى البحر.. التفت المدينة بمئزر، والتحفت فتياتها ذوات الحواجب الهلالية بالحرير، ويأتين من ساحل البحر، والسهول.

صرخن فجأة: «البيك قادم! البيك قادم!.. عاش الجيران!.. بيكنا قادم!..»

قريج قرة طاش تستقبل سيدها.

«بعد كل هذا الغياب، يأتي نجيب بيك!..»

يخرجون إلى الأبواب، وينظرون. ها هو نجيب بيك قادم. ركب عربة ذهبية مكشوفة، مع (رينيت) خانم. ربطت العربة إلى خيول حمراء. وألقيت البسط الحمراء.

«نجيب بيك قادم يا بيرم!.. وهل يوجد عقل عند رجال قرة طاش هذه؟ تركوا أعمالهم وحساباتهم، وخرجوا لاستقبال البيك! يستقبلونه بالطبل والزمر. تفووووه، الله يبعث لكم البلاء!.. الشعير يطير في الحقل! الجلبان يتساقط! وهؤلاء يحتفلون. الله يبعث البلاء للبيك يا بيرم! ومن هو البيك؟ لنذهب نحن إلى الحقل يا أمي يا بيرم، ولتبق الكنة في البيت. هي مريضة يا عين أمك! ضربوا الفقيرة على ظهرها! هاجلي المجنون، هاجلي المجنون ضربها! فاطمة ياه، زوج فاطمة هاجلي ضربها! فاطمة تلك، فاطمة تلك المرأة حارة جداً. إنها حارة إلى حدّ اشتعالها لهباً يا أمي! لهيبها يشعل النار في بيتك يا سبعي! افتح عينيك جيداً. فاطمة نارية جداً! فاطمة، فاطمة جيدة جداً!...»

توجس بيرم: «أمي، ماذا تقولين أنت؟»

إراظجة لا تسمع، كما أنها لا تتوقف: «لا يوجد عقل عند سبعي أبداً. لا يوجد عند بيرمي عقل حتى من لا عقل له!. انظر!.. نهض، ليذهب لاستقبال البيك!.. الله يبعث له البلاء، اجلس حيث تجلس يا جحش الحمار. وهل ستصيبك فائدة من البيك؟ انظر، إنهم يقيمون احتفالاً! أجلسوا البيك في ظل الشجرة. مدوا له بساطاً. وأشعلوا ناراً. آآآ!... ومن هذا أيضاً؟.. إنه قرة شالي!.. من أين خرج هذا؟ ألم يمت؟ أما جاء من اليمن، ومات. هل بُعث الآن؟!.. إنه يعزف على الطنبور!.. انحنى على الطنبور، وبدأ بأحب أغنية إليه:

أحببت عيونكم الفاحمة يا سادة (الأوشار)

تليق لكم أيضاً الوزارة..

كان لقرة شالي صوت يشبه صوت الحجل. تتنقل أصابعه على أوتار الطنبور. كالحجل.. تتقافز أصابعه كالحجل المنقط...

امسك مقودك، واعرف نفسك

اعداؤك مقابلك يتبادلون النظر...

يااااه، أعداؤك مقابلك يا بيرم الحمار!.. أعداؤك صاروا صفوفاً صفوفاً، ويتبادلون النظر، وينتظرون. شالي هذا، سبع شالي! ما أجمل عزفه على الطنبور يا إلهي! الطنبور الذي يعزف عليه قرة شالي!... النساء لا يستطعن التوقف على مبعدة سبع قرى، فيرقصن. انظر. يرقصن.. بيرم، انظر يرقصن! البيك أيضاً نهض، ويرقص! رينيت خانم أيضاً نهضت، وترقص. القرويون جميعهم نهضوا. النساء والبنات، والبنات الصغيرات، والصبيان يرقصن!.. يبكون!.. خروف! خروف!.. آه من اليمن الدامية!.. جلبوا الخروف!... انهض يا بيرم، انهض يا فرخاً فاسد الحليب! انهض،

وانظر، إنه خروفك! وهذا الخروف أيضاً خروفك، انهص!.. يذبحونه، يذبحونه، ذبحوووووه!.. انهض، ذبحوه! ذبحوا الأول أيضاً!.. لم تنادِني!... ليأكل الناس غداً اللبن، وليشربوا الحليب، وليتفرج أولادك من الطرف الآخر وهم يبتلعون ريقهم!.. انظر، انظر، فاطمة لا تدخل إلى الدبكة، تريدك أنت. تقول: لا أدبُك إذا لم يكن بيرم موجوداً!.. انهض، واسأل هذه المرأة عن حالها وخاطرها! انهض في هذا ثواب!..»

نهض بيرم خائفاً. كاد يفقد وعيه.

قال متوجساً: «أمي فقدت صوابها!..»

أيقظ خدوج وهو يلكزها: «انهضي يا هذه. يحدث لأمي شيء! انظري!..»

نهضت خدوج وهي تفرك وجهها الشاحب، وعينيها الغائرتين الفاقدتين بريقهما. وأمسكت بيد زوجها دون معرفة ما ستفعله.

«انهض يا بيرم!.. انهض يا بيرم!.. انهض، وانظر! أخوة هاجلي المجنون يطعنون فولاذ باشا!.. انهض، انهض يا فرخ الحمار!.. انهض وانظر، إنهم يحرقون البيدر أيضاً!.. انظر!.. ألسنة لهب تغدو رماداً!.. تبن بقرتك وثورك يغدو رماداً. انظر!.. طحين أولادك وبرغلهم يصير رماداً، انظر.. تفوووه يا بيرم، هوهوووه!.. من أين خرج حراس الغابة هؤلاء؟ خدوج! يا خدوج!.. اركضي، وخبّري بيرم على طريق دوزمشة، ليفرغ حمله في وادٍ، يوجد حراس غابة في القرية! اركضي بسرعة!.. ليخبئ البلطة، اركضي. سيمسك حراسُ الغابة الولد. اركضي!.. لن يصلح هذا السلم!.. دائماً تظهر عثرات! والآن حراس الغابة. انهضي ياكنتي، سيتضرر الولد، ويبيعّونه حماره. انهضي يا بطتي!.. يا بيرم! انظر إنهم يحرقون البيدر مرة أخرى!.. الله يبعث لهم البلاء، الله يجعلك

لا تميز الأعمى من الشيطان يا بيرم!.. يا بيرم!.. أنا أعرف كما أعرف اسمي إراظجة ما سيحدث يا بيرم».

مع صراخ إراظجة ينبح طومان في الخارج.

* * *

هزّ بيرم أمه جيداً، وأنهضها.

شربتها الكنة خدوج طاس ماء آخر. شدّ إراظجة نحو الفراش. مدداها بهدوء.

ولكن إراظجة نهضت فوراً، وقفزت، وصرخت: «الأفاعي تأخذ ثأرها! الأفاعي تأخذ ثأرها، انظروااا!... الأفاعي التي هي أفاعٍ لم تحتمل تصرفات السافلين مثلكم. كيف تحتملون كل هذه الحقارة، وهذا الظلم، وهذا الذل رغم كونكم أناساً... هيـ....ـه يا قرة بيرم؟..»

مدت إصبع القيادة نحو عين بيرم: «أجب يا هذا الخواف، يا بيرم!.. أنت أيضاً تتجول في هذه الدنيا على أنك إنسان، ولكن، أهذه هي إنسانيتك يا بيرم المتسكع!..»

تصرخ بكل صوتها. تمسك خدوج وبيرم من أكتافهما، وتهزهما. وتهز حتى أحمد الذي استيقظ من فراشه متعرقاً: «أجيبوا، أجيبوا!.. أهذه هي إنسانيتكم؟..»

بعد ذلك، تقف أمام بيرم، وتمد إصبعها نحو عيني ابنها الناعستين. يكبر أصبع إراظجة بنظر بيرم إلى حدود قصوى، ويغدو كقوس محراث.

«لا تيأس يا بيرم!.. لا تخنس هكذا بجبن يا بيرم!...»

بعد قليل، سحب بيرم رأسه إلى الخلف. في عيني أمه لهب يتأجج. ويلتمع أحمر، ويشتعل حطب الإشعال. خاف، تأتأ قائلاً: «حسناً يا أمي.. ولكن الآن ليلاً. ماذا يُفعل في الليل؟ ليأت الصباح، ونذهب! ليأت الصباح، ولننطلق في الطريق!...»

قالت إراظجة: «ليكن ليلاً.. انطلقوا في الطرق!.. في الطرق!...»





ثأر الأفاعي

فقير بايقورت

بدأ الكاتب شاعراً، ولكنه انتقل إلى القصة والرواية، وصدر له أربع عشرة مجموعة قصصية واثنتا عشرة رواية، وكتب عدة مجموعات قصصية للأطفال.

حصل على جوائز أدبية عديدة في تركيا، وقد حصل على جائزة يونس نادي للرواية عن روايته هذه عام 1958 تعتبر رواية ثأر الأفاعي أول نموذج لتيار أدب الريف الذي ظهر في تركيا أواسط الخمسينات. وهي ليست نموذجاً رائجاً لهذا الأدب فحسب، بل بقيت إحدى أهم روايات هذا التيار.

ISBN:2-84305-841-X

